العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

سلسلة دراسات كلامية

الوحي والنبوة في القرآن

المرجع الديني
الشيخ عبد الله الجوادي الآملي

ترجمة
السيد هاشم الميلاني

سلسلة دراسات كلامية

الوحي والنبوة
في القرآن

المرجع الديني الشيخ عبدالله الجوادي الآملي

ترجمة: السيد هاشم الميلاني

العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

جوادي آملي، عبد الله، 1350 هجري- مؤلف.
الوحي والنبوة في القرآن / المرجع الديني الشيخ عبد الله الجوادي الأملي ؛ ترجمة السيد هاشم الميلاني.-الطبعة الأولى.-النجف، العراق : العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ١٤٤٤ هـ. = ٢٠٢٣.
٢٩٤ صفحة ؛ ٢٤ سم.-(سلسلة دراسات كلامية)
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية : صفحة ٢٩٢-٢٩٤
النص باللغة العربية ومترجم من اللغة الانجليزية.
ردمك : ٩٧٨٩٩٢٢٦٨٠١٧٠
١. الوحي في القرآن. ٢. النبوءات في القرآن. أ. الميلاني، هاشم، مترجم. ب. العنوان.

LCC : BP134.R48 J39 2023
مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
فهرسة اثناء النشر

الوحي والنبوة في القرآن

تأليف: المرجع الديني الشيخ عبدالله الجوادي الآملي

ترجمة: السيد هاشم الميلاني

الناشر: العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة، المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيَّة

الطبعة: الأُولىٰ، ٢٠٢٣م

Website: www.iicss.iq
E-Mail: islamic.css@gmail.com
Telegram: @iicss

المحتويات

مقدمة المركز ١٣
المقدِّمة ١٥
ضرورة النبوّة..... ١٥
الدليل العقليّ..... ١٥
الحاجة إلى القانون وعجز البشر عن التقنين ١٥
ضرورة الهادي..... ١٨
سؤال وجواب ٢٠
السؤال الأوّل: لماذا تمّ انتخاب جميع الأنبياء من الرجال؟..... ٢٠
السؤال الثاني: هل يمكن العيش من دون وجود نبيّ؟ ٢٢
السؤال الثالث: هل ظهر نبيّ في غرب الكرة الأرضيّة؟ ٢٢
الدلائل النقليّة ٢٤
طرق معرفة النبوّة ٢٥
١. الشهود العرفانيّ..... ٢٥
٢.الدليل العقليّ..... ٢٦
الخطوط العامّة للمعجزة ٣٠
٣.الدليل النقليّ ٣١
٤.اجتماع القرائن والشواهد ٣٤

القسم الأوّل: الوحي

الفصل الأوّل: حقيقة الوحي ٣٩
الوحي في اللغة..... ٣٩

الوحي في القرآن..... ٣٩
١. الإلقاءات الشيطانيّة..... ٤٢
٢. الوحي الى الأرض والسماء..... ٤٤
٣. الوحي إلى النحل..... ٤٥
٤. الوحي أو الإلهام للعمل..... ٤٦
٥. الوحي للأنبياء..... ٤٨
٦. الرؤيا الصادقة..... ٥١
٧. الوحي إلى الملائكة..... ٥٣
أقسام الوحي عند أمير المؤمنين..... ٥٣
رأي العلماء في منشأ الوحي..... ٥٥
الفصل الثاني: الفرق بين الوحي والتجربة الدينيّة..... ٥٩
أنواع التجربة الدينيّة..... ٦٠
الأقوال في التجربة الدينيّة..... ٦٠
نواة التجربة الدينيّة المشتركة..... ٦٠
بعض الالتباسات في التجربة الدينيّة..... ٦١
الموقعيّة المنطقيّة للتجربة..... ٦٢
تعريف الدين..... ٦٣
المشاهدات الوحيانيّة..... ٦٥
تجربة غير المعصومين..... ٦٨
تقييم طرق كسب التجربة..... ٧٠
ميزان الكشف والتجربة..... ٧٣
طريق التجربة الصحيحة..... ٧٥
الحل القراني للتجرة..... ٧٧
نموذج من التجربة الدينيّة في القرآن..... ٨١
الفصل الثالث: أثر الوحي..... ٨٥
الوحي مبدع العقلانيّة..... ٨٥

إسناد أزمة الهويّة إلى الوحي ٨٥
الإجابة على نظريّة أزمة الهويّة ٨٩

الفصل الرابع: منكرو الوحي ٩٧

جذور إنكار الوحي ٩٨
١. قبول ولاية غير الله ٩٩
٢. الجهل والغفلة ٩٩
٣. التحجّر والتعصّب ١٠٠
٤. الكبر واحتقار الآخرين ١٠١
٥. جمع الأموال ١٠٣
دسائس منكري الوحي وحيلهم ١٠٤
١. الاختلاف والفرقة ١٠٤
٢. اللغو ١٠٤
٣. الجدال بالباطل ١٠٥
٤. الاعتماد على الأسباب الظاهريّة ١٠٦
٥. الاعتماد على العلوم المادّيّة ١٠٧
٦. الاستهزاء بالقيم ١٠٧
٧. المنع من الخير والإحسان ١٠٧
منطق منكري الوحي وأفكارهم ١٠٨
١. نبوّة الملائكة ١٠٨
٢. تقييم الرسالة مع سفارة الملوك ١٠٩
٣. اتّهام الأنبياء ١١٠
٤. الطلبات المادّيّة والاقتراحات غير المعقولة ١١١
٥. نزول العذاب ١١١
٦. طلب حضور الله والملائكة ١١٢
٧. القصر المذهّب ١١٢
٨. جعل الوحي أسطورة ١١٣

٩. إضعاف معنويّات المؤمنين ١١٣
نتائج إنكار الوحي ١١٤
١. فشل المكر والحيلة ١١٤
٢. النصر المقطوع به للأنبياء ١١٥
٣. مجالسة الشيطان ١١٥
٤. التوجّه إلى غير الله ١١٦
٥. الانتقام الأليم ١١٦

القسم الثاني: النبوّة العامّة

الفصل الأوّل: أهداف النبوّة وفوائدها ١٢١
١. تعليم ما لا نعلم ١٢١
٢. تكامل العقل ١٢٣
٣. إقامة القسط ١٢٤
٤. النجاة من الظلمات ١٢٥
٥. عبادة الله وترك الطاغوت ١٢٥
٦. الحكم بين الناس في اختلافاتهم ١٢٦
٧. الدعوة إلى الحياة الفضلى ١٢٦
٨. استذكار النعم ١٢٧
٩. الدعوة إلى الأخلاق الحميدة ١٢٧
١٠. حرّيّة الإنسان ١٢٧
الشريعة حامية الحرّيّة ١٢٨
والخلاصة ١٣٢
تقييد الدين ١٣٣
حكمة البعثة في الروايات ١٣٥
تحليل رواية الإمام الرضا عليه السلام ١٣٧
الفصل الثاني: مباحث عصمة الأنبياء ١٣٩
أ) خصائص العصمة ١٣٩

١. تعريف العصمة ١٣٩
٢. أنواع العصمة ١٤٠
٣. الوصول إلى العصمة ١٤٢
٤. إمكان إثبات عصمة الأنبياء ١٤٤
درجات العصمة ١٤٧
عدم كون العصمة ذاتيّة وانحصاريّة ١٤٨
اكتسابيّة العصمة ١٤٨
الفرق بين عصمة الأنبياء وغيرهم من الناس ١٤٩
ب) إثبات عصمة الأنبياء ١٥١
الفئة الأولى من الآيات ١٥٢
الفئة الثانية من الآيات ١٥٣
الفئة الثالثة من الآيات ١٥٣
الفئة الرابعة من الآيات ١٥٤
الفئة الخامسة من الآيات ١٥٥
الفئة السادسة من الآيات ١٥٧
الفئة السابعة من الآيات ١٥٩
الفئة الثامنة من الآيات ١٦٠
ج) الأقوال المختلفة حول العصمة ١٦١
١. كلام الأئمّة عليهم السلام ١٦١
٢. آراء المتكلّمين ١٦٢
٣. رأي الحكماء ١٦٧
٤. رأي العرفاء ١٦٩
قدرة المعصوم على الذنب ١٦٩
عصمة الأنبياء في التبليغ ١٧٠
دلائل من جوّز الخطأ على الأنبياء ١٧١
د) تنزيه الأنبياء ١٧٤

١. نبيّ الله آدمعليه السلام ١٧٤
٢. نبيّ الله نوحعليه السلام ١٧٥
٣. نبيّ الله إبراهيمعليه السلام ١٧٨
٤. نبيّ الله موسىعليه السلام ١٨٠
٥. نبيّ الله يوسفعليه السلام ١٨٢
٦. نبيّ الله داودعليه السلام ١٨٥
٧. نبيّ الله سليمانعليه السلام ١٨٧
٨. نبيّ الله يونسعليه السلام ١٨٨
٩. نبيّ الله زكريّاعليه السلام ١٩١
١٠. نبيّ الإسلامصلى الله عليه وآله ١٩٢
روايات سهو النبيّصلى الله عليه وآله ٢٠٠

القسم الثالث: النبوّة الخاصّة

الفصل الأوّل: دلائل نبوّة نبيّ الإسلام ٢٠٧
أوّلًا: ادّعاء النبوّة وتصديق الله ٢٠٧
ثانيًا: معاجز نبيّ الإسلامصلى الله عليه وآله ٢٠٩
١. معجزة القرآن ٢١٠
أ) الفصاحة والبلاغة ٢١١
ب) الهداية والتربية ٢١١
ج) الإعجاز في نظم القرآن ومعانيه ٢١٤
د) الإعجاز في الأدب والفنّ ٢١٧
نموذج من بلاغة القرآن ٢١٨
الإعجاز والعجز ٢٢١
هـ) حاكميّة القرآن على سائر الكتب السماويّة ٢٢٣
نماذج من التحريف في التوراة والإنجيل ٢٢٤
فضيلة نبيّ الإسلامصلى الله عليه وآله وهيمنته ٢٣٢

و) الإعجاز في التقنين ٢٣٣
ز) الإعجاز في الإخبار بالغيب ٢٣٦
ح) الإعجاز من حيث تنوّع العلوم ٢٣٦
١. قانون الجاذبيّة ٢٣٧
٢. كرويّة الأرض ٢٤٠
٣. حركة الأرض ٢٤٢
٢. سائر معاجز نبيّ الإسلامﷺ ٢٤٤
ثالثًا: بشارة الأنبياء السابقين ٢٤٩
رابعًا: خصائص النبيّ محمّدﷺ ٢٦٦
الفصل الثاني: الخاتميّة ٢٧٥
محمّدﷺ خاتم الأنبياء ٢٧٥
أسئلة حول الخاتميّة ٢٧٧
الأجوبة ٢٧٨
١. البرهان في القرآن ٢٧٨
٢. الخاتميّة من وجهة نظر العقل ٢٨٠
٣. الولاية سند النبوّة والإمامة ٢٨٢
٤. الازدهار والتكامل ٢٨٤
فهرس المصادر ٢٨٩

مقدمة المركز

لم تنفك البشرية منذ بزوغها الى الوجود على الكرة الأرضية من نبي مرسل يأخذ بأيديها، وينير لها الدرب، ويعلّمها مصالحها ومفاسدها الحقيقية، لتنال الخير والرضى والفوز والسعادة في كلا الدارين.

وإذا أردنا أن نحيط علمًا تامًا وكاملاً بمسألة النبوة، لابد وأن نفهمها ضمن المنظومة الكونية العامة التي تعتمد على الرؤية الإلهية، حيث تجعل الله هو المبدأ و المنتهى، فحينئذٍ تأخذ النبوة موقعها كحلقة من حلقات سلسلة الوجود الكبيرة، لتكون الواسطة بين الله تعالى الخالق والمدبر، وبين المخلوق الناقص والمحدود بحدود المادة في دنيا تُعدّ أدنى وأنزل مراتب الوجود.

فإذا أردنا أن ننظر الى النبوة بغير هذه النظرة، وبالاعتماد على سائر المدارس والتيارات الوضعية، لفقدت النبوة معناها، ولظهرت شبهات البراهمة وغير البراهمة من الذين يقتاتون على مائدة المنظومة الكونية المادية المنقطعة عن الغيب.

لقد تطرّق مؤلف هذا الكتاب ـ المرجع الديني سماحة الشيخ عبدالله الجوادي الآملي ـ إلى إثبات اصل النبوة وما يتفرّع عليها من مسائل، معتمدًا على المنظومة الكونية الإلهية، ومستعينًا بنصوص القرآن والروايات الشريفة، وما يدلّ عليه العقل الصريح.

ونحن في المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية المهتمّ برسم الاستراتيجيات الدينية والمعرفية، إذ نقدّم ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية، لايفوتنا أن نتقدّم بالشكر والتقدير لمؤسسة الإسراء حيث سمحت بترجمة هذا الكتاب، وكذلك سائر المساهمين في إنجاز هذا العمل و طباعته.

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وآله الطهر الميامين.

رجب المرجب

١٤٤٤ هـ

المقدِّمة

ضرورة النبوّة

إثبات ضرورة النبوّة يتمّ عن طريقين: طريق الدليل العقليّ وطريق الدليل النقليّ. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى ثلاث نقاط ضروريّة:

١. للنبوّة عنصران محوريّان: الأوّل القانون؛ وهو الوحي، والثاني من يجيء به؛ وهو النبيّ. لذا، فإنّ قسمًا من الدليل العقليّ يختصّ بضرورة الوحي، والقسم الآخر ينظر إلى ضرورة النبيّ، بيد أنّ إثبات أحدهما يستلزم ثبوت الآخر.

٢. تتكفّل الحكمة وعلم الكلام البحث العقليّ حول الوحي والنبوّة، وما نورده هنا في تفسيرنا الموضوعيّ يكون من باب المقدّمة للتطرّق إلى حلّ بعض الآيات المتكفّلة لبيان النبوّة والرسالة.

٣. يُبحث عن مسألة الوحي والنبوّة، وبيان مسألة الدين ومنشئه، بمناظر وفنون مختلفة: كعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرهما، غير أنّنا لا نتطرّق إليها في هذا التقرير.

أمّا هنا، نتطرّق إلى بيان الدليل العقليّ:

الدليل العقليّ

إنّ مبادئ الدليل العقليّ على ضرورة النبوّة، تكون:

أوّلًا: الحاجة الضروريّة إلى القانون، وعجز البشر عن التقنين.

ثانيًا: الحاجة إلى تكامل الروح.

ثالثًا: ضرورة وجود الهادي.

وهنا لا بدّ من شرح الدليل ومبادئه:

الحاجة إلى القانون وعجز البشر عن التقنين

يتمّ تبيين هذا البرهان عن طريق عدّة نقاط تكون بمثابة المبادئ:

١. إنّ خلقة الإنسان تكون على أساس الحكمة، وعلى يد الله الحكيم القدير.
٢. يتكوّن الإنسان من عنصريْ المادّة والروح. وهذا التركيب يسبّب حيازة الإنسان لخصائص الجسم المادّيّ، وخصائص الروح المجرّدة، ويتبعها حدوث حوائج عقليّة وحسّيّة له، غير أنّ الغاية من خلقته لا بدّ وأن تكون أمرًا معقولاً وخالدًا.
٣. يكون الإنسان بالقياس إلى مادّته وطبيعته، موجودًا طاغيًا عنيفًا محتكرًا ومسخّرًا وربّما يسطو على حقوق الآخرين، وهذه خصائص بُعده الطبيعيّ. لذا لو لم يتمّ تعديل هذه القوى الطبيعيّة في الإنسان، سيكون موجودًا خطرًا وشرّيرًا، وإذا أراد أن يفكّر في حقوق الإنسان ويدوّنها، سيدوّنها لا محالة لصالح فريق وضرر فريق آخر، ويستعبد حينئذٍ بهذا القانون الوضعيّ مجموعة ويستغلّ أخرى لمصالحه، ويسبّب استضعافهم يومًا بعد يوم، ويسوقهم إلى الهلاك والفناء بأدوات مختلفة.

هكذا إنسان، يرى ملاك سعادة الإنسان في تفوّق الظالمين واستعلائهم، ومنطقه هو: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾[١]، إنّه يدخل الضعفاء تحت نير سلطته الغاشمة، ولكن بما أنّ استغلال الآخرين ليست دائميّة، لم يبرح الأمر حتّى ينتهي إلى النزاع بين المتخاصمين. فالمقولة المشهورة «الإنسان مدنيّ بالطبع» لم تكن صحيحة من دون تحليل لها؛ لأنّ طبع الإنسان المادّيّ والطبيعيّ، لم يحتوِ على هكذا مدنيّة؛ لأنّه يريد حيازة جميع الأشياء لنفسه بالطبع (لا بالفطرة).

١. من جهة أخرى، لا يوجد بدّ للإنسان من الحياة الاجتماعيّة؛ لأنّه لا يتمكّن من التغلّب على مصاعب الحياة بمفرده؛ للوصول إلى حوائجه الناشئة من طبيعته. وبناء على هذا، يكون بحاجة إلى الحياة الجمعيّة والتعاون، ومن هنا تظهر جذور الظلم والتعدّي، واستغلال الآخرين، والتوسّع والطمع وهنا يحتاج الإنسان إلى القانون، قانون عامّ وجامع وكامل وموصل للسعادة.
٢. ومن جهة ثانية، فإنّ عقل الإنسان وإن كان له دور مهمّ في طيّ طريق الكمال والسعادة، غير أنّه لا يتمكّن من كشف جميع المجهولات وحلّ المنازعات

---

١. طه: ٦٤.

والخلافات بمفرده؛ لأنّ كثيراً من مسائل المبدأ أو المعاد، وعدداً آخر من القيم، لا تدخل في حيّز معلومات عقل الإنسان. ثمّ كما إنّ العقل النظريّ يُصاب بالخطأ والمغالطات في مقام الفكر والمعرفة، كذلك العقل العمليّ يصبح أسير الشهوات والغضب في مقام العزم والإرادة، كما نراه لم يتمكّن من اختيار طريق صحيح في كثير من المسائل الاقتصاديّة والأخلاقيّة والأسريّة وغيرها. والشاهد على ذلك: ظهور مكاتب متناقضة مختلفة في حياة البشر.

٣. ومن جهة ثالثة، لم يمتلك الإنسان مؤهّلات وضع القانون العامّ والشامل؛ لأنّه لم يحط علمًا بجميع خصائص المناطق الجغرافيّة في مختلف أدوار التاريخ ولجميع الجوامع الإنسانيّة ليضع لها قانونًا مناسبًا. والشاهد على هذا العجز: اختلاف القوانين في كلّ عصر ومصر، مضافًا إلى تغييرها وتبديلها وترميمها المستمرّ في الأجيال المختلفة.

مع لحاظ هذه الجوانب المختلفة والمبادئ المذكورة، يذعن العقل بلزوم مجيء القانون الكامل والجامع ممّا هو وراء الطبيعة، وبظهور سلطة تنظّم نتائج العقل، وتدفع أخطاءه، وتقوم بتطبيق القانون الإلهيّ الجامع والتامّ، وتحوّل الخلاف والاختلاف إلى الوفاق والاتّحاد، وتنظّم حوائج الإنسان المعرفيّة والعقليّة، وتكتشف المواهب وتعرّف الإنسان على مصالحه ومضارّه. سلطة مليئة بالعلم، وعارفة بالزوايا وخفايا نظام الخلقة المظلمة والنيّرة، الصغيرة والكبيرة، الجزئيّة والكلّيّة.

إنّ المظهر الجليّ يتمثّل في وجود الأنبياء العظام، وسيأتي بيانه؛ لذا فإنّ النبيّ يكون أوّل مخلوق لله تعالى، حيث يسعد المجتمع في ظلّ نبوّته، كما أنّ آخر شخص يعيش على الأرض، لا بدّ وأن يكون تحت ظلّ الوحي والدين الإلهيّ؛ لأنّ حاجة الإنسان إلى الوحي والدليل ضروريّة.

وليعلم أنّ بعض الأمور التي يحتاجها المجتمع الإنسانيّ، لا تتأتّى من دون النبوّة، وسيأتي بيان ذلك في فوائد النبوّة وأهدافها.

حاجة الإنسان إلى التكامل والسعادة مع عجزه عن الاستقلال بهما.

أشرنا إلى أنّ للإنسان روحًا مجرّدة، وقد ثبت في محلّه أنّ روح الإنسان دائميّة لا

يتطرّق إليها الهلاك والفناء، كما أنّ حقيقة الإنسان تتكوّن من الروح وأنّ الجسم طفيليّ على الروح المجرّدة، وعليه فإنّ الإنسان موجود متفوّق؛ لامتلاكه الروح والنفس الناطقة، فهو ليس أرضيًّا وزمانيًّا بحتًا، كما أنّه ليس متعلّقًا بالسماء والملائكة، وهو أيضًا موجود متحرّك ونامٍ غير مستقرّ وطالب للكمال، يتمكّن من احتواء جميع العلوم الطبيعيّة، الاجتماعيّة، البيئيّة، الفلكيّة والبحريّة.

ولكن مع هذا، فالإنسان لا يستغني عمّا تبلّغه النبوّات، ولا يمكنه الوصول إلى الكمال المطلوب، لذا يحتاج إلى قوانين الأنبياء التي تنمّي الروح وتوصله إلى السعادة والكمال.

إنّ الأنبياء سبب لازدهار روح الإنسان من خلال القوانين الإلهيّة، لذا يحتاج كلّ إنسان إلى الوحي الإلهيّ سواء أكان أوّل مخلوق أم آخره، وسواء أكان منفردًا منعزلاً أم اجتماعيًّا؛ لأنّه يحتاج إلى الهداية الغيبيّة في علاقته مع نفسه أو مع خالقه، وكذلك في كيفيّة تنظيم علاقاته مع نظام الكون وإن كان منعزلاً ومنفردًا.

ضرورة الهادي

قلنا إنّ العنصر المحوريّ للنبوّة يتكوّن من شيئين، أوّلاً: القانون؛ وهو الوحي الإلهيّ، وثانيًا: من يأتي بالقانون؛ وهو النبيّ والدليل. وقد تمّ بيان ضرورة الوحي طبقًا لما مرّ، أمّا ضرورة وجود النبيّ والدليل؛ فإنّ القانون الغيبيّ، أي الوحي الإلهيّ، لا ينبت من الأرض ولا يمطر من السماء، ولا يخطر على مسارب عقل الإنسان، ولم تدرج في صفحات الكتب التي دوّنها الإنسان ولا في أيّ مكان آخر، بل يتجلّى حصرًا من قبل الله تعالى، من دون واسطة تارة، وبواسطة الملائكة تارة أخرى.

إنّ مهبط هذا النداء الغيبيّ، ومَجلى هذا الكلام الملكوتيّ، هو قلب الإنسان المعصوم الطاهر، المصون من السهو والنسيان في جميع شؤون تلقّي الوحي وحفظه وتبليغه، والمنزّه عن أيّ نوع من العصيان والطغيان. فهكذا قانون سماويّ، يحتاج إلى تبيين وتعليل وإجراء وحماية.

إنّ المجتمع البشريّ لا يصل إلى سعادته المنشودة من دون أسوة، ومن دون مرجع لحلّ الخلاف وفصل الخطاب، ومن هذا المنطلق يتمّ تبيين ضرورة وجود مرسل إلهيّ يتولّى جميع تلك الشؤون المذكورة.

وفي مقام بيان بعض تلك الأصول، يمكن أن يقال: إنّ الإنسان يبدأ سيره التكامليّ ونيل سعادته من منطقة القوّة إلى أن ينتهي إلى الفعل: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[١]. وعليه، لا بدّ في أن تكون نقطة البدء ونهاية الختم بيد الدليل والهادي؛ لأنّ الإنسان لا يتيسّر له الوصول إلى الغاية من دون الطريق والهادي؛ لوجود وديان ومزالق ومفاوز مضلّلة، وكذلك وجود قطّاع طريق الفكر، ووجود السراب وأعاصير مخوفة، وحيتان مصّاصة الدماء في وسط الطريق.

وعليه، يلزم بين نقطة البدء والوصول إلى الهدف، من وجود طريق اسمه الدين، ودليل اسمه النبيّ، فالدين يضع الشريعة أمام الإنسان ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾[٢] ويمكن إطلاق القانون الدينيّ على الطريق، واسم النبيّ على الدليل والهادي.

ومضافًا إلى ما قلنا [نشير إلى]:

١. إنّ الدين الذي يُعدّ صراط التكامل المستقيم، المتضمّن لسعادة الفرد والمجتمع، وإن كان يكشف بعضه بمساعدة العقل البرهانيّ، غير أنّ قسمًا مهمًّا منه ينكشف عن طريق الوحي.

٢. المجتمع الإنسانيّ فضلاً عن حاجته إلى الهادي فيما يخصّ الوحي السماويّ، بحاجة إلى أسوة وقدوة في المستقلّات العقليّة أيضًا.

٣. إنّ قائد الإنسان في كلا القسمين، هو الإنسان الكامل المعصوم الحائز على اليقين الثابت في جانب العقل النظريّ، والعزم النافذ في العقل العمليّ. كما يكون كالبنيان المرصوص في طريق الوحي الإلهيّ، مضافًا إلى كونه محبوبًا ومطلوبًا ومقصودًا لدى قافلة الإنسان المتكامل، ويقال له النبيّ،وفي ظل عزته يذل الالحاد.

---

١. البقرة: ١٥٦.

٢. الإنسان: ٣.

وبعبارة أخرى، إنّ الله الذي هو ربّ العالمين، غمر العالم والكون تحت تدبيره، لم يكن الإنسان المتفكّر العاقل بمنأى عن هذا الأمر؛ لأنّ تدبير الإنسان وتعليمه وتربيته لا بدّ وأن يتناسق مع خلقته الجسميّة والمعرفيّة، ومن الواضح أنّ هذا العمل العظيم، لا يتأتّى من خلال معلومات الإنسان الضئيلة، بل إنّ المتصدّي لهذا العلم لا بدّ وأن يمتاز بالعلم اللدنيّ والإلهيّ الغزير، مستعينًا بالتأييد الربّانيّ ومعونته: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[1]، وهذا الشخص هو النبيّ المختار من قبل الله تعالى، لتعليم الإنسان وتربيته. وبعبارة أخرى:

١. إنّ عقل الإنسان يشاهد سهو نفسه وغيره ونسيانه العلميّ وعصيانه العمليّ، ويدرك من خلال التجارب المستمرّة أنّ البشر العادي لم يكن مصونًا من النسيان المعرفيّ والنيّة السيّئة.

٢. لم يكن بمقدور هكذا إنسان، تدوين قانون مصون من الخطأ ومعصوم من الزلل ومحفوظ من النقص، نعم يرى غير الموحّدين من المتفكّرين طوباويّة تحقّق الإنسان المعصوم، غير أنّ عند الموحّد العالم، يعدّ وجود هكذا إنسان منزّه، من القطعيّات؛ لأنّه يعتقد بالله الهادي والحكيم والعادل، الذي قدرته أزليّة ولا يتطرّق إليه الضعف والعجز والوهن، ولا يوجد أيّ مانع داخليّ، كالبخل، أو خارجيّ، أي المقهوريّة لعوامل خارجيّة، يمنع الله تعالى من خلق الإنسان المعصوم في مقام العلم والمنزّه في مقام العمل، تطبيقًا لهدايته وحكمته وعدالته. ويسمّى هذا الإنسان الكامل بالنبيّ.

سؤال وجواب

السؤال الأوّل: لماذا تمّ انتخاب جميع الأنبياء من الرجال؟

الجواب: النبوّة إمّا أن تكون إنبائيّة أو تكون تشريعيّة. والقرآن الكريم جعل مسألة النبوّة التشريعيّة، والتي هي الرسالة، بعهدة الرجال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]؛ لأنّها عمل إجرائيّ يستلزم الحشر مع الناس، وقيادة الحروب

---

١. البقرة: ٨٧.

٢. الأنبياء: ٧.

والصلح، واستقطاب الأموال وتوزيعها، وتنظيم عمل المجتمع. وعليه، بما أنّ الرسالة التي بمعنى قيادة المجتمع، وبيان الحلال والحرام والواجب والمستحبّ والمكروه والمباح ونحوها، نبوّة خاصّة تتكفّل وظيفة الإجراء، وضعت بعهدة الرجال، أمّا النبوّة الإنبائيّة فهي بمعنى اطّلاع شخص عن طريق الوحي بما يجري في الكون وما سيؤول إليه، يرى مستقبله ويخبر عن مستقبل الآخرين، فهكذا نبوّة ترجع إلى مقام الولاية لا النبوّة التشريعيّة والرسالة الإجرائيّة. فهكذا نبوّة وإن كانت سندًا لكلّ رسالة ونبوّة تشريعيّة، غير أنّها لا تختص بالرجال، بل تتمكّن النساء أيضًا من الوصول إلى هذه الرتبة، كالصدّيقة الزهراء عليها السلام ومريم عليها السلام.

إنّ عدم وصول النساء إلى النبوّة لا يقلّل من مرتبتهنّ؛ لأنّ المرأة تصل إلى مقام الولاية التي هي سند النبوّة، وربمّا تكون أفضل من كثير من الأنبياء، كما وصلت فاطمة الزهراء عليها السلام إلى هذه الرتبة.

إنّ الله تعالى، قد جعل مرتبة الزهراء عليها السلام، طبقًا لبعض الروايات، أفضل من جميع الأنبياء، كما روى جابر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت: لم سمّيت فاطمة الزهراء زهراء؟ فقال: لأنّ الله، عزّ وجلّ، خلقها من نور عظمته، فلمّا أشرقت أضاءت السماوات والأرض بنورها، وغشيت أبصار الملائكة وخرّت الملائكة لله ساجدين وقالوا: إلهنا وسيّدنا ما هذه النور؟ فأوحى الله إليهم هذا نور من نوري، أسكنته في سمائي، خلقته من عظمتي، أُخرجه من صلب نبيّ من أنبيائي، أفضّله على جميع الأنبياء، وأُخرج من ذلك النور أئمّة يقومون بأمري، يهدون إلى حقّي، وأجعلهم خلفائي في أرضي بعد انقضاء وحيي[1].

فالولاية التي هي رتبة ملكوتيّة ومعنويّة، وتعدّ باطن النبوّة والرسالة، تشترك بين الرجل والمرأة، فمن يصل إلى هذه الرتبة يقترب من الله غير أنّه ربمّا لم يُكلّف بالإجراء [الرسالة] وقد يُناط به مقام الإجراء. لذا، يتمّ تكليف الرجال لتقبّل الأخبار الغيبيّة وإبلاغها إلى النّاس، والكفاح ذودًا عنها، فيَقتلون المحاربين وربمّا يُقتلون أو يُأسرون ويعذّبون وهكذا.

وبناء على هذا، فكلّ رسول ونبيّ «وليّ»، ولكن ليس كلّ «وليّ» رسول مشرّع.

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٤٣، ص١٢ ح٥.

السؤال الثاني: هل يمكن العيش من دون وجود نبيّ؟

الجواب: إنّ من لوازم النبوّة العامّة، عدم خلوّ الناس من دون هادٍ غيبيّ، ومن المستحيل أن يترك الله أمّة من دون معلّم وهادٍ (أي نبيّ)؛ لأنّ الله هو المدبّر والمربيّ للإنسان.

إنّ الإنسان قد طوى مراحل في الماضي وله مراحل مستقبليّة لا بدّ وأن يسلكها شاء أم أبى. إنّه بشكل مستقلّ لا يعلم من أين أتى، وإلى أين سيذهب، ولو لم يكن الوحي والنبوّة فإنّه يجهل مبدأه ومنطلقه كما يجهل معاده ومستقبله. كما أنّه رغم تطوّر العلم يجهل كثيرا من أسرار جسمه، ويوجد في الكون آلاف الأسرار المغلقة من دون أن يلقى حلاًّ لها عند مواجهتها.

إنّه بحاجة إلى قانون يوصله إلى السعادة، وبحاجة إلى معلّم إلهيّ يؤمّن مصالح الفرد والمجتمع والدنيا والآخرة وسائر حوائجه. واسم هذا المعلّم المقنّن والمبلّغ الهادي هو النبيّ. ولذا لا تخلو أيّ أمّة من نبيّ: ﴿إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1]. ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[2] فالله تعالى، لم يترك الخليقة، سواء الموحّدة أو الملحدة، من النبوّة العامّة، والنبوّة لم تنفكّ عن الخليقة. كما أنّه لا يمكن خلق الحيوان المائيّ من دون خلق الماء، أو خلق الإنسان من دون خلق الهواء، فكذلك لا يمكن خلق المجتمع البشريّ من دون إرسال وحي أو نداء غيبيّ.

وعليه، فانفكاك الخليقة عن النبوّة غير ممكنة، سواء أكان نفس النبيّ موجودًا في المجتمع أم من ينوب عنه وخليفته، أو كتابه وتعاليمه التي تُعدّ عصارة الرسالة. إذن، لا يمكن افتراض سلوك البشر الثقافيّ من دون النبوّة؛ نظرًا لربوبيّة الله وحكمته، وهذا مؤيّد من قبل العقل الصحيح والوحي الصريح.

السؤال الثالث: هل ظهر نبيّ في غرب الكرة الأرضيّة؟

الجواب: لا يوجد دليل على عدم إرسال نبيّ لهم، فإنّ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا

---

١. فاطر: ٢٤.

٢. البيّنة: ١.

نَذِيرٌ﴾[١] يشمل جميع الأمم، أي لا توجد أمّة سواء في المشرق أو المغرب، في الشمال أو الجنوب، من دون وجود منذر فيها، ومن المعلوم أنّ المنذر مبشّر أيضًا «بشير ونذير».

مضافًا إلى هذا، يوجد بعض الأنبياء ورد عددهم في الكتب الروائيّة وتمّت الإشارة إلى أسماء بعضهم في القرآن: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[٢].

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«كان بين آدم ونوح من الأنبياء مستخفين ولذلك خفي ذكرهم في القرآن، فلم يسمّوا كما سمّي من استعلن من الأنبياء عليهم السلام»[٣].

وعليه، فمن الممكن بَعْثُ الأنبياء إلى الأقوام المختلفة، كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام بِبَعْثِ نبيّ أسود لم يرد ذكره في القرآن[٤].

ويوجد خلاف في عدد الأنبياء، فقد ورد في بعض الروايات ان عددهم مائة وأربعة وعشرون ألفًا، وفي بعضها الآخر ثمانية آلاف بُعث أربعة آلاف منهم في بني إسرائيل وأربعة آلاف منهم لآخرين[٥].

وبناء على هذا، بُعث الأنبياء في جميع بلاد المشرق والمغرب وفي جميع الأمم، وقد خفي ذكرهم وأسماؤهم وأخبارهم، ولم يطّلع عليهم العرب ومعاصرو نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله، وربّما اندرست آثارهم ولم يتمكّن الناس من الاعتبار بأخبارهم حينذاك، على خلاف آثار الأنبياء المجاورين للحجاز كإبراهيم وموسى وعيسى ونوح ولوط ويونس وشعيب عليهم السلام وغيرهم.

لذا، فإنّ أكثر من كان يحاجج النبيّ أو يحاجج أئمّة الدين، كان من مناطق الشرق الأوسط وآسيا والروم الشرقيّة، ولم يطّلع أحد على من يوجد وراء المحيط الأطلسيّ،

---

١. فاطر: ٢٤.

٢. غافر: ٧٨.

٣. بحراني، *تفسير برهان*، ج٤، ص ١٠٤.

٤. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٤، ص ٥٣٧.

٥. المصدر السابق.

والشرق البعيد أو الروم الغربيّة والمنتصف الجنوبيّ للكرة الأرضيّة.

ولم يسأل عنهم فضلاً عن السؤال المتعلّق بأنبيائهم، ولعلّ السرّ في عدم التعرّض لأسماء أنبياء الغرب البعيد أو الشرق البعيد وعدم ذكر أخبارهم، يعود إلى عدم إمكانيّة التحقّق في أحوالهم، وعدم إمكان الاتّعاظ من هبوط أممهم وسقوطهم.

الدلائل النقليّة

ليعلم قبل الخوض في الدلائل النقليّة، أنّ الله الحكيم وضع معينين للمعرفة وتحت اختيار الإنسان لإيصاله نحو السعادة: الوحي والعقل، وكلّ واحد منهما يكمّل الآخر. فالعقل مصباح مضيء يوضع تحت اختيار السالكين في الليالي المظلمة، اما الطريق فهو الوحي الإلهيّ. والإنسان لا يمكنه سلوك الطريق والاستمرار فيه من دون المصباح (أي وسيلة المعرفة والتبيين).

وعليه، فمن أراد السعادة الأبديّة بالاقتصار على العلم والمعرفة، يحرم نفسه من معطيات الوحي الإلهيّ ولم يصل إلى أيّ مكان. ومن جهة أُخرى، فإنّ الاعتماد على الوحي من دون العقل، يوقع الإنسان في الجمود والتشبيه والقشريّة كما يوقعه في الخطأ.

وبناء على هذا، قال معلّم مدرسة المعرفة في مكتب أهل البيت موسى بن جعفر عليهما السلام:

«إنّ لله على النّاس حجّتين: حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة منهم عليهم السلام، وأمّا الباطنة فالعقول»[1].

مضافًا إلى هذا، ففي جميع القرآن وضع التعقّل والتفكّر إلى جنب الوحي.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى نقاط ثلاثة:

١. المقصود من الوحي الإلهيّ ما ينزله الله، سبحانه، على النبيّ من دون واسطة أو بواسطة الملك أو حجاب آخر، ويثبت مضمونه للناس إمّا عن طريق اليقين أو الاطمئنان العقلائيّ. يحصل اليقين عن طريق الخبر المتواتر، أو الخبر

---

١. الكليني، *أصول كافى*، ج١، ص ١٦، وتوجد هنا روايات كثيرة سنشير إليها في مبحث: فلسفة البعثة في الروايات.

الواحد المحفوف بالقرائن القطعيّة، ويحصل الاطمئنان العقلائيّ عن طريق الخبر الواحد الثقة.

٢. المقصود من العقل الاستدلاليّ، هو البرهان المفيد للقطع، أو التجربة الموجبة للاطمئنان النوعيّ.

٣. لا يعتمد على الدليل النقليّ غير المعتبر وإن أفاد الظنّ؛ لأنّه ليس كلّ ظنّ حجّة، كما لا يعتمد على دليل عقليّ غير حائز لنصاب الحجّيّة، وإن أوجب الظنّ كالتمثيل المنطقيّ المعبّر عنه بالقياس الأصوليّ والفقهيّ؛ لعدم إمكان الاعتماد على أيّ نوع من الظنّ.

طرق معرفة النبوّة

إنّ طرق معرفة النبيّ وثبوت صحّة دعواه، هي: الشهود العرفانيّ، الدليل العقليّ، ظهور المعجزة مع شرائطها اللازمة، الدليل النقليّ والشواهد والقرائن المقامة على صحّة النبوّة ... وسنتطرّق إلى بيان هذه الطرق، والإشارة إلى مقدار اعتبارها.

١. الشهود العرفانيّ

للشهود العرفانيّ مراتب، ومرتبته العالية محدودة جدًّا لا تتيسّر إلّا للأوحديّ من الناس؛ لأنّه يتطلّب من يرى ويسمع ما يراه النبيّ ويسمعه، أي أمر النبوّة، بحيث يشهد وتنكشف له الأمور على نحو العلم الحضوريّ، وحينئذٍ لا يحتاج إلى معطيات العقل، كما حصل لأمير المؤمنين عليه السلام حيث قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلّا أنّك لست بنبيّ ولكنّك وزير وإنّك على خير**»[1].

والمرحلة الوسطى للشهود العرفانيّ هي أن يشهد أصل نبوّة النبيّ، وحينئذٍ لا يحصل أيّ تردّد للشاهد. والمرحلة النازلة للشهود هي أنّ العارف المتشرّع يصل عن طريق شهود المعارف الإلهيّة المتكرّرة إلى نوع ضعيف من شهود الأنبياء، وحينئذٍ يحصل له الاطمئنان بصحّة دعوى النبوّة، وإن احتاج في تتميمه إلى البيان العقليّ.

---

١. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٩٢.

والحاصل أنّ طريق الشهود العرفانيّ مغلق أمام أكثر الناس لذا لا يصلون إلى هذا المقام ولن يصلوا. كما أنّ ميزان تشخيص الكشف الصحيح عن غير الصحيح لغير المعصوم ينحصر في العقل البرهانيّ، وأيضًا فإنّ معيار صحّة الدليل النقليّ هو العقل القطعيّ، وبناء على هذا فإنّ أفضل طريق لمعرفة النبوّة هو العقل.

وليعلم أنّ طريق الشهود لو حصل للإنسان الكامل والمعصوم، فإنّه لا يحتاج إلى معيار العقل، كما حصل لأمير المؤمنين عليه السلام بالنسبة إلى نبوّة رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأنّ ساحة عصمة الإنسان الكامل منزّهة من الشكّ ومبرّأة من العيب، لذا لا يحتاج إلى ميزان العقل.

٢.الدليل العقليّ

يحكم العقل بمعونة البرهان والأصول والمعارف الكلّيّة، بصحّة محتوى دعوة الأنبياء عليهم السلام وصدقها، فإذا كانت محتوى الدعوة، وكلام النبيّ وتقاريره عن الغيب والقيم العليا، متوافقة مع القواعد العقليّة ومقبولة لديه، فيصدّقها العقل، وإلّا يقوم بتكذيبها.

إنّ التمييز بين النبيّ الصادق والنبيّ الكاذب، إنّما يمر عبر البراهين العقليّة، اذ قد كثر المتنبّئون الكاذبون وكانت لهم مدّعيات، غير أنّ مدّعياتهم الكاذبة لم تصل إلى أيّ مكان، فكان بعضها سحرًا وبعضها خدعة، ثمّ آل أمرهم إلى الهلاك ووقعوا في شراك ما نسجوا.

لقد أشارت الروايات إلى دور العقل في تشخيص الإنسان الصادق من الكاذب، يسأل ابنُ السكيت الإمامَ الرضا عليه السلام، ويقول: «**فما الحجّة على الخلق اليوم؟ فقال: العقل، يعرف به الصادق على الله فيصدّقه، والكاذب على الله فيكذّبه**»[١]. وعليه، فالبرهان العقليّ هو الذي يميّز بين الصادق والكاذب.

والدليل على نجاعة هكذا معرفة عقلائيّة، حوار الأنبياء مع الناس، أنّهم أقاموا البراهين لإثبات صدق دعواهم، كما أنّ الناس بما فيهم الملحدون والمنكرون، كانوا يطالبون بالبرهان، وبعد إقامة البرهان القاطع يؤمن فريق منهم ويتمسّكون به، وينكره فريق آخر عنادًا ولدادًا ولجاجًا، وعلى سبيل المثال: كان نبيّ الله نوح عليه السلام يقول في ضمن استدلالاته

١. الصدوق، *علل الشرائع*، الباب ٩٩ ح٦، و الكليني، *الكافي*، كتاب العقل والجهل، ح٢٠.

العقليّة مع الناس: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[1].

ولو فحصنا جميع القرآن والنصوص الدينيّة، لرأينا أنّ محور دعوة جميع الأنبياء تتمحور حول العقل والتعقّل، والعبارات القرآنيّة الآتية: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ و ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ و ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وغيرها، شاهدة على هذا الأمر.

والشاهد الآخر، محاولة الملحدين وأعداء الأنبياء لاتّهامهم بالجنون والسفة وقلّة العقل، فإنّ الملحد اللدود والمنكر العنود كان يقول بأنّ الأنبياء لا عقل لهم ولا يتعقّلون، ولكن في الجهة الأخرى فإنّ الذين آمنوا، يدركون بعقولهم النبيّ الصادق من الكاذب المتنبّي.

إنّ وحشي بن حرب الحبشيّ كان في جيش الكافرين يومًا واحدًا وقتل حمزة عمّ النبيّﷺ، ولكن بعد ما أسلم وقف أمام مسيلمة الكذّاب وقتله بحربته وكان يقول: «**قتلت بحربتي هذه خير الناس وشرّ الناس**». لذا قال النبيّﷺ: «**حمزة وقاتله في الجنّة**»[2]. فوحشي استعان بالعقل ليشخّص أفضل الناس وشرّ الناس، وقد قتل شرّ الناس (مسيلمة الكذّاب) جبرانًا لقتله خير الناس (حمزة).

وليعلم أنّ العقل يفرّق بين الخبر الصادق عن الكاذب في المحاور الكلّيّة فقط؛ إذ إنّه غير قادر على الخوض في الجزئيّات؛ لأنّ الأمور الجزئيّة من قبيل خصائص العبادات، الأخلاق، الاقتصاد، خارجة عن مدار التقييم الكلّيّ، والتجربة الحسّيّة الخارجيّة، ولم ينلها البرهان العقليّ، وعليه فحكميّة البرهان العقليّ تنحصر في مدار المفاهيم الكلّيّة.

كما أنّ العقل ساكت بخصوص المُخبر والنبيّ وادّعائه النبوّة، وبعبارة أُخرى لا توجد ملازمة بين صحّة الدعوى وصدق الخبر، الراجعة إلى الأصول العقليّة، وبين صحّة الدعوى وصدق المخبر، الراجعة إلى أصل النبوّة أو إلى الأحكام التعبّديّة.

---

١. نوح: ١٣-٢٠.

٢. طريحي، *مجمع البحرين*، ج٢، ص٤٧٧/ وحشي.

بيان ذلك: عند التمييز بين الخبر الصادق عن الكاذب، ينشغل العقل بموضوع القضيّة ومحمولها ويفحصهما، ولم يبحث عن ناقل الخبر. ولذا قالوا: «**انظر إلى ما قال ولا تنظر إلى من قال**»[١].

إنّ البحث في الخبر من وظائف العقل. فالقائل [أو المتكلّم]، مع قطع النظر عن شخصه وعن نيّته، ربمّا يقصد من كلامه الحقّ: الباطل أو الحقّ. وعليه، ففي الحكمة النظريّة لا يكون كلام المتكلّم كاشفًا عن عصمة عقله ونظره، فربمّا ينقل كلام الآخرين من دون أن يفهمه، كما قال رسول اللهﷺ: «**رُبّ حامل فقه إلى من أفقه منه**»[٢].

ثمّ إنّ تشخيص القائل، وهل أنّ دعواه صحيحة أم لا؟ فإنّها من المسائل المهمّة ولا بدّ من التطرّق إليها، فهل يوجد برهان عقليّ محض لتشخيص مدّعي النبوّة أم لا؟ وما هو دور المعجزة هنا؟ وما هو دور الكشف والشهود العرفانيّ والأدلّة النقليّة؟

في معرفة النبوّة، نحن بحاجة إلى عنصرين رئيسين: المعجزة، وتحليلها العقليّ.

بيان ذلك: إنّ الناس يختلفون في مواجهة هذه الأسئلة، فالبعض منهم يرى معجزة الأنبياء ويتعقّل فيها، والبعض الآخر يرى المعجزة بعينه وحسّه الخارجيّ غير أنّه لا يتعقّل ولا يتدبّر فيها بالنحو المطلوب، ويؤول أمره في النهاية الى حافّة الارتداد، وسقوطه فيه حتميّ، كما هو الحال في أتباع موسىعليه السلام حيث رأوا معاجزه البيّنة، ورأوا يده البيضاء، وهلاك فرعون وغرقه في البحر، لكنّهم لم يتعقّلوا ولم يكونوا من النبلاء، فخرجوا من الدين بنداء عجل السامريّ.

لقد قال قوم بني إسرائيل لموسىعليه السلام: ﴿**لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**﴾[٣] وبعد ما رأوا أنّ الله أنجى بني إسرائيل من فرعون وفلق لهم البحر وأنجاهم، وأغرق فرعون وجنوده، فعندما رأوا قومًا يعبدون الأصنام قالوا لموسى: ﴿**يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾[٤].

---

١. رى شهري، *ميزان الحكمة*، ج٦، ص٤٨٥.
٢. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٢، ص١٦٤.
٣. البقرة: ٥٥.
٤. الأعراف: ١٣٨.

وهذا دليل على عدم تأثير إعجاز موسى في بني إسرائيل الحسّيّين، إنّهم لم يفكّروا إطلاقًا في مهمّة نبيّ الله موسىعليه السلام ولم يصلوا إلى محتوى دعوته مع كونهم رأوا معاجزه، وعليه فلأجل معرفة النبوّة نحن بحاجة إلى عنصرين رئيسين: الأولى رؤية المعجزة، والأخرى التحليل العقليّ. نعم، وإن أمكن وضع الشهود العرفانيّ بدل التعقّل، ولكن قلنا إنّ طريق الشهود العرفانيّ صعب جدًّا ولا يتيسّر لكلّ الناس.

أمّا العنصر الآخر المكمّل لمعرفة النبوّة، هو التحدّي المقرون بالمعجزة، بمعنى أنّ النبيّ عند إتيانه بالمعجزة يتحدّى، بأن يقول: هذه معجزتي فإن تتمكّنون فأتوا بمثلها. او أن يقول على سبيل المثال: بأنّ اليد البيضاء، أو خروج الإبل من الجبل، أو القرآن، أو غيره، معجزتي، فأنتم أيضًا إن تتمكنوا فأتوا بمثلها.

فهنا، يرى العقل الملازمة بين صحّة الخبر وبين النبيّ القائل بالخبر (النبوّة)، ويثبت حينئذٍ صدق المُخبر (النبيّ) أيضًا. أي أنّه يصدّق دعوته كما يصدّق مدّعاه، صدق الخبر مع صدق المخبر.

والخلاصة: إنّ معرفة الأنبياء لم تكن ممكنة فحسب بل واجبة أوّلًا، وثانيًا: إنّ طرق معرفة النبيّ هي: الكشف الصحيح، والبرهان العقليّ، والدليل النقليّ المعتبر، وثالثًا فإنّ للنبيّ وظيفتين: الدعوة إلى محتوى النبوّة، أي الدعوة إلى المبدأ والمعاد والمعارف والأحكام وغيرها، ودعوى الرسالة وإثباتها بالمعجزة المقرونة بالتحدّي، وهنا تكون الملازمة بين ادّعاء الرسالة والدعوة إلى محتوى النبوّة.

وليعلم أنّ من له قدرة فائقة، ويدعو الناس إلى المبارزة ولم يتمكّن أيّ شخص من مجاراته، فحينئذٍ لا سبيل إلّا إلى قبول دعواه، ولو لم تكن علقة منطقيّة بين هكذا إعجاز وبين صحّة دعوى الرسالة، لأوجب ذلك ضلال الناس وهو لا يتوافق مع حكمة الله، وسيأتي بيانه. وبناء على هذا، فالحاجة هي معرفة المعجزة، وبما أنّنا فصّلنا القول بخصوص المعجزة في التفسير الموضوعيّ، نوجز ما يتعلّق بها هنا.

الخطوط العامّة للمعجزة

توجد عدّة نقاط رئيسة بخصوص المعجزة لا بدّ من الإشارة إليها:

١. المعجزة هي العمل الخارق والخارج عن المعتاد، وتقترن بادّعاء النبوّة والتحدّي.

٢. المعجزة خارقة للعادة وليست بخارجة عن قانون العلّيّة.

٣. لم تكن المعجزة قابلة للتعليم والتعلّم الذهنيّ، وتختصّ بالنفوس الطاهرة والزكيّة على خلاف العلوم الغريبة.

٤. تعدّ المعجزة من الأمور غير المعهودة ولم تكن غير معقولة.

٥. الفرق الأساسيّ بين المعجزة والكرامة أنّ المعجزة تقترن بادّعاء النبوّة والتحدّي، على خلاف الكرامة، وإن كان إطلاق المعجزة لإثبات الإمامة جائز.

٦. توجد ملازمة عقليّة بين المعجزة وادّعاء النبوّة، بيان ذلك: إنّ جميع الموجودات تُعدّ آيات الله تعالى، والمعجزة التي تخالف العادات المعهودة، ولها مراتب، من آيات الله أيضًا ولا تظهر إلّا من قبل الأنبياء.

فمن جاء بالمعجزة فهو نبيّ، وعليه فالعقل يحكم بوجود خصوصيّة في هذا الشخص لا توجد في غيره وإلّا لصدرت منهم أيضًا، ولو صدرت منهم لذكرت في كتب التاريخ وتمّ تدوينها أو لأخبر الله بها.

تكمن خصوصيّة الأنبياء في تلقّي الوحي، و[تقبّل] النبوغ والسرّ الكامن في هذا الأمر، وبه يمتاز الأنبياء بقدرة فائقة تصدر منهم خوارق العادات.

ولو كانت المعجزة من نوع التعليم والتعلّم الذهنيّ، وتمكّن الآخرون من الإتيان بها، لتنافى هذا مع حكمة الله، بمعنى أن يتطاول غير الأنبياء على ساحة النبوّة وتدنيس ذلك الحريم المقدّس، ومن جهة ثانية، بما أنّ طاعتهم واجبة لسبّب هذا ضلال الناس وضلال أنفسهم، ومن الواضح أنّ هذا يخالف حكمة الله؛ لأنّ حكمته تقتضي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، واقترابهم إلى طريق السعادة بدل الضلال، لذا توجد ملازمة عقليّة بين ادّعاء النبوّة والمعجزة.

والدليل الواضح الآخر ما قاله الإمام الرضا عليه السلام في بيان سرّ معاجز الأنبياء وأنّ كلّ

واحد منهم جاء بمعجزة خاصّة. روى ابن السكيت أنّه قال للإمام الرضاؑ: لماذا بعث الله عزّ وجلّ، موسى بن عمرانؑ بالعصاء ويده البيضاء وآلة السحر، وبعث عيسىؑ بالطبّ، وبعث محمّدًاﷺ بالكلام والخطب؟

فأجابه الإمام الرضاؑ: إنّ الله تبارك وتعالى، لمّا بعث موسىؑ كان الأغلب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله عزّ وجلّ، بما لم يكن في وسع القوم مثله، وبما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم، وأنّ الله تبارك وتعالى، بعث عيسىؑ في وقت ظهرت فيه الزمانات، واحتاج الناس إلى الطبّ، فأتاهم من عند الله عزّ وجلّ، بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيى لهم الموتى، وأبرأ لهم الأكمه والأبرص بإذن الله عزّ وجلّ، وأثبت به الحجّة عليهم، وأنّ الله تبارك وتعالى، بعث محمّدًاﷺ في وقت كان الأغلب على أهل عصره الخطب والكلام، وأظنّه قال والشعر، فأتاهم من كتاب الله عزّ وجلّ، ومواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجّة عليهم.

ثم سأل ابن السكيت:

«تالله ما رأيت مثلك اليوم قط، فما الحجّة على الخلق اليوم؟ فقالؑ: العقل يعرف به الصادق على الله فيصدّقه، والكاذب على الله فيكذّبه. فقال ابن السكيت: هذا والله هو الجواب»[1].

وكلام ابن السكيت وإن لم يكن حجّة، ولكن بما أنّه وقع بمحضر الإمام المعصومؑ وإقراره فانه يكون حجّة، كما أنّ الحصر الموجود فيه يمكن الاستناد عليه في علم الكلام، والاعتماد عليه في الحكمة.

٣. الدليل النقليّ

إنّ الدليل العقليّ المقترن بالمعجزة يُعدّ أهمّ دليل لإثبات النبوّة، ويأتي بعده الدليل النقليّ، وهنا سنشير إلى بعض الروايات المتعلّقة بالنبوّة:

١. قال الإمام الصادقؑ: لمّا انقضت نبوّة آدم وقطع أجله، أوحى الله تعالى، إليه

---

١. الصدوق، *علل الشرائع*، الباب ٩٩ ح٦. الكليني، *أصول الكافي*، كتاب العقل والجهل، ح٢٠.

أن يا آدم قد انقضت نبوّتك وقد انقطع أجلك، فانظر إلى ما عندك من العلم والإيمان وميراث النبوّة وأثرة العلم والاسم الأعظم، فاجعله في العقب من ذرّيّتك عند هبة الله، فإنيّ لم أدع الأرض بغير عالم تعرف به طاعتي وديني، ويكون نجاة لمن أطاعني[١].

٢. قال الإمام الصادق عليه السلام: إنّ جبرئيل نزل على محمّد يخبره عن ربّه فقال: إنّ الله يقول: يا محمّد، أنيّ لم أترك الأرض إلّا وفيها عالم يعرف طاعتي وهدايتي، ويكون نجاة فيما بين قبض النبيّ إلى خروج النبيّ الآخر[٢].

يستفاد من هاتين الروايتين وجود الحجّة الإلهيّة في جميع الأعصار والأمصار، وذلك يكون من عدّة أوجه: ١) أن يكون النبيّ السابق صاحبًا للشريعة والنبيّ اللاحق حافظًا لها، إلى أن يأتي نبيّ آخر صاحب للشريعة. ٢) الوصيّ والإمام المعصوم عليه السلام يكون حافظًا للشريعة بعد النبيّ. ٣) يتوسّط نائب خاصّ عالم كامل بخصوص الشريعة، وعادل موثوق به عمليًّا لدى الأمّة.

٣. قال الإمام الباقر عليه السلام: والله ما ترك الله أرضًا منذ قبض آدم عليه السلام إلّا وفيها إمام يهتدى به إلى الله، وهو حجّته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجّة لله على عباده[٣].

إنّ مصطلح الإمام في القرآن والحديث، يختلف عنه في علم الكلام. والمقصود من الإمام في هكذا روايات هو حجّة الله، سواء كان نبيًّا أو وصيًّا له.

والقرآن يرى القادة الإلهيّين، أعمّ من الأنبياء وأوصيائهم الصادقين، أئمّة حجج الله على خلقه، يهدون الناس إلى أمر الله: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا**﴾[٤].

ويقول الإمام الباقر عليه السلام في رواية أخرى: «**إنّ الله لم يدع الأرض بغير عالم ولولا ذلك لم يعرف من الباطل**»[٥].

---

١. طبرى، ***دلائل الإمامة***، ص ٢٣٢.

٢. المصدر السابق، ص ٢٣٢.

٣. الكليني، ***الكافي***، ج ١، ص ١٧٨ باب إنّ الأرض لا تخلو من حجّة.

٤. السجدة: ٢٤.

٥. الكليني، ***الكافي***، ج ١، ص ١٧٨ باب إنّ الأرض لا تخلو من حجّة.

٤. روى هشام بن الحكم عن الإمام الصادقؑ أنّه قال للزنديق الذي سأله من أين أثبتّ الأنبياء والرسل؟ قال: إنّا لمّا أثبتنا أنّ لنا خالقًا صانعًا متعاليًا عنّا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيمًا متعاليًا لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه، فيباشرهم ويباشروه ويحاجّهم ويحاجّوه، ثبت أنّ له سفراء في خلقه يعبّرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلّونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبّرون عنه جلّ وعزّ، وهم الأنبياء وصفوته من خلقه، حكماء مؤيّدين بالحكمة مبعوثين بها غير مشاركين للناس على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب في شيء من أحوالهم مؤيّدين من عند الحكيم العليم بالحكمة، ثمّ ثبت في كلّ دهر وزمان ممّا أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين لكي لا تخلو أرض الله من حجّة يكون معه علم يدلّ على صدق مقالته وجواز عدالته[١].

٥. قال الإمام الرضاؑ: ...لأنّه لمّا لم يكن في خلقهم وقواهم ما يكملوا لمصالحهم، وكان الصانع متعاليًا عن أن يرى، وكان ضعفهم وعجزهم عن إدراكه ظاهرًا، لم يكن بدّ من رسول بينه وبينهم، معصوم يؤدّي إليهم أمره وأدبه، ويقفهم على ما يكون به إحراز منافعهم ودفع مضارّهم، إذ لم يكن في خلقهم ما يعرفون به ما يحتاجون إليه من منافعهم ومضارّهم، فلو لم يجب عليهم معرفته وطاعته، لم يكن لهم في مجيء الرسول منفعة ولا سدّ حاجة، ولكان يكون إتيانه عبثًا لغير منفعة ولا صلاح، وليس هذا من صفة الحكيم الذي أتقن كلّ شيء[٢].

وليعلم أنّ هذه الروايات أدلّة نقليّة، غير أنّ فيها أوّلًا: استدلالات عقليّة متينة ومحكمة، وأنّ محتواها العقليّ سبب في رجوع الدليل النقليّ إلى البرهان العقليّ.

وثانيًا: أنّ الاستدلال بالدليل النقليّ فيما لو لم يكن لإثبات أصل الوحي والنبوّة، بل لاستمراره في كلّ عصر ومصر، يكون مصونًا من محذور الدور. ثالثًا ربمّا يكون سند

---

١. المصدر السابق، ج١، ص ١٦٨، باب الاضطرار إلى الحجّة، ح١.

٢. المجلسي، ***بحار الأنوار***، ج٦، ص ٥٩.

بعض هذه الروايات مخدوشًا، ولكن استحكام المتن من جهة، وكثرة الروايات وتظافرها وتظاهرها من جهة ثانية، واستناد رجال الحديث والكلام بها من جهة ثالثة، يكون سببًا للتبيّن في حدّ ذاته.

٤.اجتماع القرائن والشواهد

إنّ جمع الشواهد والقرائن تعدّ من الأدلّة التأييديّة، لذا لا يُعتدّ بها بمفردها، بل لا بدّ من اصطحابها بالبراهين العقليّة أو النقليّة.

إنّ جمع الشواهد والقرائن والاستفادة من مجموعها لهدف خاصّ، يعدّ من فطريّات العقلاء والعلماء، لا ينكر منفعتها أيّ عاقل، كما:

١. إنّ القاضي ربمّا يحكم ببراءة شخص أو إدانته من خلال الشواهد والقرائن.

٢. إنّ الأطبّاء يستعينون بالأعراض والقرائن لتشخيص المرض.

٣. إنّ المنجّمين وصلوا إلى نتائج عظيمة من خلال هذه الطرق، مثلاً تمّ اكتشاف نبتون: السيّارة الثامنة في المنظومة الشمسيّة من خلال هذه الطرق، أي رؤية حركات عجيبة وغير منتظمة لـ «أورانوس» حول الشمس، دعت العلماء لاحتمال وجود سيّارة أخرى في الجهة الثانية من أورانوس؛ لأنّ حركتها كانت تختلّ من قبل سيّارة أخرى مجهولة، وعليه بدأ كلّ من المنجّمين: جان كاوج آدامز البريطانيّ وأوربن لووريه الفرنسيّ وغال الألمانيّ بالبحث في تلك الجهة من الفضاء التي أشارت إليها الشواهد والقرائن، إلى أن تمّ اكتشاف نبتون في الجهة نفسها التي أشارت إليها الشواهد والمحاسبات.

٤. هذه الطريقة تنفع بخصوص مدّعي النبوّة أيضًا، بمعنى إمكانيّة تشخيص صدقهم أو كذبهم من خلال خصائصهم الخُلُقيّة، ووضع محيطهم وأتباعهم وأصحابهم وآبائهم وأجدادهم، وكذلك أدوات تقدّم عملهم، وكيفيّة تعاملهم مع الناس ومع الأعداء، وفي رعاية القانون والزهد أو الاحتكار للأموال واللهث وراء الدنيا، والغرور والكبر ومحتوى الدعوة والثبات في طريق الدعوة وغيرها.

والنموذج لذلك، تعامل قيصر الروم مع رسالة النبيّﷺ التي أرسلها له بيد دحية الكلبيّ، فبعدما فتح قيصر الرسالة رأى فيها مكتوبًا:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمّد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم، وسلام على من اتبع الهدى. أمّا بعد، فإنيّ أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرّتين، فإن تولّيت فإنّما عليك إثم الأريسيّين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله، ولا نشرك به شيئًا، ولا يتّخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون»[1].

ثمّ أمر قيصر بعض الأساقفة لترجمة الرسالة، فقال الأسقف: هذا النبيّ الذي كنّا ننتظره وبشّرنا به عيسى بن مريم. ثمّ قال قيصر: التمسوا لي من قومه ها هنا أحدًا أسأله عنه، وكان أبو سفيان وجماعة من قريش دخلوا الشام تجّارًا فأحضرهم، وقال: ليدن منّي أقربكم نسبًا به، فأتاه أبو سفيان فقال: أنا سائل عن هذا الرجل الذي يقول إنّه نبيّ، ثمّ قال لأصحابه: إن كذب فكذّبوه... فقال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: ذو نسب، قال: هل قال هذا القول منكم أحد؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس اتّبعوه أو ضعفاؤهم؟ قلت: ضعفاؤهم، قال: فهل يزيدون أو ينقصون؟ قلت: يزيدون، قال: يرتدّ أحد منهم سخطًا لدينه؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: كيف حربكم وحربه؟ قلت: ذو سجال مرّة له ومرّة عليه، قال: هذا آية النبوّة، قال: فما يأمركم؟ قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده، ولا نشرك به شيئًا، وينهانا عمّا كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصوم والعفاف والصدق وأداء الأمانة والوفاء بالعهد. قال: هذه صفة نبيّ وقد كنت أعلم أنّه يخرج ولم أظنّ أنّه منكم...

فيعلم من هذا الحوار أنّ قيصر روم كان رجلاً حكيمًا يمتاز بالعقلانيّة، لذا قال في نهاية المطاف لدحية الكلبيّ: اذهب إلى صاحبك فاقرأهعليه السلام وأخبره أنيّ أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّدًا رسول الله[2].

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٢٠، ص ٣٨٦.

٢. المصدر السابق، ص ٣٧٨.

ثمّ إنّ تصريح النبيّ السابق وتنصيصه على اللاحق، يُعدّ من الطرق الخاصّة لمعرفة النبوّة، ومن ضمن الأدلّة النقليّة المعتبرة، أي أنّه خبر واحد يفيد القطع كالتواتر؛ لأنّه بعد ثبوت النبوّة لشخص ثبت صدقه، مضافًا إلى اليقين بعصمته من السهو والنسيان، لا يبقى مجال للشكّ، بمعنى أنّ المخبر الذي نقطع بصدقه، ونزاهته من السهو والنسيان كبراءته من العصيان، فإنّ خبره يوجب العلم القطعيّ بلا شكّ.

القسم الأوّل

الوحي

الفصل الأوّل

حقيقة الوحي

الوحي في اللغة

يرى علماء اللغة أنّ الوحي بمثابة أصل أو قاعدة لإيصال العلم وأمثاله، وله خصائص، هي: الإشارة السريعة، ولتضمّنه السرعة، قيل: أمر وحي، أو الإعلان على سبيل الرمز والتحريض، وقد يكون بصوت مجرّد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة، وتارة بالإلهام والكلام الخفيّ[1]. وعليه، تعدّ السرعة والخفاء والرمزيّة من أركان الوحي.

الوحي في القرآن

غالبًا ما يكون الوحي من سنخ العلم والإدراك لا العمل والتحرّك، وإن كان الإنسان يستمدّ في وقت العمل بمجاري الفكر والتأمّل، كما إنّ العلم والإدراك نوع وجود خاصّ منزّه عن الماهيّة، وإن اصطحبته الماهيّة. وعليه، فالوحي مفهوم مستلّ من الوجود. لذا، لا ماهيّة له ولا يمكن تعريفه عن طريق الجنس والفصل والحدّ والرسم. فالوحي منزّه من أن يدخل ضمن المقولات الماهويّة المعروفة. ولمفهوم الوحي، كمعنى الوجود، مصداق، ولذلك المصداق مراتب مختلفة ومتفاوتة.

بيان ذلك:

١. كلّ ممكن مركّب من وجود وماهيّة.

٢. بعد التحليل العقليّ وتفكيك الماهيّة من الوجود، وإن كان كلّ واحد من الماهيّة والوجود ممكنًا، ولكن أيّ واحد منهما لا يتركّب من الوجود والماهيّة بمفرده، أي

---

١. راغب، *معجم مفردات ألفاظ القرآن*/ وحي.

وإن كان كلّ واحد منهما بعد التحليل مقرون في تحقّقه بالآخر، ولكن في ظرف التحليل لم يكن كلّ واحد منهما مركّبًا.

٣. الوحي علم من سنخ العلم، والعلم إنّما هو من سنخ الوجود، سواء أكان علمًا حصوليًّا أم حضوريًّا.

٤. الوحي من سنخ العلم الحضوريّ لا الحصوليّ، بيد أنّه من القسم الخاصّ في العلم الحضوريّ لا مطلقه.

٥. ربمّا يلقى في القلب شيء على نحو العلم الحصوليّ ويكون من أقسام الوحي.

بما أنّ جميع الموجودات في الثقافة القرآنيّة تمتاز بالعلم والشعور، بحيث تتمكّن الانتفاع من الوحي والإلهام، يكون جميع عالم الخلقة في مدرسة الوجود تحت التدبير الإلهيّ، وهو معلّمهم، ويمكن أن يلقي الله تعالى، عن طريق الوحي أو الإلهام بعض الحقائق للإنسان أو الملائكة أو الحيوانات وحتّى الجمادات وإن وُجدت حينئذٍ طرق غير وحيانيّة في هذه الموارد.

وبناء على هذا:

١. بما أنّ الوحي غالبًا ما يكون من جنس التعليم، يمتاز بخاصّيّة الستر والسرعة والرمزيّة، وعليه فالتعليم العلنيّ وبحضور الآخرين، أو التعليم البطيء والتدريجيّ والتعليم الذي لا رمزيّة فيه، لم يكن من مصاديق الوحي.

الرمزيّة غير الإبهام والإجمال والمجمل يختلف عن المرموز؛ إذ يستتر في الإجمال والإبهام الضبابيّة، ولكنّ الكلام الرمزيّ يشير إلى مكان أو أماكن أخرى، ويستبطن في داخله عدّة معاني، يكون مفتاحها بيد الأنبياء.

والإجمال يقترن بالجهل، والعلم الإجماليّ (الأصوليّ) خليط من مجموعة أمور مجهولة وعلمية، كما أنّ الإجمال يعدّ في الكلام والعرفان والحكمة بمعنى الإغلاق، كالعلم الإجماليّ في عين الكشف التفصيليّ وغيره. ولكن الكلام الرمزيّ (الوحي) ينبئ عن الشفافيّة والوضوح، ويرمز إلى داخله أو مكان آخر.

والوحي وإن كان غالبًا من سنخ العلم والإدراك، ولكن ربمّا يكون من سنخ القرار

والعزم العمليّ في قبال التعليم والجزم العلميّ. وقد يحصل إرادة عمل مّا عن طريق الوحي، كقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾[١] و ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾[٢] فمتعلّق الوحي في هكذا موارد عبارة عن الإرادة والعزم والحركة الباطنيّة، حيث لم تكن أيّ منها من المفاهيم الذهنيّة.

٢. الوحي يختلف عن المناجاة، وعن التكلّم مع الله سرًّا. إنّ الإسلام الأصيل يعدّ جميع القرآن وحيًا إلهيًّا ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[٣] و ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[٤].

فالمتأمّل في الآيات القرآنيّة والمتدبّر فيها، يقف على زاوية من زوايا أسرار الوحي؛ لأنّ القرآن كلام الله، وكلام الله وحي. إنّه معلّم يتكلّم مع الإنسان عن طريق الوحي، وجميع الكائنات في الكون، مستمعون للكلام الإلهيّ ومتعلّمون منه، كما أنّهم أنفسهم أيضًا كلمات الله، وهذا ما يدلّنا عليه مفاهيم: التكليم، التكلّم، الكلمة والكلمات، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[٥] و ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[٦].

وبناء على هذا، يمكن البحث والفحص في الوحي وكلام الله كلّ بحسب فهمه وإدراكه، كما يمكن الخوض بالمقدار نفسه في ذات الله تعالى، وأسمائه وصفاته.

وردت آيات كثيرة حول الوحي في القرآن، تقدم كلّ واحدة منها رسائل لعالم الإدراك والعلم والمعرفة، وقبل الخوض في بعض تطبيقات الوحي القرآنيّة، لا بدّ من الإشارة إلى نقاط:

١. المعنى الجامع للوحي وإن كان واحدًا، ويستعمل على نحو الاشتراك

---

١. القصص: ٧.
٢. الأنبياء: ٧٣.
٣. الأنعام: ١٩.
٤. يوسف: ٣.
٥. النساء: ١٦٤.
٦. البقرة: ٢٥٣.

المعنويّ (لا الاشتراك اللفظيّ)، ولكن يوجد تفاوت عميق وفواصل كثيرة بين مصاديقه، بحيث يفتح الباب على احتمال الاشتراك اللفظيّ بينها، وهذا هو العامل في إطلاق مفهوم المشكّك على هذه المعاني؛ لأنّه يوقع المستمع في الشكّ بأنّ معنى هذا اللفظ هل هو من سنخ المشترك اللفظيّ أو المعنويّ؛ لأنّ وحدة المفهوم دليل الاشتراك المعنويّ، كما أنّ اختلاف المصاديق دليل الاشتراك اللفظيّ. وعلى كلّ حال، فمعنى الوحي واحد مشكّك.

٢. يمتاز وحي الأنبياء بخاصّيّة خاصّة، لا بدّ أن لا يختلط مع سائر المصاديق، حتّى التجربة الدينيّة لكبار العارفين.

٣. يختلف وحي الأنبياء التشريعيّ عن الوحي التكوينيّ، فضلاً عن سائر مصاديق الوحي.

٤. إنّ عنوان الوحي، كعنوان العلم، يمكن أن يكون حقيقة واحدة، ويوجب إسناده إلى المبدأ الفاعليّ والمبدأ القابليّ ظهور عناوين متعدّدة اخرى، كحقيقة العلم؛ حيث إذا أُسند إلى المبدأ الفاعليّ يصير تعليمًا، وإذا أُسند إلى المبدأ القابليّ يصيراً تعلّمًا، وإن بقيت الاختلافات الدقيقة بين التعليم والتعلّم والعلم على حالها. وهنا أيضًا يمكن للإيحاء والاستحياء والوحي الحفاظ على الجانب الوحدوي مع حفظ تعدد العناوين.

١. الإلقاءات الشيطانيّة

أشرنا إلى أنّ ساحة الأنبياء الطاهرة، أنزه من أن يطالها درن الشياطين؛ لأنّه لا طريق لإبليس إلى حريم قلوبهم المقدّسة، وقد اكتنفت قلوبهم وأحاطتها هالة من العصمة والقداسة، وتعالت عقولهم الشامخة عن أن تنالها الواهمة أو التخيّلات الشيطانيّة، ولكن الطريق مفتوح للشيطان أمام غير المعصوم، ويمكنه إلقاء وساوسه الخنّاسة، كما صرّح بذلك القرآن في عدّة آيات أيضًا:

١. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[1].

---

١. الأنعام: ١١٢.

٢. ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[١].

الدنيا سوق، ربح فيها قوم وخسر فيها آخرون، فريق يبيع عمره العزيز ويشتري بدله العلم والمعرفة والإيثار والإنسانيّة والإحسان، إنّهم يتاجرون مع الكريم العزيز حيث لا يتساوم مع الأنذال. وفي هكذا شراء وبيع ربمّا يرجع الثمن والمثمن إلى البائع.

وفريق يتاجر مع الشيطان، فيخسر في هذه التجارة الثمن والمثمن والربح ورأس المال وجميع ما يملك، كما يخسر العقيدة والإيمان والعرض أيضًا؛ إذ الشيطان يتاجر كما يشاء هو لا بما يحلو للمتاجر، إنّه يذهب برأس مال الإنسان ويوقعه في الخسران، كالهواء الحارّ الذي يذيب الجليد ويوجب الخسارة. والوحي جاء ليحذّر الإنسان من مغبّة الوقوع في وساوس الشيطان ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[٢]. كي لا يتمكّن الشيطان من سلب حيثيّات الإنسان والذهاب بعرضه.

الشيطان لم يكن جنكيز وهيتلر والحجّاج الذين حاربوا الإنسان في ماله وجسمه، بل إنّه يأسر الإنسان حيًّا ويدخله في فضائه كي يلقي سمومه في المجتمع عن طريق اللسان والبيان والقلم والفكر والمنشورات والكتب والصحف، فيلقي شبهاته ويسبّب ضلال المجتمع، ويفسح المجال أمام الملحدين ليسعوا في إسقاط الإنسان نحو الهاوية: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

فالشيطان يلقي الشبهات ويوحيها إلى قلب الإنسان من خلال الطرق المخفيّة والسريعة والمرموزة، ومنه تنتقل في المجتمع، وهذا الفايروس الخطير يبعد الإنسان أوّلاً عن المستحبّات، ثمّ يتهاون في الواجبات، إلى أن يصبح مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾[٤].

---

١. الأنعام: ١٢١.
٢. الأنعام: ١٩.
٣. الأعراف: ٢٧.
٤. الروم: ١٠.

إنّ أكثر المذاهب المنحرفة، دخلت بادئ ذي بدئ قلوب النخب والعلماء من خلال شبهات الشيطان وآياته الشيطانيّة، ثمّ نفذت في المجتمع، لذا نرى عدد المتنبّئين لا يقلّ عن عدد الأنبياء الصادقين، وأنّ آثار علماء السوء لا تقلّ عن آثار العلماء الأبرار. إنّ الأنبياء الربّانيّين صنعوا الأمم من قبل الله، وعلماء السوء سبّبوا في ظهور النحل والمذاهب الباطلة بإلقاء الشيطان.

فالشيطان يغوي الإنسان في البداية، ثمّ يوصله إلى الاعتقاد، وفي المآل يريه أنّ الحقّ لا يكون غير هذا: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

الشيطان موجود ذو غضب بحيث لا يرحم حتّى نفسه، فأفسد عبادته التي استمرّت ستّة آلاف سنة، وأدخل نفسه النار إلى الأبد. ولا نعلم أمن سنيّ الدنيا كانت [تلك العبادة] أم سنيّ الآخرة، كما ورد في تعبير أمير المؤمنين عليه السلام، فهكذا موجود غاضب عديم الرحمة كيف يترحّم على الآخرين ولم يصدّهم عن طريق الهدى ولم يكمن لهم.

نعم، إنّ أساليبه سريعة وخفيّة ومرموزة. إنّه يتناجى مع أنصاره وأتباعه ليجري مقاصده عن طريق ما تخطّه أناملهم، إنّه يتعهد ويظهر الضوء الأخضر، غير أنّه لم يفِ بأيّ وعد من وعوده، وبناء على هذا ربّما يتخيّل الإنسان إنّه يمتلك عصى موسى وخاتم سليمان، مع أنّه لا يمتلكها. فلا العصى تصير ثعبانًا من دون موسى عليه السلام، ولا ذو الفقار يوجب نصرًا من دون عليّ عليه السلام، ولا القميص يُذهب العمى من دون يوسف عليه السلام.

٢. الوحي الى الأرض والسماء

إنّ الله تعالى، بيّن في عدّة آيات القوانين الحاكمة على السماوات والأرض الموجبة للنظم الدقيق والحركة المنتظمة والفائدة الجيّدة، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[2].

---

١. الكهف: ١٠٣-١٠٤.

٢. فصّلت: ١١-١٢.

وبناء على هذا، فنطاق وحي الله يغمر السماوات والأرض، وهما يستمعان إليه ويأتمران بوحيه ولا يخرجان عن حدود قوانينه الحاكمة عليها، وكأنّ لهما شعورًا وإدراكًا كالإنسان من حيث الانقياد للأوامر والتسليم لها.

وقد تلقّت السماء والأرض ما يخصّهما من الوحي والشعور الرمزيّ في بدء الخليقة وسارا في طريق التكامل، وسيأتي يوم يتحدّثان فيه عمّا جرى عليهما، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[1].

وليعلم أنّه لو انكشف اليوم بفضل الكشوفات الحديثة والعلم الحديث، كثير من الوحي الملقى إلى السماوات والأرض (أي القوانين الحاكمة عليها)، ولكن توجد مسافة كثيرة للوصول إلى جميع تلك القوانين، إنّه كتاب يحتاج البحث فيه إلى آلاف السنين بحثًا مستمرًّا وجامعًا؛ لأنّ بعض ما فيه من الطبيعيّات والبعض الآخر من ما بعد الطبيعيّ.

٣. الوحي إلى النحل

قلنا إنّ جميع العالم يمتاز بالشعور والحياة، وجميع الموجودات تتّبع الأوامر والمقرّرات الوحيانيّة. والقرآن أشار إلى بعض الحيوانات في تلقّي الوحي، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

فالوحي في هذه الآية نُسب إلى محور القرار، حيث استند إلى العزم والإرادة والترغيب، وكما ذكرت الآية فإنّ أوّل قرار للنحلة يدور حول اتّخاذ البيوت على شكل سداسيّ وبهندسة خاصّة، وهذا الأمر لا بدّ أن يتحقّق في مكان مناسب كالجبال أو الأشجار.

المرحلة الثانية تتعلّق بالطعام المناسب، أي النباتات المعطّرة والمفيدة، وهذا لا يتمّ الاهتداء إليه إلّا بفضل الوحي الربّانيّ. والمرحلة الثالثة السلوك للبحث عن الغذاء المستلزم للوقوف على معرفة الطرق بحيث ينطبق طريق سيرها مع الوحي تمامًا: «سبل

١. الزلزلة: ١-٥.
٢. النحل: ٦٨-٦٩.

ربّك» وفي المرحلة الرابعة والخاتمة نصل إلى نتيجة جهد هذه الحشرة الصغيرة أي خروج الشهد الذي فيه الشفاء.

٤. الوحي أو الإلهام للعمل

قد يتعلّق الوحي بالفكر أو التصوّر أو التصديق والجزم، وهو محور التعليم والتعلّم، وقد يتعلّق بالعزم كالرغبة والشوق والتخويف والترهيب، ونشير إلى بعض مصاديق الوحي إلى العلم في القرآن كالآتي:

١. ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[١].

٢. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾[٢].

٣. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾[٣] وأيضًا قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾[٤].

٤. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٥] وبما أنّ أمّ موسى أدركت مستقبل موسى عليه السلام بشكل خفيّ، أطلق عليه القرآن اسم الوحي. فأمّ موسى لم تكن نبيًّا بلا شكّ غير أنّها ملهمة، وقد عبّر عنه القرآن بالوحي.

كما هو الحال بخصوص يوسف حيث عزم أخوته على قتله في شبابه، والله تعالى، أخبره بذلك على شاكلة الوحي: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٦].

٥. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[٧].

إنّ الله ربمّا يوحي إلى جميع القادة الربّانيّين، أعمّ من الأنبياء والأئمة عليهم السلام والعلماء

---

١. المؤمنون: ٢٧.
٢. المائدة: ١١١.
٣. الشعراء: ٥٢.
٤. الأعراف: ١٦٠.
٥. القصص: ٧.
٦. يوسف: ١٥.
٧. الأنبياء: ٧٣.

الربّانيّين، ويدلّهم على الأعمال ويريهم وظائفهم، فهذه كلّها من نوع العزم والقرار العمليّ تُلقى في روع القادة الإلهيّين.

وبناء على هذا، فالعقل العمليّ هو المتلقّي لهكذا وحي، وهو العقل الذي «**عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان**»[1]. وإنّ قسمًا كبيرًا من موارد آيات الوحي، تدور مدار القرارات والأعمال. ويسمّى هذا النوع من الوحي إلهامًا، ويتاح لكلّ شخص بحسب استعداده، كما أنّ كثيراً من المطالب العلميّة والاختراعات والكشوفات تتحقّق عن طريق الإلهام الإلهيّ، وما أكثر الشعراء الذين وصلوا إلى مضامين شعريّة راقية عن هذا الطريق.

إنّ الحرّ بن يزيد الرياحيّ عندما وقف بين معسكر الحسين عليه السلام وجيش عمر بن سعد سمع هاتفًا يدعو إلى الجنّة، فإنّه تعجّب في البداية من هذه البشارة، ولكن بعدما عزم على الالتحاق بالحسين عليه السلام أيقن بأنّ تلك البشارة من الإلهامات الغيبيّة.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى عدّة نقاط:

١. لو تعلّق الوحي بالحكم الإنشائيّ واحتوى على أمر جديد، فهو من نوع التشريع ويخصّ الأنبياء.

٢. لو تعلّق الوحي بالفعل والعزم والإرادة، ولم يكن من نوع الحكم الإنشائيّ، لا يختصّ حينئذٍ بالأنبياء.

٣. إنّ الآيات التي تأتي مع «أن» المصدريّة، كقوله تعالى: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ**﴾[2] و ﴿**وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا**﴾[3] فتتحوّل هذه الآيات بعد التأويل بالمصدر هكذا: «أوحينا، صنع الفلك، أوحيت، الإيمان» بمعنى بثّ العزم نفسه في القلب.

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١: ١١٦.

٢. المؤمنون: ٢٧.

٣. المائدة: ١١١.

٥. الوحي للأنبياء

لقد كثر الكلام عن وحي الأنبياء في القرآن، كقوله تعالى:

١. ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١].

٢. ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٢].

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآية:

«وكلام الله ليس بنحو واحد، منه ما كلّم الله به الرسل، ومنه ما قذفه في قلوبهم، ومنه رؤيا يراها الرسل، ومنه وحي وتنزيل يتلى ويقرأ فهو كلام الله»[٣].

يقول القرآن في الوحي المحمّديّ الخاصّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٤].

يقول الأستاذ الجليل العلّامة الطباطبائيّ رحمه الله في تفسيره الآية ٥٢ و٥٣ من سورة الشورى:

تتضمّن الآيات آخر ما يفيده سبحانه، في تعريف الوحي، وهو تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: وحيًا، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، ثمّ يذكر أنّه يوحي إليه صلى الله عليه وآله ما يوحى على هذه الوتيرة، وأنّ ما أُوحي إليه منه تعالى، لم يكن النبيّ صلى الله عليه وآله يعلم ذلك من نفسه، بل هو نور يهدي به الله من يشاء من عباده ويهدي به النبيّ صلى الله عليه وآله بإذنه.

ثمّ إنّ ظاهر الترديد في الآية بأن هو التقسيم على مغايرة بين الأقسام، وقد قيّد القسمين الأخيرين بقيد الحجاب، والرسول الذي يوحي إلى النبيّ ولم يقيّد القسم الأوّل بشيء فظاهر المقابلة يفيد أنّ المراد به التكليم الخفيّ من دون أن يتوسّط واسطة بينه

---

١. الشورى: ٣.

٢. الشورى: ٥١.

٣. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٤، ص٥٨٨.

٤. الشورى: ٥٢.

تعالى، وبين النبيّ أصلاً، وأمّا القسمان الآخران ففيهما قيد زائد وهو الحجاب أو الرسول الموحي وكلّ منهما واسطة...

إنّ القسم الثالث وحي بتوسّط الرسول الذي هو ملك الوحي ... ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾[١] إنّ القسم الثاني «أو من وراء حجاب» وحي مع واسطة هو الحجاب... وهذا التكلّم الذي حدث مع موسىعليه السلام في الطور: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾[٢] ومن هذا الباب ما أُوحي إلى الأنبياء في مناماتهم.

وإنّ القسم الأوّل تكليم إلهيّ للنبيّ من غير واسطة بينه وبين ربّه من رسول أو أيّ حجاب مفروض. ولمّا كان للوحي في جميع هذه الأقسام نسبة إليه تعالى، على اختلافها صحّ إسناد مطلق الوحي إليه بأيّ قسم من الأقسام تحقّق، وبهذه العناية أسند جميع الوحي إليه في كلامه، كما قال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾[٣].

ورد في الحديث عن الحارث بن هشام أنّه سأل رسول اللهصلى الله عليه وآله: كيف يأتيك الوحي؟ قال: أحيانًا يأتيني الملك في مثل صلصلة الجرس فيفصم عنّي وقد وعيت عنه ما قال وهو أشدّه عليّ، وأحيانًا يتمثّل رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول[٤].

روى زرارة قال: قلت لأبي عبد اللهعليه السلام: جُعلت فداك، الغشية التي كانت تصيب رسول اللهصلى الله عليه وآله إذا نزل عليه الوحي، قال: فقال: ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد، ذاك إذا تجلّى الله له، قال: ثمّ قال: تلك النبوّة يا زرارة[٥].

وقال الصادقعليه السلام: كان جبرائيل إذا أتى النبيّصلى الله عليه وآله قعد بين يديه قعدة العبد، وكان لا يدخل حتّى يستأذنه[٦].

عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله، قال: قال بعض أصحابنا: أصلحك الله أكان رسول

---

١. الشعراء: ١٩٣-١٩٤.

٢. القصص: ٣٠.

٣. النساء: ١٦٣. الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن*، ج١٨، ص ٧٣-٧٤.

٤. سيوطي، *الدر المنثور في التفسير المأثور*، ج٧، ص ٣٦٤.

٥. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٨، ص ٢٥٦.

٦. المصدر السابق.

اللهﷺ يقول: قال جبرئيل، وهذا جبرئيل يأمرني، ثمّ يكون في حال أخرى يُغمى عليه؟ قال: فقال أبو عبد اللهؑ: إنّه إذا كان الوحي من الله إليه ليس بينهما جبرئيل أصابه ذلك لثقل الوحي من الله، وإذا كان بينهما جبرئيل لم يصبه ذلك، فقال قال لي جبرئيل، وهذا جبرئيل[١].

وعن زرارة قال: سألت أبا جعفرؑ مَنِ الرسول، مَنِ النبيّ، مَنِ المحدَّث؟ فقال: الرسول الذي يأتيه جبرئيل فيكلّمه قبلاً، فيراه كما يرى أحدكم صاحبه الذي يكلّمه فهذا الرسول، والنبيّ الذي يؤتى في النوم نحو رؤيا إبراهيمؑ، ونحو ما كان يأخذ رسول اللهﷺ من السبات إذا أتاه جبرئيل في النوم فهكذا النبيّ، ومنهم من تجمع لهم الرسالة والنبوّة، فكان رسول الله رسولاً نبيًّا يأتيه جبرئيل قبلاً فيكلمه ويراه، ويأتيه في النوم، وأمّا المحدَّث فهو الذي يسمع كلام الملك فيحدّثه من غير أن يراه ومن غير أن يأتيه في النوم[٢].

وروى زرارة أيضًا، قال: قلت لأبي عبد اللهؑ: كيف لم يخف رسول اللهﷺ فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك ممّا ينزع به الشيطان؟ قال: فقال: إنّ الله إذا اتّخذ عبدًا رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار، فكان يأتيه من قبل الله عزّ وجل، مثل الذي يراه بعينه[٣].

وروى أبو بصير، قال: سألت أبا عبد اللهؑ عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾[٤] قال: خلق من خلق الله أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول اللهﷺ يخبره ويسدّده، وهو مع الأئمة من بعده[٥].

نقل صاحب تفسير روح المعاني عن الطبرسي انه روى عن الامام الباقر والصادق عليهما السلام بان المراد من الروح ملك اعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع النبي صلى الله عليه واله دائما و لم يصعد الى السماء ابدا. ثم قال وكلام الطبرسي هذا في غاية الغرابة ويحتمل عدم صحة انتسابه الى الامامين.

---

١. المصدر السابق، ج١٨، ص ٢٦٨.
٢. المصدر السابق، ج١٨، ص ٢٧٠.
٣. المصدر السابق، ج١٨، ص ٢٦٢.
٤. الشورى: ٥٢.
٥. الكليني، *الكافي*، ج ١، ص ٢٧٣.

والعجب من كلام صاحب روح المعاني حيث لم يقم أيّ دليل على عدم صحّة هذا الحديث، مضافًا إلى أنّه يذعن بوجود هذه الروح بخصوص بعض الأولياء عدا رسول اللهﷺ، فكيف ينكرها للرسولﷺ وأئمّة أهل البيتعليهم السلام؟ نعم، إنّ عدم صعود الروح دائمًا أمر آخر.

ورد في نهج البلاغة:

«ولقد قرن الله بهﷺ من لدن كان فطيمًا أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره»[1].

٦. الرؤيا الصادقة

وردت الإشارة في الروايات السابقة أنّ الرؤيا الصادقة من أقسام الوحي، وهنا نشير إلى بعض رؤى الأنبياء الصادقة:

١. رؤيا نبيّ الله إبراهيم الخليلعليه السلام: يقول القرآن بخصوص إبراهيمعليه السلام: ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾[2].

قال الإمام الصادقعليه السلام:

«فلمّا حضر موسم ذلك العام حمل إبراهيم هاجر وإسماعيل في ذي الحجّة من أرض الشام، فانطلق بها إلى مكّة ليذبحه في الموسم، فبدأ بقواعد البيت الحرام، فلمّا رفع قواعده خرج إلى منى حاجًّا وقضى نسكه بمنى ورجع إلى مكّة فطاف بالبيت أسبوعًا ثمّ انطلقا، قال إبراهيمعليه السلام لإسماعيلعليه السلام: يا بني! إنيّ أرى في المنام أنيّ أذبحك في الموسم عامي هذا فماذا ترى؟ قال: يا أبت افعل ما تؤمر. فلمّا فرغا من سعيهما انطلق به إبراهيم إلى منى وذلك يوم النحر، فلمّا انتهى إلى الجمرة الوسطى وأضجعه بجنبه الأيسر وأخذ الشفرة ليذبحه، نودي: أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا. وفدى إسماعيل بكبش عظيم

---

١. *نهج البلاغة*، الخطبة: ١٩٢.

٢. الصافات: ١٠٢.

فذبحه وتصدّق بلحمه على المساكين»[١].

٢. رؤيا نبيّ الله يوسف عليه السلام: يقول القرآن بخصوص يوسف عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[٢] فيوسف رأى هذه الأمور في المنام، وهذا نوع من الوحي ينبئ عن المستقبل النبويّ له، كما يقول الله في نهاية قصّته وعن لسانه: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾[٣] وفي آية أخرى ورد تصديق هكذا رؤيا: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾[٤].

يقول العلّامة الطباطبائيّ في ذيل هذه الآية:

«وقوله ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ التأويل هو ما ينتهي إليه الرؤيا من الأمر الذي تتعقّبه، وهو الحقيقة التي تتمثّل لصاحب الرؤيا في رؤياه بصورة من الصور المناسبة لمداركه ومشاعره، كما تمثّل سجدة أَبَوَيْ يوسف وإخوته الأحد عشر في صورة أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر وخرورها أمامه ساجدة له...»[٥].

وليعلم أنّ «تأويل الأحاديث» في هذه الآية، أعم من الوقائع التي تُرى في الرؤيا، بل يُراد منها مطلق الحوادث والوقائع، سواء أكانت في المنام أو اليقظة. وهذا من شؤون النبوّة، كما يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٦].

٣. رؤيا رسول الله صلى الله عليه وآله: يقول الله تعالى، بخصوص رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ

---

١. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٤، ص ٤٢١.
٢. يوسف: ٤.
٣. يوسف: ١٠٠.
٤. يوسف: ٦.
٥. الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن*، ج١١، ص ٧٩.
٦. يوسف: ١٥.

﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[١].

٧. الوحي إلى الملائكة

تستقبل الملائكة الوحي الإلهيّ أيضًا، كما يقول القرآن بخصوصهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٢].

الملائكة يعدّون رسل الله الصادقين، والمطيعين لأوامره والمؤدّين للوظائف ولا يعصون: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٣].

إنّ الملائكة بمختلف أنواعهم مشغولون بتدبير أمور العالم بإذن الله، وما يحوزه الإنسان من علوم ومعارف، وفكر وتأمّل، وعزم وإرادة، إذا كان حقًّا وصدقًا وخيراً ونافعًا ومطابقًا لتعاليم القرآن والعترة، فإنّ جميعه من قبل الله يصل إلى الإنسان بواسطة الملائكة: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[٤].

وليعلم لزوم الانتباه إلى الحدود الفاصلة بين الوحي الإلهيّ الخاصّ بالمعصومين والوحي العادي في جميع هذه الأمور، بل إنّ خصوصيّة وحي أصحاب الشرائع الممتازة محفوظة دائمًا، وهي الميزان والمحكّ للقسط والعدل المعرفيّ.

أقسام الوحي عند أمير المؤمنين

لقد قسّم أمير المؤمنين عليه السلام الوحي إلى عدّة أقسام وفسّره بعدّة معاني:

١. الوحي المتناسب مع النبوّة والرسالة، كما في: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾[٥].

٢. الوحي بمعنى الإلهام، كما في: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ

---

١. الفتح: ٢٧.
٢. الأنفال: ١٢.
٣. التحريم: ٦.
٤. عبس: ٥-٦.
٥. النساء: ١٦٣.

﴿الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[١] و ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾[٢].

والمحور الرئيس في هكذا إلهام وإن كان من العمل، غير أنّ هذا العمل مسبوق بالعلم ويُعدّ عقلائيًّا. وعليه، فالمعرفة بنوعيّة العمل وكيفيّته، التي هي من سنخ العلم، في ضمن الإلهام المذكور.

٣. الوحي بمعنى الإشارة، كما في: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[٣].

٤. الوحي بمعنى التقدير، كما في: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾[٤].

٥. الوحي بمعنى الإلهام المؤكّد، كما في: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾[٥] وكما قلنا سابقًا، إنّ الوحي في هكذا موارد يعني التحفيز وإلقاء العزم والتصميم، ويشبهه المعنى السابع الذي سنذكره.

٦. الوحي بمعنى التكذيب، كما في: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾[٦] فإيحاء الشيطان هو الإلقاء المزوّر والمستور بمهارة.

٧. الوحي بمعنى التحفيز لعمل الخير، كما في: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾[٧] فالمصداق الأتمّ لإيحاء فعل الخير هو العزم على فعل الخيرات.

ولا بدّ من التنويه هنا الى أنّ ما ذكرناه من مصاديق الوحي الجامع للفكر والتحفيز، أعمّ من العزم العلميّ أو العزم العمليّ الشامل للعقل النظريّ والعمليّ، فإنّها مستقاة من بعض النصوص المنقولة من المقام الشامخ العلويّ، وإلّا فبالإمكان الحصول على

---

١. النحل: ٦٨.
٢. القصص: ٧.
٣. مريم: ١١.
٤. فصّلت: ١٢.
٥. المائدة: ١١١.
٦. الأنعام: ١١٢.
٧. الأنبياء: ٧٣.

مصاديق أخرى من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، كما أنّ الحصول على مصاديق أُخر بالاستعانة بكلام سائر المعصومين معقول ومقبول تمامًا.

رأي العلماء في منشأ الوحي

ذهب بعض العلماء إلى أنّ منشأ الوحي، هو عالم ما وراء الشعور والمعلومات المستحصلة من الحواسّ الخمسة، وقد قال العلّامة الطباطبائيّ:

«إنّ هذا الشعور الغامض ناشئ ممّا هو وراء العقل وباطن الإنسان وعلمه ونبوغه. وإن كان الضمير اللاوعي والشعور الغامض صحيحًا في محلّه، غير أنّ طريق النبوّة والوحي لم يكن طريقًا فكريًّا اكتسابيًّا تابعًا للنبوغ، بل إنّه موهبة إلهيّة وغير اكتسابيّة»[1].

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنّ الوحي ناشئ من النبوغ، قالوا: إنّ النوابغ بنبوغهم الذاتيّ والداخليّ والنفسيّ، يمتازون بأفكار متعالية وجديدة، ولهم عقول متكاملة ويخدمون الناس عن هذه الطرق.

وذهب البعض إلى أنّ للإنسان شخصيّتين: الشخصيّة الظاهريّة التي تدار عن طريق الحواسّ الخمسة، والشخصيّة الباطنيّة، وعندما تتعطّل المشاعر الظاهريّة، تبدأ المشاعر الباطنيّة بالعمل، كما يصل الإنسان في النوم الاصطناعيّ والطبيعيّ إلى نتائج عجيبة وغريبة، وهذه الشخصيّة الباطنيّة غير المرئيّة تشتدّ تارة وتضعف أُخرى، وكلّما كانت أقوى كانت التجلّيات أصحّ وأكثر.

وبناء على هذا، فالوحي هو تسرّب ذلك الضمير الباطنيّ وتجلّي شعور الأنبياء الباطن، وعليه فلا توجد ملائكة ولم يكن النبيّ مأمورًا من قبل الله تعالى:

«والوحي عندهم لا يكون إلّا بظهور الشخصيّة الباطنة للرسول، ووحيها إليه بما ينفعه وينفع قومه المعاصرين له»[2].

---

١. الطباطبايي، *وحي يا شعور مرموز*، ص ١٠٤.

٢. وجدي، *دائرة معارف القرن العشرين*/ وحي.

وقد علمنا أنّ أوّل كلمة من القرآن وآخر كلمة منه جميعها من الوحي، وقد ورد في القرآن من المعارف والحقائق والأحكام والقوانين والأوامر، ما لو اجتمع نوابغ الأوّلين والآخرين، مع أقوى الدرجات الباطنيّة وقدرات الضمير الباطنيّ العجيبة وأشدّها، لما تمكّنوا من الإتيان بجملة واحدة من القرآن، والقول هو ما قاله العلاّمة الطباطبائيّ﵀.

وثانيًا: إنّ طهارة الروح من جهة، وذكاء العقل من جهة ثانية، تعدّان في مرتبة النصاب القابليّ للوحي لا النصاب الفاعليّ، بمعنى أنّ عقل الرسولﷺ الذكيّ ونفسه الزكيّة تكون بمثابة القابليّة التامّة لتلقّي الوحي، لا مصدر الإيحاء ومنشأ ظهور الوحي وصدوره.

ثالثًا: يصل الوحي الإلهيّ التشريعيّ إلى الإنسان الكامل المعصوم، وليس معنى هذا وصول الوحي التشريعيّ إلى كلّ إنسان كامل ومعصوم؛ لأنّ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]. وعليه، فالنسبة بين الرسول التشريعيّ والمعصوم، عموم وخصوص مطلق.

رابعًا: عندما يكون الرسول التشريعيّ أعلى من الإنسان الكامل المعصوم، وله خصائص يفقدها سائر الأشخاص الكاملين المعصومين، ينجلي بطبيعة الحال التفاوت بين الرسول والإنسان العارف غير المعصوم، وأيضًا يظهر التمايز بين الرسول والإنسان النابغة العاقل تمامًا.

بيان ذلك:

١. إنّ علم العلماء في الحكمة والكلام وسائر العلوم، يحصل عن طريق الاستنباط من المبادئ بعد الانتقال من المطالب إليها، وبعد عودتها الثانية من المبادئ إلى المطالب، أي عن طريق الاجتهاد والحركة المستمرّة.

٢. ما يحوزه العلماء من مختلف الفروع العلميّة، يكون ذهنيًّا ومفهوميًّا وعلمًا حصوليًّا.

٣. ما يحوزه العلماء غير مصون من آفّة السهو والنسيان وتطرّق المهملات والخزعبلات ونحوها، والحال أنّ ما يصل إلى الإنسان الكامل المعصوم ناتج من الوحي ويمتاز عن جميع الأمور المذكورة وما يرجع إليها.

---

١. الأنعام: ١٢٤.

٤. إنّ حظّ العرفاء في فنّ العرفان الشريف، وإن كان علمًا حضوريًّا وليس حصوليًّا، كما أنّه وإن لم يكن من قبيل الاجتهاد المفهوميّ في السير من المطلوب إلى المقدّمة ومنها إلى النتيجة، غير أنّ مشهود العارف ربمّا يكون متّصلاً بالمثال وربمّا يكون منفصلاً عنه، وأيضًا ربمّا يكون مبدؤه شيطانيًّا وربمّا يكون مبدؤه مَلَكيًّا، لذا قد يكون حقًّا وقد يكون باطلاً، وطريق تشخيص الصدق والكذب والحقّ والباطل هو البرهان العقليّ طبعًا بعد خروج العارف من الخلسة ورجوعه إلى حالته العاديّة. والحال أنّ الإنسان الكامل المعصوم غنيّ ومنزّه من جميع ما ذكر وما يرجع إليها.

٥. ما يناله المعصوم الكامل، والإنسان الطاهر من الشوائب غير الوحيانيّة، يكون بالقياس إلى ما يناله الرسولﷺ هو من باب الشدّة والضعف، والدوام والانقطاع والظهور والخفاء، والعلوّ والدنو، والقرب والبعد، ووجود الوسيط وعدم وجوده، طبعًا عدا التفاوت الموجود الراجع إلى التشريع وغير التشريع؛ لأنّ ما يناله غير الرسول الأكرمﷺ يكون بواسطة ذلك الصادر الأوّل أو الظاهر الأوّل حتمًا.

ومن هنا، يتّضح أنّ وحي الرسول الأكرمﷺ طالما يمتاز عمّا يناله المعصوم الكامل، فإنّه يمتاز يقينًا عمّا يناله الشهوديّين، كما يمتاز قطعًا عمّا يناله الحكماء النوابغ والمتكلّمون المهرة.

والخلاصة: فأيّ نابغة في العالم استطاع من الإتيان بمثل القرآن للبشريّة من خلال ضميره المستور وتجلّيّات شعور باطنه، بحيث يتمكّن من تأمين عقائد الإنسان الصحيحة وأخلاقهم وقوانينهم الفقهيّة والحقوقيّة والاجتماعيّة بأسطر قليلة.

إنّ القرآن يبيّن في صفحة واحدة ومن خلال عدّة آيات من سورة الإسراء المباركة، عصارة الحكمة النظريّة والعمليّة، حيث يقول:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ

وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا * وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا * وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا * ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾[1].

١. الإسراء: ٢٣-٣٩.

الفصل الثاني

الفرق بين الوحي والتجربة الدينيّة

«التجربة الدينيّة» مصطلح ساد الغرب في القرن التاسع عشر، وقد واجه تعريفه منذ البداية بمشاكل جدّيّة؛ لتنوّع الآراء في تعريف كلمتيْ «التجربة» و«الدين» وتفسيرهما بشكل كبير. ذهب البعض إلى أنّ التجربة الدينيّة واقعة يجرّبها المجرّب ويطّلع عليها. يرى الشخص الفاعل أنّ متعلّق هذه التجربة موجود أو حضور ما فوق الطبيعة كالله أو تجلّيه في فعل، أو يراه موجودًا مرتبطًا بالله بنحو من الأنحاء كتجلّي الله أو شخصيّة مثل مريم العذراء عليها السلام.

للتجربة مفهوم واسع وتطلق على ظواهر متعدّدة، بحيث تشتمل على التجربة الحسّيّة العاديّة إلى النوم والتخيّلات وحالات خارقة، تطرأ على الإنسان إمّا من دون اختيار أو بتعمّد وتدبّر تامّ، فكلها تجارب ولكن يلزم أن تتّصف التجربة بوصف من جهة الفاعل، أي التجربة التي يعتقد الفاعل بدينيّتها، لا السامع والناظر، ولا معرفة الأساليب الدينيّة أو معرفة الفنّ الدينيّ وما شاكل، وبعبارة أُخرى لا بدّ للفاعل من الاعتراف بمحتواها وأهمّيّتها الدينيّة.

تختلف التجربة الدينيّة عن البصيرة الدينيّة؛ لأنّ التجربة الدينيّة تقتضي المواجهة مع الله أو الحقيقة الغائيّة، أمّا البصيرة الدينيّة ليس لها هذا الاقتضاء، نعم يمكن للتجربة الدينيّة أن تكون منبعًا ومنشأ للبصيرة الدينيّة؛ لأنّ شرطها أن يكون الله أو الحقيقة الغائيّة موضوع تلك التجربة.

يمكن تقديم تفسير وتبيين آخر للتجربة الدينيّة، وكذلك تقسيم وتنويع منفصل، وتحليل وتعليل مستقلّ، وتكميل وتتميم للتنبّؤ، ولكن سنذكر فيما يلي ما راج في الكتب الحديثة وتمّ عرضه في سوق الفكر.

أنواع التجربة الدينيّة

١. تجربة الله بواسطة شيء محسوس ومتعارف، كرؤية شخص مقدّس.
٢. تجربة الله بواسطة شيء محسوس وغير متعارف، كرؤيته بواسطة النبات أو الشجرة المحترقة.
٣. تجربة الله بواسطة اللغة الحسّيّة المتعارفة، كرؤيته في المنام أو المكاشفة.
٤. تجربة الله بواسطة اللغة الحسّيّة غير المتعارفة ولكن قابلة للوصف.
٥. تجربة الله من دون توسّط أيّ شيء حسّيّ، وحينئذٍ يعلم الإنسان بالله على نحو الشهود.

الأقوال في التجربة الدينيّة

١. ليست التجربة الدينيّة تجربة عقليّة أو معرفيّة، بل إنّها نوع إحساس يتجاوز حدّ التمايزات المفهوميّة، وتعدّ نوعًا من تبيين ما فوق طبيعيّ، وإن استلزمت عدّ التأمّلات الفلسفيّة والكلاميّة (أي الدليل والبرهان ونتائجهما) من نتائج التجربة الدينيّة وتبعاتها الثانويّة.
٢. التجربة الدينيّة تجربة مبتنية على الإدراك الحسّيّ ولها شاكلة التجربة الحسّيّة، أي لم تكن نتيجة للاستدلالات العقليّة، ولم تكن لها التأمّلات الفلسفيّة والكلاميّة، وخارجة من إطار القياس والدليل. وعليه، فهي تجربة إيمانيّة.

وقد ذهب أكثر دارسي الدين في الغرب إلى القول الأوّل، وقالوا إنّ التجربة الدينيّة تتضمّن مفاهيم وقواعد وتعاليم لغويّة وطرق استدلاليّة.

نواة التجربة الدينيّة المشتركة

ذهب البعض إلى أنّ جميع التجارب الدينيّة لها عناصر مشتركة، وهذا الأمر يتّضح بشكل خاصّ في التجارب العرفانيّة، أي التجارب المتضمّنة لمعرفة الواقع الغائيّ من دون واسطة. فالعارف يصل إلى مرتبة الاتّحاد مع الواقع الغائيّ سواء أكان ذلك من الطريق المعرفيّ أم الوجوديّ، وهذه نواة تتعالى عن حدود الأديان المتكثّرة والفرق والثقافات المختلفة.

وفي قبال ذلك، ذهب البعض الآخر إلى عدم إمكان حصول أيّ تجربة من دون واسطة المفاهيم والاعتقادات، حتّى العلم بالنفس الذي يعدّ من أفضل التجارب الشهوديّة، فإنّه نتيجة الاستنتاج، وعليه فالاعتقادات الثقافيّة والدينيّة، تحدّ التجربة الدينيّة وتقيّدها، ليكون لكلّ تراث دينيّ تجربة خاصّة به، فالمعتقدات السابقة تؤثّر في تجاربنا الدينيّة[١].

وبناء على هذا، فقد عدّ بعض المعاصرين الوحي تجربة دينيّة، تقوّم شخصيّة الأنبياء ونبوّتهم. يرى النبيّ في هذه التجربة كأنّ شخصًا يجيء إليه ويلقي في أذنه وضميره أوامر ورسائل، ويكلّفه بإبلاغها الى الناس، وبناء على حصول هذه التجربة عنده يدرك مسؤوليّة جديدة. وقد أشار الغزاليّ أيضًا إلى هذا الأمر في المنقذ من الضلال، حيث قال:

«فاسمع أقوال الأنبياء فقد جرّبوا وشاهدوا الحقّ في جميع ما ورد به من الشرع، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك»[٢].

بعض الالتباسات في التجربة الدينيّة

لقد تعرّضت التجربة الدينيّة خلال تكوّنها لأسئلة جادّة كثيرة من قبل علماء الغرب وغيرهم، بحيث إنّ ساحتها تكون واضحة وشفّافة وخالية من التحدّيّات، وعلى سبيل المثال يمكن الإشارة إلى الأسئلة الآتية:

١. بأيّ معيار يمكننا فصل التجربة الدينيّة عن سائر التجارب الأخلاقيّة والجماليّة وكذلك الفرح والحيرة والذنب؟ والتجربة، في تمثيل عرفيّ، كمن يرى نمرًا أو دبًّا ويخاف منه، ولكن يرى شخصٌ آخر أنّ هذا جذع شجرة ولم يكن نمرًا ولا دبًّا.

٢. هل يمكن تسمية التجربة بالدينيّة، مع أنّنا لا نعرفها بتاتًا؟ وهل إنّ الحصول على محتوى الدين من خلال التجربة، لم يكن من باب (تقدّم الشيء على نفسه)؟ وعليه، فمن دون الرجوع إلى المعتقدات الدينيّة ومفاهيمها وتعاليمها، لا يتيسّر تبيين التجربة الدينيّة.

---

١. بترسون وآخرون، *عقل واعتقاد ديني*، ص٣٥-٥٩.

٢. غزالي، *المنقذ من الضلال*، ص ٦٤.

٣. لماذا يلزم عدّ الدين البوذيّ أو السيخيّ أو المسيحيّ و... من السنن الدينيّة، ولم نعدّ الماركسيّة دينًا؟ أو نتردّد في مدرسة النزعة الإنسانيّة (الأومانيزم)؟.
٤. إذا عدّ شخص تجربة ما دينيّة، فهل يلزم على السامع والناظر عدّ تلك التجربة دينيّة أيضًا؟
٥. هل يمكن جعل اتّفاق الآراء والعموميّة معيارًا لصدق التجربة الدينيّة، كما يذهب إليه بعض العرفاء؟

الموقعيّة المنطقيّة للتجربة

تعدّ التجربة، كما هو في المنطق، واقعة يحكم الإنسان بها من خلال تكرار المشاهدة، بعدما يراها عدّة مرّات ويجرّبها، تطمئنّ النفس إليها وتصدر حكمًا جزميًّا بخصوصها، كالحكم القاطع بأنّ كلّ نار تحرق؛ لأنّه شاهدها مرارًا وجرّبها، وكالحكم بلزوم الوصول إلى درجة خاصّة من الحرارة، لتمدّد الحديد وازدياد حجمه، وكالحكم بغليان الماء عند وصول الحرارة إلى المائة، وأكثر العلوم الطبيعيّة والتجريبيّة والطبّيّة نتيجة هذا النوع من التجارب.

هذه النتائج تتأسّس في الاستقراء الناقص على أساس العلّيّة، وهذه العلّيّة تنشأ من قياسين خفيّين في ضمير الإنسان: القياس الاستثنائيّ والقياس الاقترانيّ. وإلّا فلا يوجد شخص رأى جميع المياه المسخّنة ولا جميع أفراد الحديد الممتدّ بالحرارة، كما لا يوجد من يدّعي ذلك.

فالقياس الاستثنائيّ المذكور، هو:

«لو كان حصول هذا الأثر اتّفاقيًّا لا لعلّة توجبه، لما حصل دائمًا، لكنّه قد حصل دائمًا (بالمشاهدة) فحصول هذا الأثر ليس اتّفاقيًّا بل لعلّة توجبه».

أمّا القياس الاقترانيّ: فنجعل نتيجة القياس السابق صغرى القياس، ونقول: حصول هذا الأثر معلول لعلّة، ونقول في الكبرى: وكلّ معلول لعلّة يمتنع تخلّفه عنها، فهذا الأثر يمتنع تخلّفه عن علّته. وعندما نصل إلى العلّة، نحكم بشكل قاطع بغليان كلّ ماء عندما تصل الحرارة إلى مائة.

ولكن مع هذا، لا يجرأ أحد من الادّعاء باحتواء كلّ تجربة على حكم يقينيّ مطابق للواقع؛ لأنّ كثيراً من التجارب تخطئ؛ إمّا لعدم وصول المجرّب إلى العلّة بشكل دقيق، أو من خلال وضع العلّة الناقصة مكان العلّة التامّة، أو من خلال جعل ما بالعرض بدل ما بالذات، وعلى سبيل المثال: فإنّ من يولد في بلد يمتاز بلون خاصّ للبشرة، ويرى أنّ كلّ من يولد فإنّه يولد باللون نفسه، فإنّه يحكم بأنّ جميع البشر يحملون اللون نفسه، فإنّ هذا الحكم خطأ؛ لأنّه جعل الوصف العرضيّ مكان الذاتيّ[١].

وبناء على هذا، فربمّا يحكم شخص على تجربة بأنّها دينيّة، ويزعم في نفسه أيضًا أنّها دينيّة، غير أنّها تواجه إرباكًا كبيراً؛ لأنّها ناشئة من تجاربه ومشاهداته الباطنيّة الشخصيّة، وهكذا تجربة تتعرّض لعوامل وعلل غير دينيّة مختلفة، بمعنى أنّ هذه التجربة لم تكن بمثابة التجارب الموجودة في العلوم والفنون المختلفة، كالطبّ والصيدلة والفيزياء والكيمياء و...، الخاضعة للمشاهدة والاختبار، والممتازة بالضرورة والحسّ الكلّيّ والكونيّ، والمصاحبة للقياس الخفيّ. وعليه، فإنّ تجارب الأشخاص الدينيّة مورد إشكال منطقيًّا.

تعريف الدين

ربمّا يمكن إعطاء تعاريف مختلفة ومتنوّعة للدين، غير أنّنا نكتفي هنا بتعريفين، أحدهما خاص والآخر عام، وسيتّضح معنى التديّن أيضًا بعد التعرّف على معنى الدين.

١. الدين عبارة عن مجموعة من العقائد والأخلاق والحقوق والفقه الإلهيّ، تكوّن هويّة الشخص المتديّن نظريًّا وعمليًّا، وحينئذٍ فمن يدرك أمرًا بالمشاهدة الباطنيّة يُعدّ هذا تجربة دينيّة، والمشهود هذا قد يقترن مع الأوامر والنواهي، وتارة مع الوجود والعدم، وأُخرى، وإن كان نادرًا، مع الوجود والموجود.

علمًا بأنّ التجارب المذكورة، لم تكن كلّها بمرتبة واحدة؛ لأنّ المجرّبين لم يكونوا بمرتبة ومقام واحد أيضًا؛ لأنّ بعضهم من أهل السير والسلوك، والبعض الآخر لم

---

١. المظفر، *المنطق*، الباب ٦، الصناعات الخمس، ص٣١٨.

يسلك هذا الطريق وربمّا حصلت له مشاهدة على سبيل الصدفة، وربمّا لم يكونوا من معتنقي الدين الحقّ.

٢. الدين بمعنى مجموعة تكون أعمّ من العقائد والأخلاق والحقوق والفقه الإلهيّ وغير الإلهيّ. وحينئذٍ تكون الماركسيّة والنزعة الإنسانيّة دينًا أيضًا، كما أنّ القرآن يستعمل كلمة الدين بمعناها العامّ والمطلق، وعلى سبيل المثال ينقل عن لسان فرعون: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[١] فالوثنيّة كانت دين قوم فرعون لا الدين التوحيديّ الذي يذعن بالوحي والمعاد والنبوّة والإعجاز. فهؤلاء كانوا متديّنين اصطلاحًا، أي أذعنوا بمجموعة قوانين باسم الدين كانت رائجة في عصرهم بأيّ علّة وسبب؛ لذا قال لهم فرعون إنيّ أخاف أن يغيّر تلك المجموعة من المعتقدات والسنن التي اتّخذتموها دينًا.

وبناء على هذا، لو قلنا إنّ الدين الحقيقيّ، هو الذي يثبت عن طريق الأنبياء ورسل الله ومشاهداتهم ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[٢] فلا يمكن إطلاق كلمة (الدين) على ما لم يحصل عن هذا الطريق، سواء أكانت المواجيد من عالم المثال المتّصل كالرؤيا الصالحة أو أضغاث الأحلام، أو من عالم المثال المنفصل كما يدّعيه البوذيّون والسيخ المرتاضون، أو من قبيل ما تدّعيه الماركسيّة والنزعة الإنسانيّة وعبّاد البقر والأصنام.

كان فرعون من عبّاد الأوثان، لذا قال له الملأ من قومه: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[٣] إنّ فرعون رغم كونه عابد وثن إلاّ أنّه كان يرى لنفسه التدبير والتصرّف في أرض مصر وإنّه السلطان عليها، وكان يقول: لا يملككم أحد سواي، وإنّ رأيي هو الحاكم عليكم، ولا بدّ من إجراء قانون يتوافق مع إرادتي ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[٤] و

---

١. غافر: ٢٦.

٢. آل عمران: ١٩.

٣. الأعراف: ١٢٧.

٤. النازعات: ٢٤.

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[1] نعم، إنّه لم يقل بأنيّ واجب الوجود، أو أنا الذي خلقت العالم وخلقتكم.

وبناء على هذا، فتسمية الدين، يرجع إلى الاصطلاح، فلو اعتقدنا أنّ الدين أمر إلهيّ مبتني على أساس المشاهدات الغيبيّة وعالم المثال المنفصل والعقل المنفصل، والحقّ هو هذا، فحينئذٍ لم يكن كثير ممّا اشتهر باسم الدين؛ دينًا. ولكن لو لم نشترط الشهود الغيبيّ أو الأمر الإلهيّ في دينيّة أيّ مذهب، كما يطلق القرآن كلمة الدين تارة على مذاهب باطلة، فحينئذٍ يكون للدين معنى اوسع. وليعلم أنّ ما يحصل عن طريق التجربة الدينيّة، لا يحتاج إلى إثبات دينيّة سابقًا. بل يكفي اذا كان من سنخ المعاني الدينيّة، ولم يختلف مع الأصول والضوابط العقديّة والخلقيّة والحقوقيّة والفقهيّة. وعلى كلّ حال، فإنّ التجارب العاديّة بحاجة إلى تكرار والاعتماد على القياس الخفيّ، وتواجه الإشكالات الكثيرة المذكورة.

وليعلم أيضًا بأنّ الشعور الداخليّ وإن لم يتكرّر ولم يصاحبه القياس الخفيّ، قد يسمّى بالتجربة، غير أنّ هكذا اصطلاح مستحدث لم يلق رواجًا في المنطق.

المشاهدات الوحيانيّة

ربّما يشاهد الإنسان في ضمن مشاهداته الباطنيّة، أعمق المطالب والموضوعات حيث يشاهدها لأوّل مرّة، ولم يتردّد فيها أبدًا وهي واضحة له ويقينيّة كوضوح (٢+٢=٤)، ولم تحتج لا إلى التكرار، ولا إلى دعم البرهان العقليّ، ولا إلى الاستناد النقليّ المعتبر. وإن احتمل أن يكون هذا الوضوح والقطعيّة من سنخ اليقين النفسيّ لا المنطقيّ، ومن الصعب التمييز بين اليقين المنطقيّ واليقين النفسيّ، ما دام لم يقيّم بميزان العقل ومحكّ البرهان، وإن زعم القاطع عدم حاجته إلى ميزان البرهان.

إنّ مشاهدات الأنبياء الباطنيّة والوحي الإلهيّ، يكون في الوضوح كالحسّ الضروريّ للإنسان، من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ـ بيان ذلك: إنّ مشاهدات الإنسان الحسّيّة على نوعين: المشاهدة من دون شكّ والمشاهدة مع الشكّ. عندما نفيق من

---

١. القصص: ٣٨.

النوم، ونرى الشمس مشرقة، لا نشكّ في ضوء الشمس، والإنسان عندما يشاهد الفضاء لأوّل مرّة يدرك هذا الضوء، وإن لم يتمكّن من تسميته، أو لم يكن له اسم رأسًا.

وكذلك من يضع يده على النّار، يحسّ بالاحتراق من دون شكّ، ومن يجوع لا يشكّ في حالة جوعه؛ لأنّ جميع هذه من الأمور الحسّيّة التي لا يتطرّق الشكّ إليها، وفي المقابل إذا أراد شخص الوصول إلى خواصّ النبات الطبّيّة من خلال التجربة والاختبار، فإنّه سيصل إلى الخاصيّة الفلانيّة في ظلّ شرائط خاصّة مقرونة بالتكرار؛ لأنّه يواجه المشكوك في هذه التجربة. فما يدركه الأنبياء بعنوان الوحي الإلهيّ، لا يحتاج قطعًا إلى التكرار، أو دعم البرهان العقليّ أو الاستناد النقليّ المعتبر، بل إنّهم يرون أعمق المسائل الميتافيزيقيّة وأثقلها، وأعقد المسائل الفيزيائيّة، بوضوح النور ونقاء ماء المطر، بيّنة الرشد. ولا مشاحّة لو سمّاها أحد بالتجربة الدينيّة؛ لأنّ هكذا أسماء ليست توقيفيّة.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى عدّة نقاط:

١. تنقسم نشأة الكون إلى الغيب والشهادة.

٢. تمتاز نشأة الغيب وما وراء الطبيعة بالحقّ والصدق والخلوص والكمال والتمام، ولكن تختلط نشأة الشهادة بالحقّ والباطل، والصدق والكذب، والكمال والنقص، والتمام والعيب.

٣. لا يوجد مجال للباطل في نشأة الحقّ الصحيحة، والأنبياء هم الذين يتشرّفون بالدخول إلى ذلك البلاط، أمّا الباقون، وإن اقتربوا من ذلك البلاط الرفيع، لكنّهم غير مصونين من الخيال والوهم والاختلاط.

٤. بناء على هذا، فالحدّ بين وحي الأنبياء وسائر المشاهدات العرفانيّة والتجارب الدينيّة تبقى محفوظة كما كان.

وهنا لا بأس بتكرار هاتين الروايتين:

قال الإمام الباقر عليه السلام لزرارة:

الرسول الذي يأتيه جبرئيل فيكلّمه قبلاً، فيراه كما يرى أحدكم أصحابه الذي يكلّمه فهذا الرسول، والنبيّ الذي يؤتى في النوم نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام، ونحو ما

كان يأخذ رسول اللهﷺ من السبات الذي أتاه جبرئيل في النوم فهكذا النبيّ، ومنهم من تجمع الرسالة والنبوّة فكان رسول اللهﷺ رسولاً نبيًّا يأتيه جبرئيل قبلاً فيكلّمه ويراه، ويأتيه في النوم[١].

وسأل زرارة الإمام الصادقؑ قال:

كيف لم يخف رسول اللهﷺ فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك ممّا ينزغ به الشيطان؟ قال: فقال: إنّ الله إذا اتّخذ عبدًا رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار، فكان يأتيه من قبل الله عزّ وجلّ، مثل الذي يراه بعينه[٢].

إنّ الأنبياء وسفراء الله، يصلون إلى مراحل وجوديّة خاصّة، جرّاء التجرّد وصفاء الروح وطهارة الضمير، بحيث لا مجال هناك للباطل والكذب ومخالفة الواقع والشكّ. إنّ نطاق الشكّ يكون بين موردين، أحدهما (ألف) والثاني (باء)، ولكن إذا لم يكن سوى (ألف) أو إذا لم يكن في مكتبة مثلاً سوى القرآن، أو لم يكن في مستودع سوى الذهب، فحينئذٍ لو رُؤي كتاب أو معدن من قريب أو بعيد، لا يحصل مجال للشكّ بين القرآن وغير القرآن، أو الشكّ بين الذهب والفضّة. إذ الشكّ فرع لوجود شيئين دائمًا، يكون أحدهما مبهمًا لدى الإنسان، كمن يرى شبحًا من بعيد، ولا يدري هل هو جذع شجرة أو نمر، ولكن الذي يرى بعينين صحيحتين يراه جذع شجرة، فلا يشكّ ولا يتردّد.

فالأنبياء بسبب وصولهم إلى مقام لا يتطرّق إليه الباطل، يرون الحقّ الصريح بوضوح تامّ؛ لعدم وجود سوى الحقّ في الساحة الإلهيّة، ولا يتطرّق إليها الباطل والكذب والخلاف ووساوس الشيطان، وحينئذٍ لا ينجح وهم الشيطان وخدعه؛ لأنّ نطاق تجرّد الشيطان ومضمار سباقه لا يتجاوز التجرّد الوهميّ، إنّه لا يصل إلى مقام الحقّ والإخلاص الموصوف بالتجرّد الخالص والمصون من الشوب والاختلاط. فالحقّ بعيد عن مرمى الشيطان.

---

١. المجلسي، ***بحار الأنوار***، ج١٨، ص٢٧.

٢. المصدر السابق، ج١٩، ص٢٦٢.

إنّ ما يراه الإنسان الكامل والمخلص في مقام التجرّد التامّ، لا يشوبه الغشّ والاختلاط والجعل، كي يتمكّن الشيطان من إغواء أحد بإتيان البديل والشبيه. فالنبيّ لا يرى سوى الحقّ في المثال المتّصل، كبعض أقسام الرؤيا، وفي المثال المنفصل، كرؤية ملك الوحي في اليقظة، وشهوده وكشفه حقّ خالص كلّه.

وهذه الاستراتيجيّة العمليّة هي سبب مقوله أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما شككت في الحقّ مذ أريته**»[١] وأيضًا: «**ما كذبت ولا كُذّبت ولا ضللت ولا ضلّ بي**»[٢].

وأمير المؤمنين عليه السلام وإن لم يكن نبيًّا ومأمورًا بإبلاغ الوحي التشريعيّ، غير أنّه كان يسمع طنين الوحي، ويرى ملك الوحي، كما قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلّا أنّك لست بنبيّ**»[٣]. فالشيطان لا طريق له الى هذا الفضاء، كما لا مجال لطير الوهم أن يطير فيه، فهؤلاء سلوكهم الشهوديّ حقّ وكما هو الحال في مشهودهم، وليست لهم أيّ حاجة إلى التكرار وسند البرهان والقياس العقليّ أو الدليل النقليّ المعتبر، بل إنّهم هم سند البرهان العقليّ والدليل النقليّ المعتبر. يصف أمير المؤمنين عليه السلام السالكين لهذا الطريق، والعارفين بالله والمؤمنين الحقيقيّين هكذا:

> «قد أحيا عقله، وأمات نفسه، حتّى دق جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه، وأرضى ربّه»[٤].

تجربة غير المعصومين

إنّ تجارب غير النبيّ أو الإمام المعصوم، سواء أكانت كشفًا أم شهودًا أم رؤيا، أم إحساسًا للأمر المتّصل أو المنفصل عن النفس والجسم (عدا النوم والحالات المناميّة) فإنّ

---

١. *نهج البلاغة*، الخطبة ٤.
٢. المصدر السابق، الخطبة ١٨٥.
٣. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٤، ص٤٧٦.
٤. *نهج البلاغة*، الخطبة ٢٢٠.

جميعها بحاجة إلى عرضها على الميزان، ليظهر سقمها من صحّتها وقيمتها، كما تعرض الروايات على القرآن الكريم والسنّة المقطوعة والأخبار المتواترة.

ومعنى ذلك، أنّ القرآن والسنّة المقطوعة والأخبار المتواترة الواصلة عن طريق الخاصّة والعامّة والبالغة مرحلة القطع والتأييد، كما أنّها تعدّ ميزانًا للأخبار والروايات المظنونة، ويمكن من خلالها معرفة الصحيح من السقيم والمجهول والمدسوس من الصحيح والموثّق، فكذلك نحتاج إلى ميزان ومقياس لنزن بها نتائج الكشف والشهود والتجارب الدينيّة، ونعرض عليها شهود الشاهدين وتجارب العارفين.

والخلاصة، إنّ كل ما هو معرّض للتصدّؤ، لا بدّ وأن يوزن بميزان غير متصدّئ؛ لأنّ من المقطوع به أنّ تجارب الآخرين لا تساوي تجربة الأنبياء المعصومين عليهم السلام حيث إنّ الخلل والقصور والنقص والسقم يتطرّق إليها في مبادئها التصوريّة والتصديقيّة.

بيان ذلك: إنّ التجارب المادّيّة والطبّيّة والسياسيّة والعسكريّة والأخلاقيّة والاقتصاديّة، خارجة عن نطاق البحث؛ لأنّ الاختبار في عالم الطبيعة في المدركات التي تتزاحم فيما بينها، فربمّا تأثير بعض الأعشاب يختصّ بدولة أو منطقة خاصّة، ولا تنتج الآثار نفسها في مكان آخر. وكذلك ربمّا يحصل الخطأ في تشخيص الذاتيّ من العرضيّ، وتجلس الأوصاف الاقتضائيّة مكان الذاتيّات العلّيّة، كما أنّ جهاز الإدراك قد يخطئ أيضًا، فيرى الأحول الشيء الواحد شيئين، أو يصل المجرّب إلى تجربة تخالف تجربة شخص آخر، وقد يخطئ المدرِك والمدرَك كلاهما.

ولكن في التجارب غير الطبيعيّة، فما يراه الأنبياء المعصومين، الأُمناء على أسرار الوحي الذين يشاهدون ما شاهده الأنبياء، فإنّها مصونة من الخطأ والزلل؛ إذ النبيّ لا يتفوّه إلاّ عن طريق الوحي، وكلامه خال من الأهواء وسائر الآفات النفسانيّة، كما أنّ حسّه وتخيّله ووهمه وشهوده وعقله جميعًا مصون عن الخطأ.

إنّه يرى في البداية الأمور المتعالية بالشهود القلبيّ، ثمّ يحلّلها بالتعقّل البرهانيّ، ثمّ ينطق بها ويستدلّ.

فكلماته إمّا عرفانيّة أو حكميّة أو كلاميّة أو فقهيّة، ولا يوجد أيّ غلط أو مغالطة أو

تدليس في أيّ مرحلة من مراحله الإدراكيّة، أعمّ من الحسّ والخيال والتوهّم والتعقّل والشهود: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[١].

فهكذا إنسان كامل إذا كان نبيًّا فله وحي تشريعيّ مضافًا إلى الإلهام التسديديّ والإنبائيّ، وإن لم يكن نبيًّا، سيوجد في وجوده جوهر يفضّله على الآخرين، ولا فرق حينئذٍ بين المذكّر والمؤنّث، كالأئمة المعصومين وفاطمة الزهراء عليها السلام وأمّ موسى والسيّدة مريم عليها السلام.

وليعلم أنّ بعض التجارب الدينيّة، قد تقترن مع حالة أو وصف خاصّ، من قبيل:

١. إنجازات المثال المتصل، كالرؤيا والحلم والحالات المناميّة.

٢. التجارب التي لا يعلم هل هي من المثال المتّصل أو المثال المنفصل، بحيث ينفتح طريق الظنّ والشكّ فيها.

٣. إنجازات المثال المنفصل، من قبيل: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[٢].

٤. إنّ جميع المشاهدات الصحيحة والتجارب الدينيّة الصادقة، تُنال لأتباع الأنبياء الصادقين وفي ظلّ ولايتهم الإلهيّة، ويتمّ اختيار صحّة تلك المشهودات وسقمها من خلال انطباقها مع تعاليم الأنبياء.

تقييم طرق كسب التجربة

إنّ التجارب التي تحصل للإنسان عن طريق المثال المتّصل، أو التجارب التي لا يُعلم هل هي من المثال المتّصل أو المنفصل، فإنّها معرّضة للتصدّؤ، وعالم المثال المتّصل وإن كان ما فوق الطبيعة، ولم يكن منشأ ومنطلقًا للحركة فلا تصادم ولا اصطكاك فيه، غير أنّه يتصدّأ من جانب الإدراك والمدرِك والمدرَك؛ لأنّ ما يراه المجرّب في الرؤيا والحلم في مثاله المتّصل، وإن أيقن بصحّته، غير أنّه من نتائج القوّة المتخيّلة، وربمّا لم تكن مصونة من تلاعب الشياطين.

وكذلك الأمر في التجارب التي يحوزها الإنسان عن طريق المثال المنفصل، والمثال

---

١. النجم: ١١.

٢. مريم: ١٧.

المنفصل وإن لم يتطرّق إليه اللهو واللغو والتدليس، وتكون نتائجه ربّانيّة، ولكن فإنّ هذه التجارب تتصدّأ من ناحية المدرِك، كالإنسان الأحول الذي يرى الشيء الواحد اثنين.

والأحول وإن كان يخبر عمّا يراه في الخارج، ولكن بسبب خطأ الباصرة، فإنّ إدراكه غير مصون، وفي ما نحن فيه أيضًا فإنّ نتائج المثال المنفصل، بعد نقلها إلى القوّة المتخيّلة، تتعرّض للسرقة والتلاعب من قبل هذه القوّة، وتتغيّر صورتها الحقيقيّة. لذا تختلف عن الواقع، كما يمكن أن يحصل الجزم بالسبب التامّ عن طريق شهود العلّة الناقصة، وتوهّم تماميّتها، أو بسبب الغفلة عن بعض الموانع، أو الجهل ببعض الشرائط، والحال أنّه ليس كذلك.

أمّا السالك العارف، فإنّه يخزّن التجارب عن طريق العقل والقلب، ويتعرّف على الأمور المجرّدة التي لا صورة لها ولا شكل، ويقبلها من صميم قلبه، كالإدراك الشهوديّ لمسألة الخلافة والولاية والتوحيد الخالص ومنبع الرسالة والولاية. فهنا تكون جميع الخواطر والتجارب ربّانيّة، ولكن بعدما تصل هذه الخواطر والتجارب إلى مراتب متدنّية وسفلى كالوصول إلى القوّة المتخيّلة، فتتعرّض للسرقة.

فما يراه العارف او يسمعه مثلاً، فهو حقّ، فربّما يرى سيّد العارفين وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن عند الرجوع يتعرّض لسرقة القوّة المتخيّلة، فيرى صورة صحابيّ آخر بدل صورة سيّد العارفين عليه السلام بجنب رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وذلك لأنّ ذهنيّات المجرِّب ومعلوماته تكوّنت سابقًا هكذا، أي بأن تزعم بلزوم مصاحبة الصحابيّ الفلانيّ للرسول صلى الله عليه وآله لا أمير المؤمنين عليه السلام.

وهذا ما يذكر في العرفان النظريّ أيضًا، والعرفاء يذعنون به، وعلى سبيل المثال يقول القيصريّ تبعًا لابن العربيّ في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾[1]. فإنّه يقول:

«إنّ القلب والروح مطهّر من الأرجاس البدنيّة، ومقدّس من الكدورات الجسمانيّة، وكلّما يرد عليهما مطابق لما هو الأمر عليه في نفسه، فهو ربّانيّ.

١. نوح: ٢٨.

لذلك قيل: إنّ الخواطر الأولى كلّها ربّانيّة حقّيّة، وإنّما يتطرّق إليها من تحمّلات النفس وتصرّفاتها أمور تخرج عن الصواب، فتصير أحاديث نفسانيّة ووساوس شيطانيّة»[١].

وعليه، فطريق الشيطان مفتوح في مرحلة المتخيّلة والخيال والوهم، فإنّه يصول ويجول: ﴿إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾[٢]، فما دام لم يتمّ تسخير قوّة الخيال من قبل القوّة العاقلة عن طريق الذهنيّات والدراسات الأصيلة، وما دام لم تتمّ السيطرة عليها، فإنّها تصرّ على أخطائها، وتخدع المثال المنفصل والمتّصل، وتخلق له بدائل مماثلة.

لذا، يراقب أهل السير والسلوك كي لا يصل إلى إنجازاتهم القلبيّة غبار قوّة الخيال، وكما قال أهل العرفان:

«وما يجده كلّ واحد في خياله من المنامات الصادقة إنّما هو بمقدار صفاء قلبه وظهوره، لا بحسب خياله»[٣].

وبناء على هذا، فنقرأ كثيراً في الروايات بأنّ الرؤيا الصادقة من أجزاء النبوّة، إنّ رسول اللهﷺ قال: «**وإنّ الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزءاً من النبوّة**»[٤].

والرؤيا تتبع حالات المؤمن، فكلّ ما كان إيمانه أقوى، كانت مرآة قلبه أوضح وأصبح وأكثر نورانيّة، وقد قال رسول اللهﷺ في حقّ المؤمن: «**أصدقهم رؤيا أصدقهم حديثًا**»[٥].

وقال الإمام الرضاؑ: إنّ رسول اللهﷺ إذا أصبح قال لأصحابه: «**هل من مبشّرات؟ يعني به الرؤيا**»[٦].

إنّ رسول الله كان يقيّم رؤيا أصحابه، ولكن رؤياه هو كسائر الأنبياء وحي كلّها؛ لأنّ

---

١. القيصري، *شرح فصوص الحكم*، ص٥٣٧.
٢. الأنعام: ١٢١.
٣. القيصري، *شرح نصوص الحكم*، النص الإسحاقي، ص ٦٢٩.
٤. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٦١، ص١٧٦.
٥. المصدر السابق، ص١٨١.
٦. المصدر السابق، ص١٧٧.

الشيطان لا سبيل له إلى حريمه، كما أنّه لا يتمثّل به إنّ رسول اللهﷺ قال: «**من رآني في منامه فقد رآني؛ لأنّ الشيطان لا يتمثّل في صورتي ولا في صورة أحد من أوصيائي**»[١].

ميزان الكشف والتجربة

لكلّ شيء ميزان، وميزان الرؤيا والحلم هو رؤيا الأنبياء وحلمهم، قال أمير المؤمنينؑ: «**رؤيا الأنبياء وحي**». فلو ذهبنا إلى أنّ الوحي تجربة شهوديّة، فلا بدّ من عرض سائر التجارب الشهوديّة والكشوفات والرؤى عليه؛ لأنّه الميزان. إنّ ما يجده الأنبياء حقّ كلّه ولا سبيل للشيطان إليه كما مرّ عن رسول اللهﷺ بأنّ الشيطان لا يتمثّل به وبأحد من أوصيائه.

فلو رأى شخص رسول اللهﷺ أو أحد أوصيائه في المنام، فيما لو أحرز رؤيته لشخص النبيّﷺ أو الإمام المعصومؑ، فإنّه كمن رأى النبيّﷺ في اليقظة. ومن هذه الجهة فإنّ كلام النبيّﷺ كالقرآن والسنّة القطعيّة يكون ميزانًا للكشف والشهود، كما يفعل العلماء في السنّة غير المقطوعة والمجعولة حيث يعرضونها على القرآن والأخبار القطعيّة والمتواترة، فإذا لم تتوافق معها ولم يمكن التأويل تترك أو بعبارة أخرى تضرب عرض الجدار، كما أنّ متشابهات القرآن أيضًا تعرض على المحكمات، ونتوصّل إلى معناها في ظلّ المحكمات.

وبناء على هذا، فإنّ ميزان استكشاف صحّة كشف غير المعصوم وشهوده هو شهود النبيّ والإمام؛ لأنّ كلام المعصوم يوجب القطع، وعمله يبتني على اليقين، وكشفه وشهوده تامّ؛ لأنّه متكامل من جهة الإدراك والمدرَك والمدرِك وميزان فيها، وفي الواقع إنّه ميزان القسط والشهود والكشف؛ لأنّه الشاهد والقائل بالحقّ والمخلَص، والشيطان قد استسلم له.

ولابن عربيّ كلام جميل فيما نحن فيه، فإنّه جعل النبيّﷺ صاحب الكشف التامّ (ميزان الكشف) وقال:

«فكان لهﷺ الكشف الأتمّ فيرى ما لا نرى، ولقد نبّه على أمر عمل عليه أهل الله

---

١. المصدر السابق، ص١٨١.

فوجدوه صحيحًا، قوله: لولا تزييد في حديثكم، وتمريج في قلوبكم، لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع»[١].

وفي رواية أخرى عن رسول اللهﷺ يشير إلى أنّ رؤيا الإنسان الحادثة في المثال المتصل، فإنّها تنزل جميعها بشكل واضح من المخزن الإلهيّ، غير أنّها عند الرجوع تنحرف في السماوات الوسطى وتتحوّل إلى أضغاث أحلام. قال رسول اللهﷺ:

«يا عليّ ما من عبد ينام إلّا عرج بروحه إلى ربّ العالمين، فما رأى عند ربّ العالمين فهو حقّ، ثمّ إذا أمر الله العزيز الجبّار بردّ روحه إلى جسده، فصارت الروح بين السماء والأرض، فما رأته فهو أضغاث أحلام»[٢].

فما دامت الروح عند ربّ العالمين، يكون كلّ ما تشاهده نقيًّا وتستقيه من العين الصافية، ولكن عندما ترجع إلى الجسم قد تنحرف عن جادّة الصواب، وكما يقول القيصريّ:

«إنّ الخواطر الأول كلّها ربانيّة حقيّة، وإنّما يتطرّق إليها من تحمّلات النفس وتصرّفاتها أمور تخرجها عن الوصاب، فتصير أحاديث نفسانيّة ووساوس شيطانيّة»[٣].

وعليه، فإنّ تجارب العرفاء بحاجة إلى عرضها على الميزان، ولا يمكن الحكم بصحّة كلّ تجربة دينيّة، وترتيب آثار الواقع عليها. إنّ صفة التجربة التي تكون ميزانا أن يكون المجرّب يرى ملك الوحي ويعرفه ويسمع صوته كعلمنا الضروري بجليسنا، وأن يكون نصّ القرآن وكلام الله الناطق، كما قال رسول اللهﷺ لأمير المؤمنينؑ بأنّك ترى ما أرى وتسمع ما أسمع[٤]. وكما قال أمير المؤمنينؑ: «**وإنّ الكتاب لمعي ما فارقته مذ صحبته**»[٥].

---

١. ابن‌عربی، *الفتوحات المكّيّة*، ج ١، ص١٤٧.
٢. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٥٨، ص١٥٨.
٣. القيصري، *شرح فصوص الحكم*، النص النوحي، ص٥٣٧.
٤. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٤، ص٤٧٦.
٥. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٢٢.

وليعلم أنّ الاختلاف الأساس بين الوحي، وما يُطلق عليه في العصر الحاضر بالتجربة الدينيّة، محفوظ في مكانه وقد أشرنا في ثنايا البحث إلى تمايزهما، وتفاضل الوحي القرآنيّ على التجربة الدينيّة.

طريق التجربة الصحيحة

١. لا بدّ من مراقبة الحواسّ الخمسة الظاهريّة، بأن لا ينظر الإنسان إلى أيّ مكان كان، ولا يستمع إلى أيّ كلام كان، وأن يأكل الطعام الطاهر، ويستعمل اليد والرجل وسائر الأعضاء في الطريق الصحيح، والخلاصة يلزم ضبط الواردات الخارجيّة إلى الباطن عن طريق الحواسّ الخمسة، وكذلك ضبط خروج ما في الباطن إلى الخارج عن طريقها أيضًا.

٢. لا بدّ من تصفية القلب عمّا سوى الله، والاقتصار على التوجّه إلى الله تعالى، بأن يرى الإنسان القلب حرم الله.

٣. لا بدّ من الاختلاء مع الله تعالى، بالمقدار الذي ينبغي والابتعاد عن الكثرة، سيّما في الليل حيث يلزم أن يخصّصه الإنسان لنفسه وللدعاء والمناجاة، ويترك التفكّر في أمور الدنيا، وبعبارة أخرى: أن يتقرّب بالنوافل إلى الله، فإنّه أفضل طريق للتقرّب.

إنّ السالكين لهذا الطريق كثر، كالحارثة بن مالك، فإنّه وصل عن هذا الطريق إلى منزلة كأنّه يرى فيها الجنّة والنار، وأهل الجنّة وأهل النار، والنعيم والعذاب، ونقل شهوده هذا إلى النبيّ ﷺ أي عرض كشفه وشهوده على الميزان، وهو كشف المعصوم التامّ، وقد أقرّ النبيّ ﷺ كشفه وقال له: عبد نوّر الله قلبه بالإيمان، أبصرت فأثبت، فقال: يا رسول الله ادع الله لي أن يرزقني الشهادة معك، فقال: اللهمّ ارزق حارثة الشهادة[١]. فكان العاشر ممّن استشهد مع جعفر بن أبي طالب.

وليعلم أنّ إمضاء رسول الله ﷺ لشهود حارثة وتصديقه له، لا يعني عصمة حارثة، بل يعني عرض حارثة شهوده على الميزان الصحيح، وإمضاء هذا الميزان لهذا

---

١. الكليني، *الكافي*، ج ٢، ص٥٤.

الشهود الخاصّ، بمعنى إمكانيّة خطأ حارثة في شهود آخر، وعليه فنحن بحاجة دائميّة إلى العرض على ميزان الوحي.

وقد أكّد أمير المؤمنين عليه السلام على هذه النقطة أيضًا حيث قال في صفة المؤمنين والمتّقين: «**فهم والجنّة كمن قد رآها، فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون**»[١].

٤. يلزم التوافق مع البرهان العقليّ. اذ إنّ الإيمان بالله والنبيّ إذا لم يكن عن طريق البرهان، او الاعتقاد الحاصل عن غير الدليل والن لم يكن نافعا. إنّ أصحاب موسى الظاهريّين آمنوا به بعد رؤية المعجزة، وعبدوا العجل بعد سماع صوت عجل السامريّ؛ لأنّهم لم يعتمدوا على البرهان والعلم، على خلاف ما ورد عن سحرة فرعون، حيث ذكر القرآن إيمان أولئك المجاهدين من الأقوياء بكلّ جلال واحترام، ونقل كلامهم الحكيم والعرفانيّ: ﴿**فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾[٢] بكلّ صلابة وسداد.

لذا، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسالة، وأولي الأمر بالأمر بالمعروف والعدل والإحسان**»[٣].

وتظهر الرؤية الصحيحة والدراية [التامّة] والاستدلال القويّ، في كلام المنصور بن حازم، حيث يقول:

«قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أنيّ ناظرت قومًا فقلت لهم: إنّ الله جلّ جلاله، أجلّ وأعزّ وأكرم من أن يُعرف بخلقه، بل العباد يُعرفون بالله. فقال عليه السلام: رحمك الله»[٤].

فالعلماء يطلقون مصطلح «البرهان الحقيقيّ» لهكذا استدلال، أي بأن يعرف الإنسان الله بالله، ثمّ يستدلّ به، وهو علّة إيجاد المخلوقات والممكنات، على وجود الأشياء

---

١. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٩٣.
٢. طه: ٧٢.
٣. الكليني، *الكافي*، ج ١، ص٨٥.
٤. الكليني، *الكافي*، ج ١٠، ص٨٦.

والعباد وسائر الموجودات وظهورها، لا أن يستدلّ بالأشياء على وجود الله.

وبناء على هذا، فيعتقد البعض أنّ كلمة البرهان لا تليق إلّا للبرهان اللمّيّ، ويسمّون سائر الاستدلالات بالدليل الإنيّ، نعم إنّ (الإنيّ) على قسمين تمّ التطرّق إلى التمييز بينهما، وتفاضل كلّ واحد منهما على الآخر في فنّ البرهان من المنطق.

وعلى كلّ حال، فما ذكره المنصور بن حازم في مسألة المعرفة، يعدّ من أفضل طرق الاستدلال، وسيكون هكذا إنسان مصداقًا لكلام الإمام عليّ عليه السلام: «**وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك له السبيل**»[١].

الحل القراني للتجرة

لو تمكّنّا من تجربة الولوج الى ملكوت السماوات والأرض، لا بدّ من التمسّك بتعاليم القرآن لنيل ذلك. يقول الأستاذ العلاّمة الطباطبائيّ قدس سره بهذا الخصوص:

> «نعم، ها هنا حقيقة قرآنيّة لا مجال لإنكارها، وهو أنّ دخول الإنسان في حظيرة الولاية الإلهيّة، وتقرّبه إلى ساحة القدس والكبرياء، يفتح له بابًا إلى ملكوت السماوات والأرض، يشاهد منه ما خفي على غيره من آيات الله الكبرى، وأنوار جبروته التي لا تطفأ»، قال الصادق عليه السلام: «لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض».

وفيما رواه الجمهور عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «**لولا تكثير في كلامكم، وتمريج في قلوبكم، لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع**». وقال: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢] ويدلّ على ذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[٣] حيث فرّع اليقين على العبادة، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[٤] فربط وصف الإيمان بمشاهدة الملكوت. وقال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ

---

١. *نهج البلاغة*، الخطبة ٢٢٠.

٢. العنكبوت: ٦٩.

٣. الحجر: ٩٩.

٤. الأنعام: ٧٥.

﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾[١] وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾[٢].

يرى القرآن أنّ طريق التجربة الناجحة والصحيحة والدينيّة الإلهيّة، هو طريق معرفة النفس، لذا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٣].

يقول العلاّمة الطباطبائيّ رحمه الله في ذيل هذه الآية:

«فالآية تقدّر للإنسان طريقًا يسلكه ومقصدًا يقصده، غير أنّه ربمّا لزم الطريق فاهتدى إليه أو فسق عنه فضلّ، وليس هناك مقصد يقصده القاصد إلا الحياة السعيدة، والعاقبة الحسنى بلا ريب، لكنّها مع ذلك تنطق بأنّ الله سبحانه، هو المرجع الذي يرجع إليه الجميع، المهتدي والضالّ... وإن كانت تلك الطرق مختلفة في إيصال الإنسان إلى البغية والفوز والفلاح، أو ضربه بالخيبة والخسران، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾»[٦].

وبالجملة، فالآية تقدّر للمؤمنين وغيرهم طريقين اثنين ينتهيان إلى الله سبحانه، وتأمر المؤمنين بأن يشتغلوا بأنفسهم وينصرفوا عن غيرهم وهم أهل الضلال من الناس، ولا يقعوا فيهم ولا يخافوا ضلالهم فإنمّا حسابهم على ربّهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٧].

---

١. التكاثر: ٥-٧.
٢. المطفّفين: ١٨-٢١. الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن*، ج٥، ص٢٧٦.
٣. المائدة: ١٠٥.
٤. الانشقاق: ٦.
٥. المجادلة: ٢٢.
٦. إبراهيم: ٢٨.
٧. البقرة: ١٣٤.

فعلى المؤمن أن يشتغل بما يهمّ نفسه من سلوك سبيل الهدى، ولا يهزّه ما يشاهده من ضلال الناس، وشيوع المعاصي بينهم، ولا يشغله ذلك ولا يشتغل بهم، فالحقّ حقّ وإن تُرك، والباطل باطل وإن أُخذ به، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

ثمّ أمر المؤمنين في قوله: «**عليكم أنفسكم**» بلزوم أنفسهم كان فيه دلالة على أنّ نفس المؤمن هو الطريق الذي يؤمر بسلوكه ولزومه، فإنّ الحثّ على الطريق إنّما يلائم الحثّ على لزومه، والتحذير من تركه لا على لزوم سالك الطريق كما نشاهده في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[٢].

فأمره تعالى، المؤمنين بلزوم أنفسهم في مقام الحثّ على التحفّظ على طريق هدايتهم، يفيد أنّ الطريق الذي يجب عليهم سلوكه ولزومه هو أنفسهم، فنفس المؤمن هو طريقه الذي يسلكه إلى ربّه، وهو طريق هداه، وهو المنتهى به إلى سعادته. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٣].

فالآيات تأمر بأن تنظر النفس وتراقب صالح عملها الذي هو زادها غدًا، وخير الزاد التقوى. فللنفس يوم وغد وهي في سير وحركة على مسافة، والغاية هو الله سبحانه، وعنده حسن الثواب وهو الجنّة، فعليها أن تدوم على ذكر ربّها ولا تنساه، فإنّه سبحانه، هو الغاية، ونسيان الغاية يستعقب نسيان الطريق، فمن نسي ربّه نسي نفسه، ولم يعد لغده ومستقبل مسيره زادًا يتزوّد به ويعيش باستعماله وهو الهلاك، وهذا معنى ما رواه الفريقان عن النبيّ ﷺ: «**من عرف نفسه فقد عرف ربّه**».

إنّ الإنسان في مسيرة حياته إلى أيّ غاية امتدّت لا همّ له في الحقيقة إلّا خير نفسه وسعادة حياته، وإن اشتغل في ظاهر الأمر ببعض ما يعود نفعه إلى غيره: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[٤].

---

١. المائدة: ١٠٠.
٢. الأنعام: ١٥٣.
٣. الحشر: ١٩.
٤. الإسراء: ٧.

وليس هناك إلّا هذا الإنسان الذي يتطوّر طورًا بعد طور، ويركب طبقًا عن طبق من جنين وصبيّ وشابّ وكهل وشيخ ثمّ الذي يديم الحياة في البرزخ، ثمّ يوم القيامة ثمّ ما بعده من جنّة أو نار، فهذه هي المسافة التي يقطعها الإنسان من موقفه في أوّل تكوّنه إلى أن ينتهي إلى ربّه، قال تعالى: ﴿أَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[١]. والأعمال التي تربيّ النفس الإنسانيّة تربية مناسبة لسنخها، وإذا كان العمل ملائمًا لواقع الأمر، مناسبًا لغاية الصنع والإيجاد، كانت النفس مستكملة بها سعيدة في جدّها غير خائبة في سعيها ولا خاسرة في صفقتها.

وقد جعل الله سبحانه، غاية الإنسان وما ينتهي إليه أمره ويستقرّ عليه عاقبته من حيث السعادة والشقاوة والفلاح والخيبة، مبنيّة على أحوال وأخلاق نفسانيّة مبنيّة على أعمال من الإنسان، تنقسم تلك الأعمال إلى صالحة وطالحة، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[٢].

والآيات في بيانها لا تتعدّى طور النفس بمعنى أنّها تعتبر النفس هي المخلوقة المسوّاة وهي التي أُضيف إليها الفجور والتقوى، وهي التي تزكّى وتدسّى، وهي التي يفلح فيها الإنسان ويخيب، وهذا كما عرفت جرى على مقتضى التكوين. ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[٣].

فيكون المراد بقوله: «عليكم أنفسكم» هو إصلاح المؤمنين مجتمعهم الإسلاميّ باتّخاذ صفة الاهتداء بالهداية الإلهيّة بأن يحتفظوا على معارفهم الدينيّة، والأعمال الصالحة، والشعائر الإسلاميّة العامّة، ويكون قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ يراد به أنّهم في أمن من أضرار المجتمعات الضالّة غير الإسلاميّة[٤]...

إنّ معرفة النفس تعدّ بمثابة مفتاح التجربة الدينيّة، والسابق في هذا المضمار

---

١. النجم: ٤٢.

٢. الشمس: ٧-١٠.

٣. الأنعام: ١٢٢.

٤. الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن*، ج٦، ص١٧٠. بتصرّف.

هو المصطبغ بالصبغة الإلهيّة وله معرفة جيّدة للنفس، كما ورد في الحديث: «**أعرفكم بنفسه أعرفكم بربّه**»، ومن البديهيّ أنّ هكذا شخص يكون أقرب إلى الله وأكثر تنعّمًا بنعمه.

والطريق الوحيد المطمئن للتجربة الدينيّة، هو الذي أناره القرآن، وأورد خلاصة النبوّة في نفسه، كما ورد عن رسول اللهﷺ: «**من ختم القرآن فكأنّما أدرجت النبوّة بين جنبيه ولكنّه لا يوحى إليه**»[١].

نموذج من التجربة الدينيّة في القرآن

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[٢].

لقد اصطفّ في غزوة بدر جيشان غير متكافئين، ولأجل تغيير المعركة لصالح الإسلام، أرى الله تعالى، لنبيّه تجربة ومشهدًا في المنام، بأنّ عددًا قليلًا من الأعداء قد هجموا على المسلمين، ولما أبلغ النبيّﷺ المسلمين بذلك استعدّ الجميع للقتال؛ لأنّ الوقوف على عدد جيش العدوّ كمًّا وكيفًا يؤثّر في الحالة النفسيّة وينهي النزاع [بين المسلمين]. ومن جهة أُخرى، فإنّ النبيّﷺ معصوم، ولا سبيل للشيطان على عقله وحدود وجوده، فما رآه من قلّة العدوّ كان حقًّا، والله تعالى، قادر على تقليل الكثير وبالعكس.

ومن جهة ثالثة، فإنّ الكفّار لم تكن لهم غاية سوى الدنيا، وكانوا يطلبون متاعها الذي وصفه القرآن بالقلّة: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[٣] فرأس مالهم كلّه متاع قليل، وكلّ شخص يُوزن طبقًا للأهداف التي يرسمها لوجوده، وهذه الحقيقة انكشفت للنبيّﷺ على نحو رؤيا صادقة.

ومن جهة رابعة، فقد حصلت هذه التجربة للمسلمين حيث رأوا الكافرين قلّة «في أعينكم قليلًا» لذا عندما خاضوا المعركة معهم تحمّلوا الصعاب [وتجلّدوا] بحيث

---

١. الكليني، *الكافي*، ج ٢، ص٦٠٤.
٢. الأنفال: ٤٣-٤٤.
٣. النساء: ٧٧.

ضاقت المعركة على الكافرين وانهزموا، فهذه تجربة دينيّة نالها المقاتلون الأقوياء بفضل الوحي والنبوّة، حيث رأوا بأعينهم ضحالة باطن العدوّ وأهدافه، أي إنّ رؤيا النبيّ الصادقة ظهرت جليّة أمام أعين الناس.

ومن جهة خامسة، إنّ الأمر الإلهيّ ومطلوبه لأجل نصرة الدين: «**ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا**» سبّب تقليل المسلمين في أعين الكافرين أيضًا: «**ويقلّلكم في أعينهم**» لذا خاضوا الحرب ببسالة، حتّى أنّ أبا جهل قال: «**ما هم إلّا أكلة رأس، ولو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذًا باليد**»[١].

تجربة المشركين هذه كانت تجربة سلبيّة وضدّ الدين، فإنّهم إمّا أن كانوا معتقدين بدينهم الخاصّ، وينابذون عنه ويدافعون، بحيث عرفوا ربّهم بشكل آخر، كما ورد في الحديث أنّ الله «**معروف عند كلّ جاهل**»[٢]، وإمّا أنّ المشركين لا سبيل لهم إلى الهداية بعدما لم تنجح فيهم مساعي النبيّ ﷺ خلال عدّة سنوات ﴿**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**﴾[٣]. وعليه، فكانت تجربتهم في عدم رؤية الواقع ورؤية قلّة المسلمين، تجربة سيّئة.

وليعلم أنّ حمل أصل هذه الحادثة على التجربة الدينيّة، منوط بعدم إرادة المعنى الظاهريّ من الآية الذي هو بمعنى الرؤية الحسّيّة عند التقاء الجيشين، وإلّا سوف يخرج الكلام عن مباحث التجربة الدينيّة التي تعني الإحساس الداخليّ والمعرفة النفسيّة.

سؤال: إنّ جملة «**يقلّلكم في أعينهم**» تدلّ على أنّ تجربة المشركين كانت في رؤية المسلمين قلّة، لذا جعلوهم يساوون أكلة وإنّ عبيدهم سوف يأسرونهم من دون استعمال السلاح، ومن جهة أخرى ورد في القرآن وفي آية أُخرى أنّ المشركين رأوا المسلمين ضِعفًا في غزوة بدر: ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ**﴾[٤].

---

١. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٢، ص١٢٨.
٢. الكليني، *الكافي*، ج ١، ص٩١.
٣. الأنعام: ٢٥؛ الإسراء: ٤٦.
٤. آل عمران: ١٣.

وكما هو واضح، يظهر التناقض بين آيات القرآن النازلة حول غزوة بدر الواردة بعضها في سورة آل عمران وبعضها الآخر في سورة الأنفال.

الجواب: قال العلّامة الطباطبائيّ في جواب هذا الإشكال:

«لا يبعد أن يكون قد قلّل فيها المؤمنين في أعين المشركين ليجترئوا عليهم ولا يتولّوا عن المقارعة، ثمّ كثّرهم في أعينهم بعد التلاقي والاختلاط لينهزموا بذلك... فمحصّل معنى الآية أنّكم أيّها المشركون لو كنتم من أولي الأبصار والبصائر لكفاكم في الاعتبار والدلالة على أنّ الغلبة للحقّ، وأنّ الله يؤيّد بنصره من يشاء ولا يغلب بمال ولا ولد ما رأيتموه يوم بدر، فقد كان المؤمنون مقاتلين في سبيل الله سبحانه، وقد كانوا فئة قليلة، مستذلّين لا يبلغون ثلث الفئة الكافرة، ولا يقاسون بهم قوّة، كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ليس لهم إلّا ستّة أدرع وثمانية سيوف وفرسان، وكان جيش المشركين قريبًا من ألف مقاتل من العدّة والقوّة والخيل والجمال والهيئة ما لا يقدّر بقدر، فنصر الله المؤمنين على قلّتهم وذلّتهم على أعدائه، وكثّرهم في أعينهم، فكانوا يرونهم مثليهم رأي العين، وأيّدهم بالملائكة، فلم ينفع المشركين ما كانوا يتعزّزون به من أموال وأولاد، ولم يغنهم جمعهم ولا كثرتهم وقوّتهم من الله شيئًا»[1].

وهكذا تحقّقت تجربة النبيّ الدينيّة، وانتصر الدين: ﴿**لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾[2].

---

١. الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن*، ج٣، ص١٠٧.

٢. الأنفال: ٤٤.

الفصل الثالث

أثر الوحي

الوحي مبدع العقلانيّة

مع دخول الوحي إلى الثقافة الإنسانيّة، تحرّرت البشريّة من الانحطاط والسقوط، وانفرجت لها أبواب التعالي، وتفتّحت العقول، وبدأت فترة نموّ التعقّل، وازدهرت العقلانيّة، بحيث بشّرت الإنسان بمقام أعلى من الملائكة، والارتقاء إلى قمّة العلم، وأفضل من كلّ هذا بلوغ البشريّة إلى مرتبة أعلى من العقل ونتائج العقلاء، وما هو أفضل من مقام الملائكة.

وهنا، لا بدّ من التنويه إلى أنّ اضطراب أيّ مبنى فكريّ وعدم اتّساقه، يعني حدوث أزمة في تلك المنظومة المعرفيّة، وعليه فأيّ تحوّل فكريّ وإيقاف أيّ منظومة علميّة، والاتّجاه إلى ثقافة أخرى، مع خفض ورفع المنظومة المعرفيّة لأيّ مجتمع، ينبئ عن أزمة العقلانيّة.

إسناد أزمة الهويّة إلى الوحي

ربمّا يتصوّر ويقال أنّ النبيّﷺ سبّب أزمة الهويّة لقومه لا أزمة العقلانيّة، نعم إنّ كونه لم يأتِ بأزمة عقلانيّة لقومه، لم يكن بمعنى عدم إتيانه بشيء جديد، ولم يقل بشيء يخالف معتقداتهم؛ لأنّهﷺ تكلّم بأمور كثيرة تخالف رؤى العرب ومعتقداتهم، فعندما يقول بأنيّ جئت بمعجزة، لم يقم أحد من العرب أمامه ليقول بأنّ أصل المعجزة شيء غير معقول، بل إنّ ما نسبته الأعراب إلى النبيّﷺ هو الاتّهام بالكذب والجنون لا عدم معقوليّة أصل الإعجاز: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾[1] أي حينما يسمعون الذكر (الوحي الإلهيّ) يريدون أن يزلقوك بأعينهم وينسبوا إليك الجنون، والحال أنّ كلامك منزل من قبل الله.

---

١. القلم: ٥١.

لذا، عندما قالوا بأنّ النبيّﷺ مجنون، فإنّ هذه الكلمة كانت مستقاة من ثقافة العرب الأسطوريّة وعقلانيّتهم. والنبيّ لم يعارض هكذا عقلانيّة وهكذا مفاهيم، بل كان كلامه منضويًا داخل هذه العقلانيّة [المفاهيميّة] وحتّى أنّ النبيّﷺ حينما كان يتكلّم عن الله الواحد، فلم ينكر العرب أصل مفهوم الله ولم يسخروا به، بل كان اعتراضهم على نفي تعدّد الآلهة: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا...﴾[١].

لم يكن كلامهم أنّ أصل مفهوم «الله» مفهوم غير عقلائيّ ولا يمكن تصديقه ويخالف الوجدان والعقل السليم، إنّهم كانوا يعتقدون بالجنّ والكهانة والله والسحر والفأل والزجر والطيرة والسعد والنحوس و...، فهذه الأمور كلّها كانت منطوية في منظومتهم الكونيّة وفي عقلانيّـهم، كما أنّ النبيّﷺ لم يقم ثورة على مبانيهم المفهوميّة، بل كانت تصديقات النبيّ تخالف تصديقات العرب آنذاك دون تصوّراته. ونعني بالتصوّرات مفاهيم المَلَك والله والغيب والمعجزة والسحر.

إنّ النبيّ لم يأت بمدرسة فلسفيّة كالمدرسة الفلسفيّة اليونانيّة بحيث لا يفهمها العرب رأسًا، كما أنّه لم يأت بمدرسة تجريبيّة علميّة تتحدّث عن القوّة والطاقة والذرّة ونحوها، وتبني عليها قوانين، فإنّه لو كان صانعًا هكذا، لسبّب ذلك أزمة في عقلانيّة الأعراب. بل كان عمل النبيّﷺ بيان المعارف في بطن العقلانيّة العربيّة العامّة أوّلاً، وثانيًا قد استفاد من خطاب الأعراب نفسه، واستخدم مفاهيم معروفة لديهم في حياتهم ورائجة، واستعان بها لبيان المعارف المتعالية والجديدة لهم. وبشكل عامّ، توجد ثلاثة مفاهيم مع ثلاثة خطابات في بطن المعارف الإسلاميّة القرآنيّة: خطاب الرواحل، وخطاب التجّار، وخطاب السلطان. وقد استخدم النبيّﷺ في خطاب القوافل مفاهيم تتعلّق بالحياة، الحاوية لأدبيّات الرحلة [والقافلة] من قبيل: السبيل، الصراط، الهداية، الضلال، التيه، الزاد، المستقيم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾[٢] و﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٣].

---

١. ص: ٥.
٢. الأنعام: ١٥٣.
٣. الفاتحة: ٦.

وفي خطاب التجّار، استفاد بمفاهيم من قبيل القرض: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾[١] أي دعوة إلى الترابي مع الله وترك الربا مع البشر، فلو أقرضتم شخصًا استرجعوه بنفس المقدار لا بالأكثر: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[٢] فالخسران وعدم الربح مفاهيم تجاريّة ذُكرت في القرآن، من قبيل: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[٣] و﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾[٤].

والخطاب الثالث، يستعمل أدبيّات السلطان؛ أي القوّة والحكومة، من قبيل: مفاهيم العبد، والمولى والوليّ والعزّة والقوّة والولاية والمُلك والمملوك والطاعة والمعصية والجزاء والعذاب. ولعلّ هكذا مفاهيم أكثر استعمالاً في القرآن من الخطابين السابقين، كما أنّ القرآن قد هدّد العصاة بالعقاب مرارًا، ووعد الثواب للمطيعين مرارًا، بيد أنّ صفة الأنبياء هي المبشّر والمنذر، والقرآن يذكر الله بصفة الملِك: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾[٥] كما توجد في القرآن موارد كثيرة تنطلق من منطلق القوّة ولها سمة السلطة والغلبة، من قبيل:

١. أخذ الكفّار وإلقاؤهم في النار: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾[٦].

٢. التاريخ بيد الله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾[٧].

٣. مفهوم العبوديّة والولاية التي تبيّن نسبة الإنسان مع الله.

نعم، فهذه الخطابات الثلاثة كانت معلومة لدى الأعراب تمامًا ومعروفة، ويتقبّلوها بكلّ أريحيّة، فالأدوات المفهوميّة التي استخدمها النبيّ ﷺ هي نفسها التي كانت مستعملة لدى الأعراب، فاستخدمها النبيّ كموادّ أوّليّة لمقاصده، أي إنّ الطابوق واللبنة هي نفسها التي استخدمها النبيّ غير أنّه بنى بها بناء آخر.

---

١. البقرة: ٢٤٥.
٢. البقرة: ٢٧٩.
٣. العصر: ١-٢.
٤. البقرة: ١٦.
٥. الحشر: ٢٣.
٦. القمر: ٤٢.
٧. القصص: ٥.

فهنا، حدثت أزمة الهويّة بدل أزمة العقلانيّة، حيث رأى الأعراب أنفسهم أمام هويّة جديدة، وأحسّوا بذوبان الهويّة السابقة، وواجهوا من كان يريد أن يسلبهم كيانهم ويقول لهم:

«إنّكم لستم على شيء ولا وجودكم، فالنبيّ أبان للأعراب بشدّة تامّة ومن دون مجاملات وخجل، خواءهم من الهويّة».

إنّ العبائر المستخدمة للكافرين في القرآن، فيها تحقير وشدّة، من قبيل: إنّ المشركين شرّ البريّة أو أتعس أنواع البشر أو كالأنعام بل أضلّ: ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1] أو عندما يسألون النبيّ هل هم يحيون يوم القيامة مرّة ثانية، كان يجيبهم: نعم وفي غاية الذلّة والمهانة وتحشرون إلى النّار: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾[2].

وعليه، فإنّ الحضارة الإسلاميّة لم تنجح، إلّا بالابتناء على عقلانيّة مستقلّة غير نقليّة ومن دون ولاية، وعلاج ضعف هذه الحضارة يعتمد على عقلانيّة مستقلّة عن الدين حصرًا ولا يوجد في كلام النبيّ ما يخالف هذا الأمر.

هذه خلاصة أفكار بعض المعاصرين وتصوّراتهم، حيث يتلخّص كلامهم في الآتي:

١. لم يأت النبيّ ﷺ بمدرسة فلسفيّة أو علميّة تجريبيّة، فلو كان كذلك لأحدث أزمة في العقلانيّة العربيّة.

٢. إنّه استفاد من خطاب الأعراب نفسه، واستعمل مفاهيم معلومة لديهم ورائجة بينهم، وبالاستعانة بها روّج لمعارفه المتعالية والجديدة بينهم ونقلها لهم.

٣. توجد بشكل عامّ ثلاثة مفاهيم وخطابات في بطن المعارف الإسلاميّة والقرآنيّة: المفهوم أو خطاب الرواحل، المفهوم أو خطاب التجّار، المفهوم أو خطاب السلطان. وكانت هذه الثلاثة معروفة لدى الأعراب تمامًا، وقد استخدمها النبيّ كموادّ أوّليّة لمقاصده وبنى بها بناءً جديدًا، لذا وُلدت لديهم أزمة الهويّة بدل أزمة العقلانيّة، بحيث واجه الأعراب هويّة جديدة.

---

١. الفرقان: ٤٤.

٢. الصافات: ١٨.

٤. إنّ الحضارة الإسلاميّة لا تنهض إلّا بحقن عقلانيّة مستقلّة غير نقليّة وغير ولائيّة.

الإجابة على نظريّة أزمة الهويّة

وهنا، لا بدّ من التنويه على عدّة أمور أساسيّة كي تتّضح الإجابة على ما ذُكر:

أوّلًا: إذا تمّ التدبر والتأمّل الكافي في القرآن والإسلام، وارتفعت أقفال القلوب ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١] وانفتحت أبواب القلوب ومنافذه، ستشعّ أنوار عقلانيّة القرآن على قلب الإنسان، وسيعلم أنّ القرآن ينمّي في الوهلة الأولى عقلانيّة الناس، ويجعل التدبّر والتعقّل أعلى القيم، وهذا ما صرّح به القرآن في موارد مختلفة.

فالقرآن عندما يصل الكلام إلى التعمّق والتدبّر، يخاطب أصحاب العقول النيّرة بكلمات من قبيل: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٢] و﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[٣] و﴿يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[٤] حيث يدعو إلى التعقّل، ويشير بوضوح أيضًا إلى أنّ شرّ الدوابّ من لا يتعقّل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٥] وأنّ الرجس لمن لا يعقل: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٦] بل قد نزل القرآن بالأساس بلسان عربيّ كي تزدهر عقلانيّة الناس سيّما العرب: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٧].

كما أنّ بيان الآيات وشرحها وتفسيرها جاء لأجل تدبّر المجتمع وتعقّله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٨] وعليه، فالقرآن الذي يُعدّ جميعه برنامجًا لحضارة الإنسان

---

١. محمّد: ٢٤.
٢. البقرة: ٢٦٩؛ آل عمران: ٧.
٣. آل عمران: ١٣؛ النور: ٤٤.
٤. الحشر: ٢.
٥. الأنفال: ٢٢.
٦. يونس: ١٠٠.
٧. يوسف: ٢.
٨. النور: ٦١.

وثقافته الأصيلة، يذكّر بالعقلانيّة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١] لذا، يتوقّع القرآن من عالم الإنسانيّة، الارتقاء والتعالي نحو عالم العقل والعقلانيّة والتعقّل: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢].

ومن جهة أخرى، فإنّ سقوط الإنسان وشقاءه، ينتج من عدم التعقّل وعدم الاهتداء بنتائج العقل والوحي ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[٣] «**أصل الإنسان لبّه**»[٤].

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«هبط جبرئيل على آدم عليه السلام فقال: يا آدم أنيّ أُمرت أن أُخبرك واحدة من ثلاث، فاختر واحدة ودع اثنين، فقال له آدم: وما الثلاث يا جبرئيل؟ فقال: العقل والحياء والدين، قال آدم: فأنيّ قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه. فقال له: يا جبرئيل إنّا أُمرنا أن نكون مع العقل حيثما كان. قال: فشأنكما وعرج»[٥].

ثمّ إنّ قيمة أعمال الإنسان وعباداته إنمّا هي بمقدار عقله. قال سليمان: قلت لأبي عبد الله عليه السلام:

«فلان من عبادته ودينه وفضله كذا وكذا، قال عليه السلام: كيف عقله؟ قلت: لا أدري، فقال: إنّ الثواب على قدر العقل»[٦].

ثانيًا: لقد أسّس رسول الله صلى الله عليه وآله ثقافة، وبنى على تلك الأسس الأصيلة بناء مستحكمًا، ظهر من بطنه مدرسة فلسفيّة عميقة، ومدرسة علميّة تجريبيّة، كما نرى ذلك اليوم وقد اعترف مؤرّخو الغرب بأنّ المسلمين سبقوا الجميع في ميادين العلم والصناعة والثقافة

١. الزمر: ٢١.
٢. الحديد: ١٧.
٣. الملك: ١٠.
٤. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١، ص ٨٢.
٥. المصدر السابق، ص٨٦.
٦. المصدر السابق، ص٨٤.

والعقلانيّة والتعقّل سيّما في المعارف الميتافيزيقيّة.

وقد تمّ استنباط مدرسة النبيّ ﷺ الكلاميّة والفلسفيّة من أعماق هذه الآيات:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١] و﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٢] وقد ساق القرآن الكلام أمام الأهواء الواهية ونسيج الخيال والأماني، حيث قال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣].

وبناء على هذا، فقد خاض النبيّ ﷺ بالمباحث العقليّة مرارًا مع مختلف الطوائف، فقد احتجّ احتجاجًا عقليًّا مع بعض اليهود حول عزير وأنّه لا يمكن أن يكون ابنًا لله، ومع النصارى في أنّ الله الواجب القديم لا يمكن أن يتّحد مع المسيح الممكن والحادث، ومع الدهريّة حول زعمهم بعدم وجود بداية للعالم وعدم وجود موادّ أصيلة وعدم حدوث العالم وأنّه كان وسيكون كما هو عليه الآن، ومع الثنويّة الذين نسبوا الخير إلى مبدأ والشرّ إلى مبدأ آخر.

كما كان ﷺ ينبّه تارة إلى بعض المبادئ التصديقيّة، من قبيل: امتناع التناقض واستحالة جمع الضدّين وغيرهما، ويقول: «**أفلستم قد وجدتم سوادًا وبياضًا وحمرة وصفرة وخضرة وزرقة، وكلّ واحدة ضدّ لسائرها، لاستحالة اجتماع مثلين منها في محلّ واحد**»[٤] فكانوا يذهلون بذلك، بحيث يتبيّن لهم أنّ الأمر المقبول إمّا أن يكون بيّنًا وبديهيًّا أو مبيّنًا ونظريًّا ينتهي إلى البديهيّ.

وقد كان يحاجج مشركي العرب مرارًا وتكرارًا، ويفحمهم بأدلّته المختلفة، فتارة يقول بخصوص عبادتهم الأصنام التي صنعوها بأيديهم: «**فلأن تعبدكم هي لو كان يجوز منها العبادة، أحرى من أن تعبدوها**»؛ وذلك لأنّهم أعلم وأقدر وأكثر حكمة من الأصنام.

---

١. العنكبوت: ٤٦.

٢. النحل: ١٢٥.

٣. البقرة: ١١١.

٤. الطبرسي، *الاحتجاج*، ج١، ص٣١.

ثمّ إنّ مناظرات النبيّ ﷺ وأئمة الدين عليهم السلام سيّما كلمات الإمام الصادق عليه السلام والإمام الرضا عليه السلام الثمينة، حول إثبات أصل وجود الله، والتوحيد والنبوّة والمعاد والقرآن وغيرها، من الكثرة بمثابة أن لو استخرجت من الكتب والنصوص الدينيّة، كنهج البلاغة وأصول الكافي وتوحيد الصدوق، لعلمنا أنّ النبيّ ﷺ لم يأت بمدرسة كلاميّة وفلسفيّة عميقة فحسب، بل وُلدت منه مدارس تجريبيّة وأخلاقيّة وفلكيّة جديدة أيضًا.

نعم، لا بدّ من الالتفات إلى هذه النقاط الثلاثة: ١) يُعدّ العقل من أدلّة الدين ويقابل النقل ولم يكن في قبال الشرع. ٢) المبادئ العقليّة التي تُعدّ بمثابة شرح النصّ النقليّ، وأتت لمساعدته وسبّبت ازدهار النصّ، عدّت ضمن نطاق الدين. ٣) النصّ القرآنيّ قد يبيّن بالرواية وقد يبيّن بالدراية.

ثالثًا: ليس من اللائق التقسيم العامّ [المذكور] لآيات القرآن ضمن ثلاثة خطابات: خطاب التجّار والرواحل والسلطان، وهو بعيد عن التعمّق بمسافات؛ لوجود تقسيمات كثيرة أُخرى في جميع القرآن، من قبيل: الآيات الفلكيّة، والطبّيّة، والخُلُقيّة، والنفسيّة، والتقنيّة، والسياحيّة، وخلقة الإنسان وسائر المخلوقات في الكرة الأرضيّة والفضاء، وكذلك الصنائع والاحتجاجات الكلاميّة والفلسفيّة، وآيات الأحكام الكثيرة وغيرها.

إنّ القرآن تبيان لكلّ شيء: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1] وإن كان استنباطها التفصيليّ، واستخراجها على نطاق واسع، يتيسّر لأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، فكيف إذن يُقتصر على تصنيف الآيات ضمن ثلاثة تقسيمات بحسب ما يحلو لهم؟!

وهنا لا بدّ من التنويه إلى عدّة نقاط ضروريّة:

١. إنّ جميع العلوم والمعارف التي تؤثّر في رفاهيّة العيش، والبلوغ إلى مقام الإنسان الرفيع، يمكن توقّعها من الدين.

٢. بما أنّ الإنسان يتوقّع تلك الأمور من الدين، فلا محالة من وجود تعاليم حولها في الدين.

---

١. النحل: ٨٩.

٣. إنّ دلالة الدين تارة تكون بالعقل المحض، وتارة بالنقل الصرف، وتارة أخرى تكون تلفيقًا بين العقل والنقل.

٤. لم يكن معنى التبيان لكلّ شيء، أن يكون النصّ القرآنيّ وحده مبيّنًا لجميع أحكام الدين بشكل جليّ، بل بمساعدة العقل والنقل، كما أنّ تتميمها بالرواية النقليّة أو الدراية العقليّة، لم يكن منافيًا لبيانيّة القرآن [لكلّ شيء].

مضافًا إلى هذا، إنّ القرآن الذي كان سببًا لازدهار الثقافة والفكر والعقل، وبيّن حقائق ومعارف، بحيث لم يعجز العقلاء والمثقّفون عن إدراكها والوصول إليها فحسب ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[1] بل إنّ النبيّ ﷺ نفسه لم يتمكّن أيضًا من إدراكها والوصول إليها لولا الوحي: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ[2]﴾ وبناء على هذا، توجد في الكون حقائق تفوق حتّى عقلانيّة النبيّ ﷺ، والوصول إليها لا يتحصّل إلّا جرّاء استحداث أزمة في العقلانيّة وازدهارها.

رابعًا: هذه الخطابات الثلاثة وغيرها من تقسيم الآيات، لها جانب المعلوليّة وتعدّ البناء الفوقيّ، إذ توجد مجموعة آيات أُخرى تعدّ في عداد العلل والأهداف، يقصد القرآن من بيانها الارتقاء بروح الإنسان إلى الحقائق والقيم الرفيعة بحيث ربّما يعجز العقل عن الوصول إليها.

بيان ذلك: للإنسان حياة نباتيّة تكون منشأ الطعام ونموّ الجسم، وتتجلّى الحياة النباتيّة في الشباب بوضوح بحيث تؤثّر كلّ يوم في نموّهم، كما استفادت من هذه الحياة، الأشجار والمزارع والغابات والرياحين فائدة كبرى.

والحياة الأخرى للإنسان هي الحياة الحيوانيّة، حيث ينمو في ظلّها القوى الإدراكيّة وتتكامل وتترقّى إلى مراتب عليا من الشعور والإدراك، كما نرى آثار الحياة الحيوانيّة تتجلّى في الحيوانات من الدود الصغير إلى أذكى الحيوانات.

الحياة الثالثة للإنسان هي الحياة المعقولة، وهي مختصّة بالإنسان بحيث ترتقي

---

١. البقرة: ١٥١.

٢. النساء: ١١٣.

به إلى العلوّ، وربمّا أعلى من حياة الملائكة، يقول القرآن بخصوص هذه الحياة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[١].

هذه الآية تنبئ عن حياة جديدة وعقلانيّة عليا، تمتزج بالعزم الجديد والفكر الجديد، تريد أن يتجذّر هذا الشيء الجديد داخل الإنسان، ليعلم أنّ قيمته ولذّته أعلى من الاتّكاء على الحرير والجلوس عليه، وحينئذٍ لا يستبدل الإنسان ذكر هذه الحياة بأيّ شيء آخر: «**من ذا الذي ذاق حلاوة محبّتك فرام منك بدلًا**»[٢] إنّه يلتذّ بالمناجاة وينال لقاء الله، لذا قد فسّر المفسّرون هذه الحياة، تبعًا للروايات، بالجنّة والولاية والعدالة[٣].

هذه الحياة الجديدة، بشارة الإسلام للإنسان، وقد أنتجت تصوّر هذه الكلمات تصديقات جديدة وعقلانيّة جديدة. وقد أشار صاحب الجواهر إلى بعض هذه الحياة بخصوص الصوم، بحيث يبيّن كيفيّة رفع الإسلام لمقام الإنسان بحيث تخدمه الملائكة، فإنّه يقول بهذا الخصوص:

«قد ورد في الأخبار: ...وتدعو له الملائكة حتّى يفطر، ...وإنّ خلوق فم الصائم عند الله أحبّ من ريح المسك، وإنّ من صام يومًا لله عزّ وجلّ، في شدّة الحرّ فأصابه ظمأ وكّل الله به ألف ملك يمسحون وجهه ويبشّرونه بالجنّة حتّى إذا أفطر. قال الله جلّ جلاله: ما أطيب ريحك وروحك، يا ملائكتي اشهدوا أنيّ قد غفرت له... وإنّ لله ملائكة موكّلين بالصائمين والصائمات يمسحونهم بأجنحتهم، ويسقطون عنهم ذنوبهم... وإنّ من صام يومًا تطوّعًا أو أُعطي ملأ الأرض ذهبًا ما وُفيِ أجره دون يوم الحساب، ...لما في الصوم من ترك الشهوات، والملاذ في الفرج والبطن الموجب لصفاء العقل والفكر بواسطة ضعف القوى الشهويّة وقوّة القوى العقليّة، فيصل بسببها إلى دقائق الحكمة، وإلى كمال المعارف الربّانيّة التي هي أشرف أحوال النفس الإنسانيّة... [وقد قال رسول اللهﷺ في جواب اليهوديّ

---

١. الأنفال: ٢٤.

٢. *مناجاة المحبّين*.

٣. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٢، ص١٤١.

الذي سأله]: ما من مؤمن يصوم لشهر رمضان احتسابًا إلّا أوجب الله تبارك وتعالى، له سبع خصال: أوّلها يذوب الحرام من جسده، والثانية يقرب من رحمة الله عزّ وجلّ، والثالثة يكون قد كفّر خطيئة آدم أبيه، والرابعة يهوّن الله عليه سكرات الموت، والخامسة أمان من الجوع والعطش يوم القيامة، والسادسة يعطيه الله براءة من النار، والسابعة يطعمه الله من طيّبات الجنّة»[١].

خامسًا: إنّ النبيّ ﷺ أحدث أزمة أعلى من العقلانيّة بإذن الله عن طريق القرآن الذي يُعدّ معجزة مخلوقة متكوّنة من ثمانية وعشرين حرفًا عربيًّا ومن خلال الربط بين هذه الحروف، المعجزة التي لا يُنال بعض مفاهيمها إلّا بصعوبة بالغة بعد مرور قرون طويلة، من قبيل مفاهيم ومحتوى: العرش، الكرسيّ، القلم، اللوح المحفوظ، لوح المحو والإثبات، المعراج، القبر، النشر، الجمع، الكتاب المبين، الحساب، الميزان وغيرها، وهذا قد خلق أزمة العقلانيّة بل أعلى من العقلانيّة. ومن البديهيّ أن يعجز كثير من النخب والمثقّفين الأقوياء عن درك معانيه بشكل صحيح، رغم كون الأنبياء جاؤوا ليثيروا للناس كنوزهم المخفيّة: «**ويثيروا لهم دفائن العقول**»[٢].

وبناء على هذا، فقوله تعالى: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[٣] أعطى بشارة الحياة الملكوتيّة، وحدوث أزمة ما فوق عقلانيّة، وأثارت العقول إلى ذلك الاتّجاه، ولذا لا بدّ من تلاوة هذه الآية دائمًا: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**﴾[٤]؛ لأنّه دعانا إلى حضارة تفوق الحضارة المادّيّة المتكوّنة من الذهب والفضّة والعقيق والأحجار الكريمة الثمينة الدنيويّة.

فالانحراف عن هذا الطريق يساوي السقوط والانحطاط والوقوع في وديان الهلاك وبوار جهنّم: ﴿**فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾[٥].

---

١. النجفي الجواهري، *جوهر الكلام في شرح شرائع الإسلام*، ج١٦، صص١٨١-١٨٤.
٢. *نهج البلاغة*، الخطبة: ١.
٣. الأنفال: ٢٤.
٤. الأعراف: ٤٣.
٥. الحجّ: ٣١.

سادسًا: إنّ لمن التوهّم الزعم بازدهار الحضارة الإسلاميّة من خلال بثّ عقلانيّة مستقلّة غير نقليّة وغير ولائيّة، بل إنّ سبب صمود الإسلام طيلة أربعة عشر قرنًا، إنّما التلفيق المبارك بين العقل والنقل والولاية، وهذه الثلاثة كلّها تعدّ أساس الثقافة الإسلاميّة الأصيلة، بمعنى تشكّل الإسلام من هذه الأمور الثلاثة، وإنّ العقلانيّة المستقلّة لا تخالف بتاتًا العقلانيّة النقليّة والولائيّة، بل تعدّ مصباحًا منيرًا وهاديًا للطريق، ووسيلة لحلّ مشاكل الإسلام دائمًا.

وذلك أنّ البرهان العقليّ لا يخالف أبدًا النقل والولاية، فضلاً عن محاربته لهما، وإن قد يختلف معهما، وهذا الاختلاف يعدّ أرضيّة جميلة للعلم وتنوّع الفكر. إنّ ما يخالف التوافق هو المخالفة لا الاختلاف، ولا يكون استقلال البرهان العقليّ بمعنى المباينة مع النقل أبدًا.

وكما ذهب الشيخ المفيدﷺ فإنّ العقل والنقل مفتاحان لقفل واحد، والإسلام قد يستعين بمفتاح العقل، وقد يستعين بمفتاح النقل، وقد يستعين بكليهما[1]. وعليه، فالزعم بوجود عقلانيّتين، زعم ينشأ من التشتّت في النظر وسبب لإثارة الخلاف.

والخلاصة، كما مرّ مرارًا: أنّ العقل يقابل النقل لا الدين، وفي قبال السمع لا الشرع، كما لا يصحّ تقسيم المطالب إلى عقليّ ودينيّ أو عقليّ وشرعيّ، بل إنّ التقسيم الصائب هول القول بأنّ الأمر الفلانيّ عقليّ أو نقليّ، عقليّ أو سمعيّ.

---

١. شيخ مفيد، *أوائل المقالات*، ج٤، ص٤٤.

الفصل الرابع

منكرو الوحي

قد واجه الأنبياء فريقين: ١) فريق بقي على الفطرة الطاهرة الأولى، مع صفاء الضمير، فقبلوا دعوة الأنبياء، ولم يحدثوا لهم مشاكل. ٢) فريق آخر كان أسيراً للشهوات والغضب والجاه والعناد والطغيان، فحاربوا الأنبياء ونقضوا العهود.

إنّ الإنسان إمّا أن يحوز من داخله صفاء الباطن وطهارة القلب وانفتاح العين والأذن، كي يشعّ نور الوحي على قلبه بسهولة، وإمّا أن ينتفع من الوحي والتعاليم الوحيانيّة التي نزلت على البشريّة بواسطة الأنبياء، من خلال الفكر والتعقّل والعقلانيّة، ليكون تلميذًا لمدرستهم: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١] ومن البديهيّ أن يفوز من يمشي في ظلّ جهاد النفس وتقوى الله، كما يقول القرآن: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢] و﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[٣].

وبناء على هذا، فمن ليس له ضمير طاهر ليصل عن طريق تهذيب النفس إلى قلب صاف ونقيّ، ويكون كالعين الفوّارة تنبع المعارف الخالصة منها، ومن لم يكن له عين وأذن سالمان كي يصغي إلى رسل الوحي ويتعقّل، فهؤلاء محرومون من فهم تعاليم الأنبياء: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[٤] لذا، فإنّهم لا يصغون إلى كلام الأنبياء، ولا يبصرون أعمالهم التعليميّة، وليست لهم قلوب تذعن من صميمها بتعاليم الأنبياء.

---

١. آل عمران: ١٠٣.
٢. العكبوت: ٦٩.
٣. الأنفال: ٢٩.
٤. الأعراف: ١٧٩.

فهؤلاء عطاشى لا يصلون إلى ماء الحياة أبدًا، ويسيرون في بيداء الجهل، وقلوبهم في حجاب وآذانهم صمّاء: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[١]. و﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[٢].

نعم، إنّ حجاب الذنوب منعهم من فهم التعاليم الملكوتيّة، ونسج الغرور والكبر والعجب نسيج هذا الستار والحجاب: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾[٣]. وإلّا فلا يوجد بين الله وبين خلقه من جهة، وبين النبيّ والوحي وبين خلق الله من جهة أخرى أيّ ستار وحجاب، كما قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام:

«ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه، احتجب بغير حجاب محجوب، واستتر بغير ستر مستور، لا إله إلّا هو الكبير المتعال»[٤].

إنّ منكري الوحي تعمّدوا عن علم واستكبار في عدم الاستماع إلى كلام الأنبياء وانحرفوا عنه، لذا ثبّت الله قلوبهم على هذا الانحراف ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٥]. كما يقول القرآن بخصوص منكري نبوّة نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾[٦].

جذور إنكار الوحي

إنّ الهدف الرئيس لخلق الجنّ والإنس هو المعرفة والمحبّة وعبادة الله، وهذه لا تحصل إلّا بالوعي. لذا، قد سعى الأنبياء لازدهار مواهب الناس الخفيّة، وإيصالهم عن طريق تعاليم الوحي إلى مقامات رفيعة اختارها الله لهم، غير أنّ منكري الوحي لم يبلغوا تلك

---

١. فصّلت: ٥.
٢. هود: ٩١.
٣. الإسراء: ٤٥.
٤. إبن بابويه قمى، *التوحيد*، ص ١٧٩.
٥. الصفّ: ٥.
٦. الإسراء: ٤٧.

المعرفة النورانيّة وتلك الحقائق، وسلكوا طريق الجهل والضلال والاستكبار. وها هنا سنشير إلى بعض جذور إنكار الوحي:

١. قبول ولاية غير الله

الولاية تنحصر في الله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾[١] ودليل الحصر، مجيء ضمير الفصل وتعريف الخبر بالألف واللام، ومن هاتين الخاصيّتين يستنتج انحصار الولاية لله سبحانه، وجزافًا يتصوّر من يزعم أنّ له ولاية وزعامة وشأنًا ومقامًا في قبال هذه الولاية: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾[٢]. وهؤلاء وليّهم الطاغوت: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾[٣] فقائدهم وصاحب اختيارهم الشيطان، حيث يوسوس لهم وساوس خياليّة وخاوية ليجادلوا أهل الحقّ والولاية الخلّص: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[٤] ويسوقون المجتمع نحو التفسّخ والضلال والتيه.

٢. الجهل والغفلة

إنّ الجهل والغفلة ونسيان الذات، توجب إنكار الوحي، فمن نسي نفسه كيف يمكنه أن يذكر الله، ومن ينسى الله ينسيه الله نفسه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٥].

ومن لم يشاهد الله وهو نور السماوات والأرض: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٦] سيكون جميع الكون مظلمًا أمامه، لذا يزعم الاستقلالية لغير الله، ويرى الفقراء أغنياء، ويتكبّر وينغمس في الشهوات النفسانيّة والحيوانيّة ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾[٧].

---

١. الشورى: ٩.
٢. الشورى: ٩.
٣. البقرة: ٢٥٧.
٤. الأنعام: ١٢١.
٥. الحشر: ١٩.
٦. النور: ٣٥.
٧. آل عمران: ١٥٤.

إنّ منظومة هؤلاء الكونيّة، تنحصر فيها الحقائق والمعارف والقيم العليا في الظواهر الطبيعيّة والماديّة، ويغفلون تمامًا عن الدار الآخرة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[١]. وبما أنّهم لم يروا نور الحياة، زعموا بخلود العالم الطبيعيّ، وانشغلوا بالتكاثر وجمع الأموال، وتفاخروا بالأولاد والقبيلة والجاه والمقام.

وبهذا الصدد، وردت حكاية جميلة ومعبّرة في القرآن، حيث قال رجل لصاحبه: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾[٢].

وما أكثر من يزعم استمرار رزق الدنيا وبريقها فيفتتنون بها ويغفلون عن الآخرة وعن الله، إنّهم قد دفنوا في واقع الأمر تحت أوهامهم وخيالاتهم وخرافاتهم ولا ينجيهم أيّ شيء؛ لأنّهم أغلقوا جميع الأبواب أمامهم وعاشوا كالبهائم الصمّاء والعمياء: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[٣].

نعم، إنّ الاستفادة الخاطئة من القوى الجسميّة والإمكانات الماليّة، أوجبت لهم عدم الانتفاع بأيّ واحد من أدوات المعرفة (العين والأذن والقلب) بل سبّبت عطلها، والأنكى من ذلك أنّ بعضهم استعان بهذه الأدوات للاستهزاء بآيات الله وقيمه العليا، وسوف يلقون غبّه يوم القيامة.

٣. التحجّر والتعصّب

هناك من بدأ بالجدال مع الله والأنبياء ومصابيح الهداية من دون رصيد علميّ ومن دون معرفة كافية ومن دون علم وبصيرة، ومن دون دليل وكتاب هداية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[٤]. فهؤلاء وقعوا في التحجّر والتعصّب، ولم يذهبوا

١. الروم: ٧.
٢. الكهف: ٣٤-٣٥.
٣. الأحقاف: ٢٦.
٤. لقمان: ٢٠.

لتحصيل العلم والهداية، ولا يعلمون ما هو الكتاب والميزان، بل المهمّ عندهم هو الجدال الباطل مع الحقّ والحقيقة.

إنّهم لا يمتلكون مخزونًا عقليًّا كي ينطقوا بالبرهان المنطقيّ، ولا الرصيد النقليّ كي يحتجّوا بالسند المعتبر المأثور، كما لم يمتلكوا عنوان الخلافة والولاية والنبوّة والرسالة كي يتنعّموا بسلطان المعارف وملكة العلوم أي الوحي الإلهيّ، لذا لا يوجد لكلامهم أيّ موقعيّة قابلة للاعتماد.

إنّ الحقّ والحقيقة قد تظهر لهؤلاء، غير أنّهم لا يتركون عادتهم في اللجاج والحجاج: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[١] فإنّهم يصمدون أمام إيضاحات الوحي، ولا يتركون التعصّب والتحجّر.

نعم، إنّ كلامهم ودليلهم باطل ومنهار كلّه كمن يساق إلى الموت والقبر: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾[٢].

إنّ جدالهم لدحض الحقّ لا لطلب الحقّ، إنّ انغماسهم في التعصّب وعدم تركهم للخرافات والأوهام، أدّى بهم، حين يُدعون إلى الحقّ والحقيقة، كأنّما يساقون إلى ساحة الإعدام، ويدنون كلّ لحظة إلى الموت.

٤. الكبر واحتقار الآخرين

إنّ منكري الوحي متكبّرون ويحتقرون الآخرين، سيّما وأنّ أتباع الأنبياء هم الفقراء، الذين يساعدون الأديان الإلهيّة منذ القدم، والقرآن أشار إلى هذا الأمر مرارًا، ونشير إلى بعضها:

ـ ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾[٣].

ـ ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾[٤].

---

١. الشورى: ١٦.

٢. الأنفال: ٦.

٣. الشعراء: ١١١.

٤. هود: ٢٧.

فهذه الآيات تشير إلى أنّ الدفاع عن المستضفين يعدّ من برامج الأنبياء، وهذا ما لا يستسيغه المتكبّرون، لذا يتركون الوحي.

ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[١]. فهؤلاء الذين يجادلون بالباطل يريدون أن يعيشوا متكبّرين، والكبر هذا يمنع الإذعان للحقّ والتسليم أمامه فهؤلاء يرون أنفسهم أعلى من الحقّ ولا يخضعون له، غير أنّهم لا يصلون إلى التعالي أبدًا؛ لأنّ الحقّ كبير ومتعال.

فمن يريد مقاومة الحقّ سيُغلب ويفنى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[٢]. وهكذا يُسلب منه اللطف الإلهيّ ويُطبع على قلبه: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[٣]. والقلب الذي طُبع عليه لا تخرج منه إلا الخرافات والأباطيل، ولا يتحلّى بالأخلاق الحميدة والعقائد الصحيحة، لذا يقول الله تعالى: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾[٤].

وبناء على هذا، فالسبب الوحيد لعصيان المشركين أمام الوحي والجدال معه، هو التكبّر الباطنيّ، وهكذا قلب لا يستطيع أن يكون محلاً لنور القرآن، القرآن الذي هو شفاء للصدور: ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾[٥]؛ لأنّ العلاج والشفاء يتفرّع على الإحساس بالألم من جهة، والأمل بالشفاء من جهة أخرى، والبحث عن العلاج من جهة ثالثة، والتعرّف على الدواء الناجع من جهة رابعة، وطاعة الطبيب في كيفيّة استعمال العلاج من جهة خامسة، كي يحصل الشفاء وتعود العافية.

فالاستكبار والعناد واللدد، يمنع تحقّق جميع هذه المراحل، سيّما يمنع مبدأ جميع هذه المراحل؛ أي الإحساس بالألم، فالمريض الذي لا يعلم بمرضه كيف يحاول علاجه؟ لذا عندما يسمع شفاء الشيء الفلانيّ يراه خرافة وأسطورة.

---

١. غافر: ٥٦.
٢. الأنبياء: ١٨.
٣. غافر: ٣٥.
٤. غافر: ٥٦.
٥. يونس: ٥٧.

ومن هنا، يعلم دليل حصر عناد المشركين في الاستكبار، فإنّه وإن ذُكرت علل أخرى للعصيان، لكن ينبت جميعها وينمو من جذر الطغيان والاستكبار.

٥. جمع الأموال

إنّ جمع الأموال من قبل المستكبرين وأصحاب رؤوس الأموال المنفلتة، يكون دومًا مانعًا كبيراً أمام قبول الوحي والكلام الإلهيّ، كما يقول القرآن في وصف قوم شعيبؑ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[١].

يستفاد من الآية الكريمة: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[٢]. سعيهم لجمع الأموال؛ لأنّهم استحوذوا أموالاً أرادوا صرفها في أهوائهم، وكانت شريعة نبيّ الله شعيبؑ تمنع الإسراف والترفّه الزائد، واستكبار هؤلاء الماليّ يشبه فريقًا آخر من مجمّعي الأموال في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾[٣]. و﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[٤] و﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾[٥].

وليعلم أنّه يستفاد من «في ملّتنا» و«في ملّتكم» في الآية التي افتتح بها البحث، أنّ شعيبًاؑ لم يكن على شاكلة قومه عقديًّا وملّيًّا، وإلّا لقال القرآن: «أو لتعودون إلى ملّتنا» وإن حاولوا احتساب شعيب ضمن ملّتهم في البداية، لذا قالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[٦].

---

١. الأعراف: ٨٨-٨٩.
٢. هود: ٨٧.
٣. الكهف: ٣٤-٣٥.
٤. الهمزة: ٣.
٥. القلم: ١٤.
٦. هود: ٨٧.

إنّ الأنبياء لم يتّبعوا منطق متابعة المال والقوّة، بل إنّهم خالفوا مفهوم السلطة والمال والتزوير، وأعلنوا بكلّ صراحة أنّ أصحاب هذا المنطق أرجاس وأنّ الله يجعل الرجس عليهم: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١]. بمعنى أنّه يسلبهم التوفيق؛ لأنّهم السبب في ذلك. والخلاصة: إنّ الإنسان الكامل يدور مدار الحقّ، ولا يتمكّن التكاثر من انحراف مسير الإنسان المعصوم وتغييره.

دسائس منكري الوحي وحيلهم

١. الاختلاف والفرقة

إنّ الدعوة إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة وتكوين الأمّة الواحدة من نتائج تعاليم الوحي، كما يقول القرآن: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٢].

ولكن قد ثقل هذا الأمر على المشركين، اختاروا الشرك والعصيان بدل التوحيد والتقوى، واتّبعوا أصنام الهوى والخشب والحجر، ولم يريدوا تلبية هذه الدعوة الروحانيّة: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[٣]. لذا، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[٤].

٢. اللغو

إنّ منكري الوحي ما كانوا يصغون إلى آيات الله في مقام العمل، كما كانوا يمنعون الآخرين من الإصغاء إليها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[٥].

إنّهم استعانوا بمنطق اللغو، وحاولوا إلغاء حكم النبيّ ودروسه، وزعموا أنّه أفضل حرب عمليّ أمام الوحي يوصلهم إلى الغلبة: «لعلّكم تغلبون» وكانت غايتهم الوحيدة

---

١. الأنعام: ١٢٥.
٢. الشورى: ١٣.
٣. الشورى: ١٣.
٤. الأنعام: ٩١.
٥. فصّلت: ٢٦.

إطفاء نور الوحي: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[١].

كان أملهم الخاوي إبعاد مشتاقي الوحي عن حريمه، وإبعاد مشتاقي حكم الله عن متابعة الأوامر الإلهيّة، وهم في غفلة من أنّ هذه العوامل لا تتمكّن من طرد عشّاق الوحي.

وكلّما أوقد هؤلاء فتنة الحرب أطفأها الله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾[٢] والحرب وإن كان مصداقه الأتمّ الحرب العسكريّة غير أنّه يشمل الحرب الثقافيّة والسياسيّة وغيرهما من الأمور التي تكون ملاكًا للعنوان الجامع.

٣. الجدال بالباطل

يعدّ الجدال بالباطل سمة أُخرى من سمات منكري الوحي، إنّهم يصدّون عن الحقّ بشبهاتهم الواهية بغية محوه: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[٣].

هذه هي سنّة الله الدائمة حيث يكمن للعاصين: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[٤]. وينزل عليهم غضبه كالبرق: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٥].

والسلطان يُطلق على الدليل والبرهان؛ لأنّ الدليل العقليّ يتسلّط على الخيال والوهم والوساوس، كما يتسلّط على الدعوى من دون برهان، ويلقي بظلاله على جميع المزاعم الواهية. المجادلون في آيات الله، لم يمتلكوا الدليل العقليّ، ولم يستعينوا بالدليل النقليّ والوحي السماويّ، فالعقل لم يؤيّد أعمالهم وكذلك الوحي والنقل المعتبر، لذا بتبعه يغضب المؤمنون عليهم أيضًا: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ومن البديهيّ أنّ الإنسان لو سُلب من حجّة العقل والوحي في حياته الاجتماعيّة والثقافيّة، لم يبق له سوى الطريق الثالث؛ وهو غضب الله، أي إنّ نتيجة الكفر والخدعة

---

١. الصف: ٨.
٢. المائدة: ٦٤.
٣. غافر: ٥.
٤. الفجر: ١٤.
٥. غافر: ٣٥.

هي غضب الله: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾[١].

قال رسول الله ﷺ: «**لُعن المجادلون في دين الله على لسان سبعين نبيًّا، ومن جادل في آيات الله فقد كفر**»[٢].

نعم، من يحيد عن طريق الله المستقيم، لا يخفى على الله ولا على الملائكة والأنبياء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾[٣]. أي من يلحد في آيات الله، ولم يرَ آيات الله التكوينيّة والأنفسيّة والآفاقيّة في الخارج، ولم ينظر الآيات التشريعيّة كي يتعرّف عليها، فإنّه يكون على شفا جرف الهاوية، وسيقع في النار بأدنى زلّة.

إنّ هؤلاء أحرار مطلقًا: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٤]. إنّ الله عليم بجميع أعمالهم، وكلّها تحصى وسيجزون عليها ويلقون غبّ أعمالهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾[٥]. إنّه سينتبه في آخر عمره بفراغ ذات يده، وأنّ ما عمله هباء، لم يصل إلى الهدف ولا طريق له إلى الرجوع، ويبقى ظمآنًا.

٤. الاعتماد على الأسباب الظاهريّة

ومن العلامات الأخرى لمنكري الوحي، الاعتماد على الأمور المادّيّة، والأواصر القبليّة والقوميّة، والصداقات العنصريّة وغيرها من الأمور الاعتباريّة فإنّ تقييمهم للأمور يدور هذا المدار، ويكون للمال والذهب والأمور الماليّة الدور الأوّل، ومن هذا المنظار يتوقّع المنكرون أن يتّبعهم الآخرون؛ لأنّهم يملكون المُلك والملك والذهب والقوّة.

ولذا، كان يقول فرعون: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ

---

١. غافر: ٤.
٢. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٤، ص٥١١.
٣. فصّلت: ٤٠.
٤. فصّلت: ٤٠.
٥. النور: ٣٩.

أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[١].

٥. الاعتماد على العلوم المادّيّة

إنّ العلوم المادّيّة حينما تقع إلى جنب الإلهيّات وعلوم الآخرة، تكون سببًا لتأمين أهداف الإسلام، ولكن لوحظت بشكل مستقلّ، وانفصلت عن علم الدين، وأنكرته، لا تكون سببًا للشقاء، بل يراها القرآن من علامات الاستغناء عن الوحي المسبّب للشقاء: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[٢].

ربّما يركن الإنسان إلى علمه المادّيّ ولا يحسب سواه علمًا، ولكنّ العلم الذي لا يوصله إلى المقصد الحقيقيّ، ولا يسبّب خضوعه أمام عالم الخلقة، لم يكن علمًا نافعًا ولا صادقًا، بل إنّه جهل وحجاب.

٦. الاستهزاء بالقيم

الاستهزاء بالحقّ والحقيقة والقيم العليا وقمع الحقّ، يُعدّ علامة أُخرى من علائم منكري الوحي: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾[٣]. وهم في غفلة من أنّ الباطل لا يغلب الحقّ؛ لأنّ الحقّ مليء والباطل فارغ، كما يقول القرآن: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[٤].

٧. المنع من الخير والإحسان

لم يألُ منكرو الوحي أيّ جهد في صدّ تطوّر الثقافة الدينيّة، بل يسخّرون جميع سعيهم للوقوف أمام ازدهار الثقافة الدينيّة وبسط ظلّها على رؤوس الجميع: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٥]. فلا هم يقبلون الحقّ ولا يدعون غيرهم لتحصيل الفضائل.

---

١. الزخرف: ٥١-٥٣.
٢. غافر: ٨٣.
٣. الكهف: ٥٦.
٤. الأنبياء: ١٨.
٥. الأنعام: ٢٦.

فهكذا أعمال وأفكار تساوي الانتحار في الثقافة القرآنيّة، يتبعه العذاب الأليم الموجع: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾[١].

والخلاصة: أنّ منكر الوحي، يمتنع من قبول حكم الله، كما يمنع الآخرين من قبوله أيضًا، أي إنّه نائي وناهي، وبما أنّ منكر الوحي يلجأ إلى الحسّ ويقول بخرافة الغيب والعقل، لا يمتنع من الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، كما يصف القرآن المنافقين: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾[٢].

منطق منكري الوحي وأفكارهم

١. نبوّة الملائكة

يرى منكرو الوحي أنّ الرسول الإلهيّ لا يكون بشرًا، أو لابد أن يصحبه ملك منذر على أقلّ تقدير: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾[٣]. وهم في غفلة أنّ الرسالة الإلهيّة لم تكن لجسم النبيّ الذي يأكل الطعام ويمشي في الطرقات، بل إنّ روح النبيّ هو الرسول الإلهيّ، وإنّ عينه الملكوتيّة هي التي ترى عالم الغيب، وأنّه يسمع من الغيب ويتلقّى الوحي. إنّهم قالوا: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾[٤]. و ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾[٥]. وكان النبيّ مأمورًا أن يقول لهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾[٦].

سؤال: لماذا يلزم أن يكون الأنبياء من جنس البشر، ولماذا لا تستطيع الملائكة أو لا يمكن أن تكون رسلاً إلى النّاس؟

الجواب: إنّ خلقة الملائكة البيولوجيّة، لا تتناسب وليست لها سنخيّة لتكون رسولاً للإنسان، لذا يقول الله الحكيم في جميع أفعاله وأعماله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي

١. فصّلت: ٢٧.
٢. التوبة: ٦٧.
٣. الفرقان: ٧.
٤. إبراهيم: ١٠.
٥. الشعراء: ١٨٦.
٦. فصّلت: ٦.

﴿إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١].

وقد زعم البعض أنّ النبيّ لا بدّ وأن يكون ملكًا، ولكن قال الله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾[٢]؛ وذلك للزوم وجود السنخيّة بين الإمام والأمّة، فلا بدّ إمّا أن يكون كلاهما ملكًا أو كلاهما من سنخ الآدميّين.

إنّ العرب كانوا يفرّقون بين العرب والعجم ويتكلّمون عن القرآن والقوميّة: ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾[٣]، ولو أُنزل القرآن بغير اللسان العربيّ ما كان يقبله العرب، ولم يتقبّلوا الدين الذي أنزل بغيره: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾[٤] فكيف إذا كان النبيّ ملكًا مغايرًا في الخلقة وغرائزه وصفاته الأخرى مع الإنسان؟

فالملك لا يمكن أن يكون نموذجًا عمليًّا للإنسان، مطّلعًا على حوائجهم الذاتيّة وغرائزهم وصفاتهم، ومجيبًا عليها. ومن هنا، يؤكّد القرآن على أنّ الملك لو كان رسولاً، للزم رعاية السنخيّة وأن يكون رجلاً: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾[٥].

مضافًا إلى أنّ هذه الإشكالات تكون من قبيل التحجّج في الأغلب؛ إذ لم يكن أولئك بصدد رفع الشبهة عن أنفسهم وسماع الإجابة والتأمّل في أطرافها والتفكّر حولها، بل كانت لهم أهداف أُخرى، وأفكار يتداولونها في أنفسهم، وإلّا فمن يبحث عن المنطق والحقيقة، لم ينصرف إلى التحجّج والتعذير بعد رؤية النبيّ وسماع كلامه الوحيانيّ أعمّ من العقائد أو الأخلاق أو القيم، بل لم ينصرف عن رؤية نور الوحي، ونحن اليوم نرى الكثير ممّن يتّبع ذلك المنطق الجاهليّ نفسه ويقوم بمحاربة الإسلام.

٢. تقييم الرسالة مع سفارة الملوك

ذهب منكرو الوحي إلى القول بأنّ سفراء الملوك بما أنّ لهم ملابس فاخرة وأموالاً، فلا

---

١. النحل: ٤٣.
٢. الأنعام: ٩.
٣. فصّلت: ٤٤.
٤. الشعراء: ١٩٨-١٩٩.
٥. الأنعام: ٩.

بدّ أن يكون رسل الله كذلك أيضًا: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[١].

إنّهم اعتقدوا بلزوم نزول القرآن على الملأ من القوم من قبيل الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفيّ، لا الذي عليه غبار اليتم، ولا يملك من الموارد المادّيّة والموقعيّة الاجتماعيّة شيئًا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٢].

وذهب هؤلاء إلى أنّ أصل الوحي إذا كان حقًّا، فلا بدّ من حصول خطأ في إرساله، وإلّا لا بدّ وأن ينزل الوحي في مكّة على الوليد بن المغيرة، أو في الطائف على عروة بن مسعود الثقفيّ، ولكن قال النبيّ ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عنده [أي عند الله تعالى] جناح بعوضة ما سقي كافرًا به مخالفًا شربة ماء**»[٣].

٣. اتّهام الأنبياء

كان منكرو الوحي يتّهمون الأنبياء بالسحر والكذب والجنون: ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾[٤]. وعندما يسمعون الكلام الحقّ المنزل وحيًا يجعلونه سحرًا: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾[٥].

وورد في الرواية أنّ النبيّ ﷺ قال لمن اتّهمه بأنّه مسحور:

> «وقد تعلمون أنّي في صحّة التمييز والعقل فوقكم، فهل جربتم مذ نشأت إلى أن استكملت أربعين سنة خزية أو ذلّة أو كذبة أو خيانة أو خطأ من القول أو سفهًا من الرأي، أتظنّون أنّ رجلاً يعتصم طول هذه المدّة بحول نفسه وقوّتها أو بحول الله وقوّته»[٦].

---

١. هود: ١٢.
٢. الزخرف: ٣١.
٣. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٤، ص٥٩٨.
٤. الإسراء: ٤٧.
٥. يونس: ٧٦.
٦. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٤، ص٧.

والخلاصة: إنّه ربمّا تطرح شبهة علميّة، من قبيل: أنّ البشر لا يصلح لتحمّل الرسالة الإلهيّة، أو إذا كان صالحًا غير أنّه لا يمكنه بمفرده تحمّل هذه المسؤوليّة، بل لا بدّ من وجود ملك يصحبه، أو عند صلاحيّة بشر للرسالة الإلهيّة لا بدّ وأن يكون غنيًّا متمتّعًا بالموارد الماليّة الكثيرة وقد تطرح شبهات ناشئة من شهوات عملية وقد ذكرنا سببها سابقا؛ كالاستكبار وغيره.

٤. الطلبات المادّيّة والاقتراحات غير المعقولة

إنّ منكري الوحي يقولون: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾[١].

وقد قال الله مخاطبًا النبيّﷺ في جوابهم: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾[٢]. وإلّا فلا يصعب على الله خلق ما هو أكبر ممّا يريدون: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾[٣].

٥. نزول العذاب

وقد يطلب منكرو الوحي نزول العذاب: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾[٤] وقد قال في جواب عبد الله بن أبي أميّة المخزوميّ ومن على شاكلته:

«يا عبد الله أمّا قولك أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفًا.. فإنّ في سقوط السماء عليكم هلاككم وموتكم، فإنمّا تريد بهذا من رسول الله أن تهلك ورسول ربّ العالمين أرحم من ذلك، لا يهلكك ولكنّه يقيم عليك حجج الله، وليس حجج الله لنبيّه وحده على حسب اقتراح عباده؛ لأنّ العباد جهّال بما يجوز من

---

١. الإسراء: ٩٠-٩٣.
٢. الإسراء: ٤٨.
٣. الفرقان: ١٠.
٤. الإسراء: ٩٢.

الصلاح وما لا يجوز منه ومن الفساد، وقد يختلف اقتراحهم ويتضادّ حتّى يستحيل وقوعه، والله لا يجري تدبيره على ما يلزمه بالمحال»[١].

إنّ رسالة هذه الرواية العرشيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة، إنّ دين الله يعتمد على محور العلم والعقل والمصلحة الاجتماعيّة، وإنّ أساس الدين السماويّ يبتني على المعرفة والعلم، لا الأهواء الجاهليّة والفاسدة والمبتذلة.

٦. طلب حضور الله والملائكة

يقول القرآن بهذا الصدد: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾[٢]. ويقول الله في الجواب: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾[٣]. إنّها حجج واهية ليس لها أيّ أساس وكانوا يطرحونها على جميع الأنبياء وهم يسخرون: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[٤].

٧. القصر المذهّب

لقد عدّت الثقافة الجاهليّة القصر المذهّب من علامات العلوّ. وعليه، فلو لم يمتلكه مدّعي النبوّة لم يكن نبيًّا في الواقع، لذا طلبوا من النبيّ ﷺ أن يكون له قصر من ذهب: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾[٥].

وقد قال النبيّ ﷺ في جواب المعترض:

«أما بلغك أنّ لعظيم مصر بيوتًا من زخرف؟ قال: بلى، قال: أفصار بذلك نبيًّا؟ قال: لا، قال: فكذلك لا توجب بمحمّد لو كانت له نبوّة، ومحمّد لا يغتنم

---

١. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٣، ص٢٢٤.
٢. الفرقان: ٢١.
٣. الأنعام: ١١١.
٤. الأنعام: ١٠.
٥. الإسراء: ٩٣.

جهلك بحجج الله»[١].

٨. جعل الوحي أسطورة

ربّما قال الكافرون إنّ كلام النبيّ ﷺ أسطورة كباقي الأساطير والقصص: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[٢]. والقرآن المجيد نقل جعلهم الوحي أسطورة في تسعة مواقع.

وقد يدّعي الكفّار أنّه بإمكانهم إتيان مثل القرآن: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[٣]. وهذا الادّعاء لم يتحقّق أبدًا ولن يتحقّق في المستقبل أيضًا. وهذه الطريقة في التفكير سوف لا ترقى إلى منصّة الظهور أبدًا، كما أنّهم زعموا بكونهم من أقدر الناس، ولم يصدّقوا بمن هو أقوى منهم: ﴿قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[٤] لذا، فإنّ الله تعالى، قادر على أن يأتي بما يعجزون من إتيانه، كما يقدر على إنهاء قوّتهم الماديّة.

٩. إضعاف معنويّات المؤمنين

من برامج منكري الوحي أنّهم حينما يلتقون يتفاءلون ويرون قطعيّة أحقيّتهم وبطلان الوحي كي يتمكّنوا من إضعاف قلوب المؤمنين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾[٥].

إنّهم جهلوا معيار القيم وملاكها؛ لأنّهم حصروا ملاك الخير في بريق الدنيا وزخرفها، والحال أنّ القرآن يراها لهوًا ولعبًا، ولا يراها خيراً سوى الإنسان المرتكس في الدنيا: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[٦].

وننوّه أنّ ثقافة القرآن تستدعي أن يكون أيّ تصديق أو تكذيب عن دليل وعلم

---

١. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٣، ص٢٢٥.
٢. الأنعام: ٢٥.
٣. الأنفال: ٣١.
٤. فصّلت: ١٥.
٥. الأحقاف: ١١.
٦. الأحقاف: ١١.

مستدلّ، أي يمنع التصديق من دون دليل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ﴾[١] كما أنّ التكذيب من دون مستند باطل أيضًا: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾[٢] وهذه الدعوة للتعقّل تعني أنّ أساس الثقافة الإسلاميّة تبتني على الفكر الصائب والعمل الصالح.

نتائج إنكار الوحي

١. فشل المكر والحيلة

إنّ القرآن المجيد يفضح حيل منكري الوحي ويكيد بهم، كما قال بخصوص كيد الكافرين: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[٣]. كما يقول في كيد فرعون: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾[٤]. والله قد أهلك من هو أقوى منهم: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾[٥] وينتقم من الكافرين: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٦].

نعم، قد هلك من هو أكبر وأقوى من منكري الوحي، حتّى أنّه قد هلك من لم يمتلكوا قوّته عشر معشار: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[٧] إنّ الله تعالى، قد أهال سقف هذه الثقافة الواهية على رؤوسهم: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٨].

والخلاصة: إنّ مكر منكري الوحي حتّى لو كان يزيل الجبال، فإنّه لا أثر له أمام الإرادة الإلهيّة: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾[٩]؛ وسرّ ذلك أنّ جميع مبادئ ذلك المكر

---

١. الإسراء: ٣١.
٢. يونس: ٣٩.
٣. غافر: ٢٥.
٤. غافر: ٣٧.
٥. الزخرف: ٨.
٦. الزخرف: ٢٥.
٧. سبأ: ٤٥.
٨. النحل: ٢٦.
٩. إبراهيم: ٤٦.

ونتائجه عند الله: ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾[١] لذا، فإنّ مفاتيح المكر والكيد والحيل بيده تعالى، جميعًا، وهذه الأمور لا تتفوّق على الإرادة الإلهيّة.

٢. النصر المقطوع به للأنبياء

لقد وعد الله الأنبياء بالنصر المقطوع أمام هجوم منكري الوحي الواسع، وقال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[٢] و ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٣] و ﴿إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٤] والكفّار سيغلبون ويدخلون النار قطعًا: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾[٥].

فمن تعدّى على معسكر الإسلام بجبن وهجم عليه، فإنّهم ما وصلوا ولن يصلوا إلى أهوائهم الشيطانيّة بتاتًا، وإن تمكّنوا من قتل نبيّ وإنهاء حياته مثلاً؛ لأنّ مدرسة الأنبياء وشخصيّتهم الحقوقيّة لا يمكن إبطالها، بل ستزداد جلالاً وعظمة يومًا بعد يوم، ولذا لا يمكن للجناة الطغاة من دحض تعاليم النبوّة وأحكامهم الوحيانيّة، ولا يوجد نبيّ قام بإلقاء التعاليم الوحيانيّة، وكان بصدد التبليغ وترويج الشريعة، ولم ينتصر في نهاية الأمر.

٣. مجالسة الشيطان

جعل الله عقاب منكري الوحي مجالسة الشيطان، وقد أشار إلى هذا في آيات عدّة، من قبيل:

- ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[٦].
- ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾[٧].

---

١. إبراهيم: ٤٦.
٢. المجادلة: ٢١.
٣. المائدة: ٥٦.
٤. الصافّات: ١٧٣.
٥. آل عمران: ١٢.
٦. الزخرف: ٣٦.
٧. فصّلت: ٢٥.

فالشياطين ستكون مع هؤلاء دائمًا، حيث يموّهون لهم الوضع العالميّ الحاليّ والمستقبليّ، ويصرفون أذهانهم نحو المسائل المادّيّة والأمور النفعيّة، ممّا يغفلون عن تحصيل زاد الآخرة.

٤. التوجّه إلى غير الله

من النتائج المرّة لإنكار الوحي، التوجّه إلى غير الله، وهذا العمل يعني قبول ثقافة لا تنفع الإنسان بتاتًا، ولا تنتج له سوى الضرر والعقاب: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[١].

وما يظهر في المعاد، هو: أوّلًا: بطلان عبادة منكري الوحي من المشركين، ثانيًا: إنّ إلههم هواهم لا الأصنام، ثالثًا: إنّ الأصنام تخضع للخالق كسائر الموجودات الأخرى.

٥. الانتقام الأليم

إنّ نتيجة التكبّر وإنكار الوحي والصدّ عنه، إنّما هي الانتقام الأليم والمدمّر من قبل الجبّار المنتقم الذي يطال منكري الوحي: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾[٢]. ويقول الله سبحانه، في مكان آخر: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾[٣]. والانتقام هذا هو من قبيل عقوبة الوليّ الرحيم للطفل المشعوذ، لا كانتقام المظلوم من الظالم الذي يحمل صبغة التشفّي، ولا كانتقام القاضي من المجرم الذي له صبغة التأديب.

ومن طرق الانتقام الإلهيّ في الدنيا، تسليط ظالم آخر عليه: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٤]، فإنّ سنّة الله تقتضي إذا أراد عقوبة ظالم في الدنيا، فإنّه سينتقم منه إمّا من دون واسطة، وإمّا بواسطة ظالم آخر يسلّطه عليه، كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «**ما انتصر الله من ظالم إلّا بظالم وذلك قول الله عزّ وجلّ:** ﴿كَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ

---

١. الأحقاف: ٥-٦.
٢. الأحقاف: ١٨.
٣. السجدة: ٢٢.
٤. الأنعام: ١٢٩.

بَعْضًا﴾»[١]. والحصر هذا إضافيّ وليس مطلقًا، إلّا إذا عنى ظالمًا بالخصوص، فحينئذٍ يمكن أن يكون طريق الانتقام هو تسليط ظالم آخر عليه.

إنّ الأنبياء أتمّوا الحجّة على الناس، وإذا عصى الناس فإنّ الله يختم حياتهم بشكل عادل ويقضي بينهم بالعدل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٢].

ولا يمكن ترك أمّة من دون رسول، وإذا ترك الله أمّة من دون رسول وهادي، فمعناه أنّ القوانين البشريّة تستطيع تدبير المجتمع، والحال أنّ العقل والوحي يأبيان ذلك؛ بمعنى أنّه لا يمكن الإذعان بأنّ الله لم يرد تدبير أمور الإنسان، كما لا يمكن القول بأنّ الإنسان يستطيع تأمين سعادته بمفرده، بل الله يريد تدبير الجوامع البشريّة، كما بيّن طريق السعادة في ظلّ العقل والوحي.

كما قال في القرآن: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[٤].

وبناء على هذا، فمن بقي على جهله ولجاجه، بعد سماع رسالة الوحي وإتمام الحجّة عليه، ورجّح هوى النفس على الهداية الإلهيّة، ورفاه الدنيا على السعي نحو الآخرة، ورجح أفكاره على نداء الملائكة، فإنّه سينال العذاب الإلهيّ.

إنّ منطلق هذا العذاب هو عداء المترفين وأصحاب الرفاه، واستهزاء المتكاثرين وأصحاب رؤوس الأموال، وظلم الحكّام، وتفرّد الجهلاء، وأهواء أهل العيش الدنيويّ، وعباد الدنيا، فهؤلاء جميعًا يصدّون الطريق أمام سفراء الله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٧٥، ص٣١٣.
٢. يونس: ٤٧.
٣. التوبة: ١١٥.
٤. القصص: ٥٩.

﴿رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[١].

وعليه، يوجد تزاحم مستمرّ في الدنيا بين العلم والجهل، والجور والعدل، والسخرية والحكمة، والحقّ والباطل، وهذا التزاحم من لوازم تعارض الناس مع النبوّة دائمًا: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾[٢].

وبناء على هذا، فإنّه لا عاقبة لمنكري الوحي سوى الهلاك والعذاب الأليم.

---

١. يس: ٣٠-٣١.

٢. الزخرف: ٦-٨.

القسم الثاني

النبوّة العامّة

الفصل الأوّل

أهداف النبوّة وفوائدها

إنّ الله قد قرّر في المنظومة الكونيّة الواسعة والرفيعة، أهدافًا متعالية وفوائد عدّة في إرسال الرسل؛ لازدهار الانسان في البنى العلميّة والعمليّة، كي يرتقى إلى لقاء الله، أعلى مرتبة ممكنة، وفيما يلي نشير إلى بعض أهداف النبوّة وفوائدها:

١. تعليم ما لا نعلم

جعل القرآن الكريم التعليم والتربية من أهداف إرسال الأنبياء: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[١].

قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ يخبر عن معارف وحقائق يعجز فكر الإنسان مع تقدّمه في العلم والصناعة من نيلها والوصول إليها، وهي لا تنال إلّا عن طريق النبوّة وتعاليم الوحي، فلو لم يأت الأنبياء لم ينل عقول الأوّلين والآخرين إدراك معاني التوحيد والمعاد.

من أين يدرك العقل أنّ للقيامة خمسين موقفًا؟ فعقل الإنسان وعلمه مهما تكامل، لا يتمكّن من إدراك هكذا معارف، حتّى بالنسبة الى عقل أنبياء أولي العزم أو عقل سيّدهم محمّد بن عبد اللهﷺ وهو العقل الكلّ. لذا قال سبحانه، مخاطبًا نبيّه: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[٢]. فلو لم تكن العناية الإلهيّة لم يتمكّن نبيّ الإسلامﷺ من تعلّم مسائل ما فوق الطبيعة.

وفي مكان آخر يخاطب القرآن النبيّﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا

---

١. البقرة: ١٥١.

٢. النساء: ١١٣.

﴿الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١].

ومن البديهيّ أنّ الفعل الماضي النافي ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ يسلب أيّ قدرة على الفهم. وعليه، فالتفضّل والوحي الإلهيّ هو السبب في فتح نوافذ عالم الغيب على الإنسان، وانفتاح المعارف الخالصة والحقائق غير المتناهية عليه، كما يسبّب ازدهار العقول وخصوبتها.

ثمّ إنّ العقل البرهانيّ لو كان قادرًا لفهم جميع الأحكام والحِكَم وحده، لم يقل الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٢]. فلو كفى العقل وحده لهداية الناس ولم يحتج إلى النبوّة والوحي، لساق الله العاصين يوم القيامة إلى النار، ولقال لهم: إنيّ أتممت لكم الحجّة بإعطائكم العقل، والحال أنّ الله يقول بأنيّ أرسلت الأنبياء لإتمام الحجّة، كي لا يحتجّ أحد على الله يوم القيامة.

وبناء على هذا، فالتعقّل، رغم الحاجة إليه ولزومه، لا يكفي لوحده، ولا يهتدي إلى كثير من التعاليم، كما إنّ تعاليم الوحي أيضًا لا تنتج من دون استعمال التعقّل، لذا فالإيمان والتعقّل ساعدان قويّان وجناحان محلّقان للوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وبناء على هذه النظرة الكونيّة، فالعقليّون الاختزاليّون والمنكرون للدين يسيرون في الضلال، كما إنّ المتديّنين المعادين للتعقّل والمنكرين له، والمفارقين للتعقّل والتديّن، يقعون في الخطأ والقشريّة.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تندّد الاكتفاء بالعقل والاستغناء من الوحي: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣]. ومن الواضح أنّ العقلانيّة لو كفت، للزم أن يقول الله بأنّنا أعطيناكم العقل وأتممنا لكم الحجّة، بدل أن يتكلّم عن إرسال الرسل.

---

١. الشورى: ٥٢.

٢. النساء: ١٦٥.

٣. المائدة: ١٩.

وفي آية أخرى تتحدّث عن سنّة الله في أنّه لا يعذّب أحدًا ولا يؤاخذه إلّا وقد أرسل قبله رسولاً: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[١]. وعليه، فمن السذاجة والجهل الاتّكاء على العقل فقط أو الاعتماد على آراء الناس والاستغناء عن الوحي للوصول إلى الهداية والسعادة: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٢].

والله سبحانه، قد ذمّ من اكتفى بالعلم والعقل البشريّ، واستغنى عن تعاليم الوحي ورجّح العلم المادّيّ على المعارف الإلهيّة، ورجح جمود الطبيعة على حيوية الميتافيزيقا: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[٣].

نعم، لقد أرسل الأنبياء كأفضل موهبة إلهيّة لنجاة الإنسان من نطاق الطبيعة، وأنّ عملهم أوسع بكثير من حدود العقل الجزئيّ، سيّما وأنّ نتائج العقل يشوبها الخطأ والتغيير والاختلاف، ونرى استبدال الفرضيّات الجديدة مكان الفرضيّات القديمة دائمًا، ومن هنا جعل المحقق الطوسيّ من فوائد بعثة الأنبياء تأييد المدركات العقليّة؛ حيث قال: «كمعاضدة العقل فيما يدلّ عليه»[٤]. ثمّ إنّنا اذا اردنا عدّ أخطاء العقل في عصرنا الراهن، استدعي ذلك أطنانًا من الورق. وما زلنا نرى في الهند عبّاد الأصنام وتقديس البقر... ومن هنا، نصل إلى نتيجة أنّ بعثة الأنبياء من النعم والمنن الكبيرة.

٢. تكامل العقل

يعدُّ التكامل العقلانيّ من أهمّ أهداف تعليم الناس على يد الأنبياء: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[٥].

وقد قال رسول الله ﷺ أيضًا إنّ هدف البعثة استكمال عقول البشر: «**ولا بعث الله نبيًّا**

---

١. الإسراء: ١٥.
٢. المائدة: ٥٠.
٣. غافر: ٨٣.
٤. الحلي، *كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد*، الفصل الرابع في النبوّة، ص٣٤٦.
٥. آل عمران: ١٦٤.

ولا رسولاً حتّى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمّته»[١]. وذلك أنّ العقل الجمعيّ مليء بالعلوم الحصوليّة والمفاهيم الذهنيّة، ولا يمتلك قدرة الصيانة من السهو والنسيان، والتنزّه من المغالطة اللفظيّة والمعنويّة، ولا يجلس المفهوم الحصوليّ الناقص، مكان الشهود الحضوريّ الكامل، كما أنّ العلم الذهنيّ المعيب لا يسدّ مسدّ النظر الشهوديّ السليم، وإن كان العقل الجمعيّ المتنعّم ببركة التشاور والبعيد عن عيب الاستبداد، أقرب إلى الواقع من العقل الفرديّ.

والخلاصة: إنّ المجتمع البشريّ محتاج إلى الوحي الإلهيّ في مقام النظر والفكر؛ لأنّه سيفهم عن طريق الوحي ما ينبغي أن يفهمه ولم يقدر عليه، كما أنّه سيتمّ ويستكمل عن طريق الوحي، ما ينبغي أن يفهمه ويدركه بشكل سليم وكامل ولم يقدر عليه.

٣. إقامة القسط

يعدّ إقامة العدل والقسط من أهمّ أهداف البعثة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٢].

والمقصود من البيّنات والدلائل الواضحة، هي المدركات العقليّة والتعقّل العلميّ الصحيح وكذلك المعجزات والكرامات العمليّة. كما أنّ المراد من الكتاب هو بعض المعارف والأحكام والعقائد والأخلاق وسائر العلوم. والميزان والمعيار الصحيح المصاحب للكتاب هو المعصوم، ولا يوجد ميزان أدقّ من سيرة النبيّ ﷺ وأئمّة الدين عليهم السلام المعصومين ومنهجهم وعملهم.

والخلاصة: إنّ المجتمع البشريّ بحاجة إلى سيرة الإنسان المعصوم الكامل صاحب السريرة الملكوتيّة، في مقام التحفيز والحثّ كما في مقام النظر، كي يحوّل العلم إلى الواقع بشكل مصون، وينزّل مخزون نشأة العقل إلى عالم المثل، ويجسّد المتمثّل بحفاظ.

---

١. الكليني، *الكافي*، كتاب العقل والجهل، ح١١.
٢. الحديد: ٢٥.

٤. النجاة من الظلمات

ومن أهداف النبوّة أيضًا النجاة من الظلمات والوصول إلى وادي النور، وقد صرّح به القرآن الكريم: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[١].

فالجهل العلميّ والجهالة العمليّة، كلاهما ظلمة، والجاهل المتهتّك كالعالم الفاجر، يصاب بالظلمة المتراكمة، كما أنّ مدّعي الإرشاد من دون فلاح العلم وصلاح العمل غارق في الظلمات المتراكمة. مشكاة النبوّة هو سفينة النجاة ومصباح الهداية الوحيدة، المشكاة التي أرسلت من مقام التشريف إلى دار التكليف كي تنير القلوب المظلمة، وتسيّر المنحرفين نحو النور.

٥. عبادة الله وترك الطاغوت

تعدّ الدعوة إلى عبادة الله الواحد، والابتعاد من الطاغوت ومظاهره، من الأهداف الأساسيّة لبعثة الأنبياء عليهم السلام: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[٢].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الخصوص: «**ليعقل العباد من ربّهم ما جهلوه، فيعرفوه بربوبيّته بعدما أنكروا، ويوحّدوه بالألوهيّة بعدما عندوا**»[٣].

إنّ المحور الحقيقيّ لدعوة الأنبياء، حفظ التوحيد الفطريّ وطرد أيّ أنواع الشرك، كما أنّ معنى «لا إله إلّا الله» لم يرجع إلى قضيّتي السلبيّة والإيجابيّة الجديدة؛ لأنّ معنى كلمة التوحيد نفي أيّ غيرٍ عدا الوحدة الإلهيّة التي تعدّ معقولة للنظر ومقبولة للعمل. فمعنى عبادة الله واجتنابِ الطاغوت نفي أيّ عبادة أخرى وبطلانها سوى عبادة الله الواحد المعقولة نظريًّا والمقبولة عمليًّا.

---

١. إبراهيم: ١.
٢. النحل: ٣٦.
٣. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٤، ص٢٨٧.

٦. الحكم بين الناس في اختلافاتهم

ومن أهداف بعثة الأنبياء الحكم في خلافات الناس ورفعها: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[١].

هذه الآية تحتوي على نقطتين رئيسيّتين: ١) البشارة والإنذار، وهما من أهداف البعثة، يعدّان كالترغيب، ركنان أساسيّان لتربية النفوس وتأمين السعادة. ٢) الحكم بالحقّ يبتني على التعاليم السماويّة سيّما القرآن الحكيم؛ لأنّ الحكم لا بدّ وأن يكون على أساس القانون الكامل، وينحصر القانون الكامل في الكتب السماويّة.

ويستنبط من هذه الآية وجود نوعين من الاختلاف في المجتمع، الأوّل: الاختلاف قبل تبيين الحقّ ووضوحه، وهو اختلاف طبيعيّ ومحمود، ويكون مقدّمة لإصابة الحقّ ونيل الواقع، والثاني: الاختلاف بعد وضوح الحقّ، وهو اختلاف شيطانيّ ومذموم، ويوجب الفتنة وكتمان الحقّ.

٧. الدعوة إلى الحياة الفضلى

إنّ الوحي والتعاليم الوحيانيّة سبب لتأمين الحياة الفضلى للإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: إنّ ما يحيي البشر ويهبكم الحياة الخالدة، هو الولاية، وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، فإنّ اتّباعكم إيّاه وولايته أجمع لأمركم وأبقى للعدل فيكم**»[٣].

إنّ العقيدة التوحيديّة من أهمّ عوامل الحياة المعنويّة، وهكذا اعتقاد مشروط بالولاية، كما هو مفاد حديث سلسلة الذهب الشريف، وما ورد من روايات ذيل هذه الآية وأمثالها، فإنّها ناظرة إلى اشتراط التوحيد والولاية، نعم إنّ هذا الاشتراط يرجع إلى طاعة أمر الله الواحد الذي أعطى المرجعيّة العلميّة والعمليّة لأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.

---

١. البقرة: ٢١٣.

٢. الأنفال: ٢٤.

٣. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٢، ص١٤١.

٨. استذكار النعم

إنّ الله سبحانه، جعل استذكار نعم الله من مهامّ الأنبياء في عدّة آيات، من قبيل:

١. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

٢. ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٢].

إنّ تبيين هدف البعثة يكون تارة بجعل شيء غرضًا أساسيًّا للرسالة مباشرة، وتارة اخرى تذكر امور ضمن الوظائف الاصيلة والاوامر الرسمية استطرادا وفي ضمن البحث عن برامج المبعوثين وتعاليمهم، وقضيّة استذكار نعم الله هي من القسم الثاني.

٩. الدعوة إلى الأخلاق الحميدة

ومن أهداف البعثة، الدعوة إلى الخصال الأخلاقيّة الحميدة والآداب الاجتماعيّة، ومن هذه التوصيات: الإحسان إلى الأبوين، عدم التطفيف في الكيل، العدل في الشهادة والحكم، الوفاء بالعهد، البعد عن الشرك، عدم قتل الأولاد بسبب الفقر، عدم الاقتراب من الأعمال السيّئة وإراقة دماء الأبرياء، عدم الاقتراب من أموال اليتيم إلّا بقصد الإصلاح، إقامة الحقّ والعدل والتقوى والنزاهة وغيرها[٣].

وللأخلاق، كرابط بين العقيدة والعمل، دور بارز ومؤثّر في تهذيب الروح. والغاية الأساسيّة للبعثة إنّما هي تزكية النفس وتهذيب الروح، وهذا الغرض يتحقّق دومًا مع إصلاح الأخلاق، بحيث تشتمل التوصيات الأخلاقيّة على قسم مهمّ من تعاليم الوحي؛ لأنّ الأخلاق الحميدة سند القانون كما هي متمّمه وكماله.

١٠. حرّيّة الإنسان

الدعوة إلى الحرّيّة ونشرها تعدّ من أفضل تعاليم الأنبياء، سيّما الحرّيّة الثقافيّة، حيث

---

١. الأعراف: ٦٩.

٢. الأعراف: ٧٤.

٣. الأنعام: ١٥١-١٥٣.

يقترن رقيّ المجتمع بها، يقول القرآن بخصوص نتائج الحرّيّة: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[١].

قد يقال بأنّ الحرّيّة بمعناها السياسيّ والاجتماعيّ مصطلح حديث، وإن كان لأصل الحرّيّة سوابق ثقافيّة وتاريخيّة كبيرة. والقدماء عندما تحدّثوا عن الحرّيّة، يقصدون في الأغلب التحرّر الداخليّ من الرذائل، والتحرّر الروحيّ والمعنويّ، والطهارة من الرذائل، وهذا واضح لنا تمامًا، سواء أكان التحرّر في الجهاد الأوسط؛ وهو التحرّر من النفس والتحرّر من سلطان الذنب، والتباهي بالانحراف، أم التحرّر في الجهاد الأكبر والحرب الأعظم والأجلّ والأعلى؛ وهو التحرّر من أيّ أنواع التعلّق الحلال والمباح، والتحرّر من أيّ تعيّن، وإن كان مظهر بعض الأسماء الحسنى.

وفي هذا الجهاد، يسعى المجاهد الشجاع التحرّر من أسر الحصول ليصل إلى صيد الشهود، والتخلّص من نهر المفهوم الذهنيّ، والهجرة إلى بحر المصداق العينيّ.

أمّا النوع الثاني من الحرّيّة، أي الحرّيّة السياسيّة، فهو ما خلت أدبيّات جميع الحكومات المستبدّة والمستعبدة والمستعمرة منه، والتعرّف على هكذا حرّيّة والوقوف على نسبتها مع العدالة، لا بدّ وأن يكون في فضاء حكومة العقل والوحي (الشريعة).

الشريعة حامية الحرّيّة

إلى جانب الكلام عن الحرّيّة، يتمّ الكلام عن آفّات الحرّيّة أيضًا، بمعنى أنّ الحرّيّة محدودة ومقيّدة دومًا، فتعيين حدود الحرّيّة وقيودها، من أهمّ الأمور في معرفة الحرّيّة. ولم يفت أيّ شخص في أيّ مكان من العالم بالحرّيّة بشكل مطلق ومن دون حدود. والبحث عن تعيين حدود الحرّيّة وذكر شروطها وقيودها، يعدّ من الحوارات الدائميّة بين فلاسفة السياسة.

فالبعض منهم يعتقد بالحرّيّة العادلة، أي أنّ العدالة هي التي تتمكّن من تحديد

---

١. الأعراف: ١٥٧.

الحرّيّة؛ لأنّه لا يمكن جعل أيّ مفهوم وأيّة حقيقة أمام الحرّيّة، إلّا إذا كان ذلك المفهوم أهمّ وأعظم وأوسع وأجمع وأكثر حيطة من معنى الحريّة، وذلك كمفهوم العدالة. لذا، فإنّ التركيب المطلوب هو تلفيق (الحرّيّة العادلة) المفسّرة على ضوء الشريعة.

فالحرّيّة كما تتغذّى من نفسها، كذلك تجعل القيود على نفسها، أمّا العدالة فهي تقيّد الحرّيّة أيضًا. العدالة تعني رعاية مجموعة الحقوق والقيم، ومن تلك القيم الحرّيّة. لذا، فإنّ التوليفة المذكورة تعدّ مجموعة متعادلة ومتوازنة تفي بجميع القيم، ومن جملتها الحرّيّة.

وبناء على هذا، فإنّ النظام الأخلاقيّ العادل والحرّ، هو النظام الذي أوصى به جميع الأنبياء، وكذلك جميع الحكماء والمصلحين التابعين لهم.

وفي مقام نقد نظريّة (الحرّيّة العادلة) لا بدّ أن يقال: إنّ العدالة التي تقع قبال الحرّيّة ولتحديد الحرّيّة، إنّما هي مفهوم جاء من مكان آخر ولا بدّ من تفسيره وذكر معناه. فلو ترك العنان للحرّيّة لفسّرت العدالة بحسب ميلها وما ينفعها، فتجعل كلّ ما ينفعها عدلاً، وكلّ ما يضرّها ظلمًا.

فلو قبلنا بأنّ الحرّيّة حدّ؛ وهو العدل الثقافيّ، فهذا غير صحيح، بل إنّ هذا الكلام هو من منتصف الطريق، وللوصول إلى نهاية الطريق لا بدّ من الرجوع إلى البداية وطي المسافة من هناك من جديد بعد التعرّف التامّ على المسير. كما أنّ العطشان يفتح أنبوب الماء ويشرب الماء، ويزعم بأنّ الأنبوب هو الذي رواه من العطش، فيطلب منه الارتواء، ولا يعلم بلزوم طيّ هذا المسير للوصول إلى منبع الماء النقيّ.

فالعدل والحرّيّة، كالماء والأنبوب، وقعا في وسط الطريق، ولم يتمكّنا من تحليل الحدود وتحديدها وتعيينها، لذا لا بدّ من التعرّف على حدّ الحرّيّة في نطاق التكوين، والبحث عن حدودها في منطقة التشريع، كي تُعرف الحرّيّة التكوينيّة وحدودها، والحرّيّة التشريعيّة وحدودها.

إنّ الحرّيّة في نظام التكوين تحدّد على ضوء قانون العلّيّة؛ بمعنى أنّ الإنسان حرّ في نظام التكوين، غير أنّه لا يتمكّن من تجاوز قانون العلّيّة؛ إذ من المستحيل إتمام عمل من

دون لحاظ القوانين الحاكمة على العلّيّة والمعلوليّة، ولم يخلق أيّ معلول من دون علّة، ولم يكن أيّ معلول ممكن الوجود من دون علّته الخاصّة. إنّه لا يتمكّن من تحطيم النظام العلّيّ، [كما لا يمكن] ولادة معلول من الفوضى.

وكذلك الحال في نظام التشريع، بمعنى أنّ بنية التشريع تحدّد الحرّيّة؛ لأنّ الشريعة هي التي تتمكّن من تحديد الحرّيّة دون العدالة. إذ العدالة سواء أكانت وصفًا من أوصاف الإنسان أم خُلقًا من الأخلاق أو صفة مجموعة متعادلة، فإنّها تنطوي ذيل الشريعة، وتعيين الشريعة وتبيينها بيد الشارع المقدّس والذات الأحديّة الأقدس.

وعليه، فإنّ حدود الحرّيّة والعدالة، وحدود سائر الأوصاف وكذلك الحقوق والتكاليف، يتمّ تعيينها من قبل الله، وحينئذٍ يتمكّن الإنسان من الحركة حول حدود الحرّيّة والعدالة، وحدود سائر الحقوق والأوصاف.

إنّ الله يعطي كلّ ذي حقّ حقّه: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[١].

فلو قلنا: إنّ العدالة تعيّن حدّ الحرّيّة، يُطرح سؤال: ما هو العدل وما هو الظلم أوّلًا؟ وثانيًا: من الذي يحدّد إطار العدالة؟ فلو كان العدل مبهمًا كيف يمكنه تبيين حدّ الحرّيّة؟ فلا بدّ أن يقال إنّ المبدأ الذي خلق العالم وآدم، هو الذي يتمكّن من بيان حدود العالم وآدم تكوينًا وتشريعًا، كما نقرأ في أعمال شهر رجب: «**حادّ كلّ محدود، وشاهد كلّ مشهود، وموجد كلّ موجود**»[٢]. وعليه، إنّ بيان حدود الحرّيّة والعدالة وإبلاغهما بيد الله.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير الحرّيّة: «**إنّ الذي أُمرتم به أوسع من الذي نُهيتم عنه، وما أُحلّ لكم أكثر ممّا حُرّم عليكم، فذروا ما قلّ لما كثر، وما ضاق لما اتّسع**»[٣].

وبناء على هذا، إنّ حدّ الحرّيّة وحدودها بيد صاحب الشريعة؛ لأنّ الحلال والحرام بيده، وهذا الأمر ينتقل إلى الناس عن طريق المتطلّعين والكاملين في الفكر والنظر، ولا

---

١. طه: ٥٠.

٢. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج ٩٥، ص٣٩٣.

٣. *نهج البلاغة*، الخطبة ١١٤.

يسع أيّ أحد الولوج إلى هذا الحريم المقدّس من دون امتلاكه الشرائط اللازمة.

الحرّيّة حقّ الإنسان، ولكلّ إنسان الحقّ في أن يكون حرًّا، ولكنّ الإنسان مكلّف وأمين على هذا الحقّ ولا يكون مالكه، وهذا الحقّ يكون كالسلطة الملكيّة والإشراف على الأموال.

بيان ذلك: لا بدّ من لحاظ عدّة أمور بخصوص الأموال:

١. ماليّة الأشياء كالسجّاد والضيعة والسيارة وغيرها.

٢. استقرار الملكيّة للإنسان عن طريق الشراء والإرث وأمثالهما، الموجبة للسيطرة والسلطة: «**النّاس مسلّطون على أموالهم**»[١].

٣. هل السلطة على المال حقّ أو تكليف؟ إذا كانت حقًّا فبإمكان الإنسان التصرّف فيها بالحرق والتمزيق وإتلافها، أي التصرّف فيها كما يشاء، ولا يحصل أيّ إشكال ومحذور من قبل أيّ أحد، ولا يُعدّ عمله إسرافًا أو تبذيرًا، وعليه فلا يحرم ذلك.

ولكن لو لم يكن حرًّا في إعمال السلطة، أي بأن تكون السلطة على المال تكليفًا لا حقًّا، لا بدّ من التقيّد بعدم حصول الإسراف والتبذير والحرمة، وعليه لا بدّ من التسلّط على المال والتصرّف فيه بما لا يوجب المعصية، أي لا بدّ أن يكون أمينًا على الأموال، لا مالكًا ومتصرّفًا كما يحلو له.

وبناء على هذا، فالله سبحانه، هو الذي يرسم الحدود ويقرّ القيود، والحرّيّة أيضًا حقّ وهبها الله لنا ونحن أُمناء عليها، كما هو الحال بالنسبة إلى الاستقلال والعرض. فلو سعى شخص وعمل وأصبح له جاه ومكانة، أو إذا سعت دولة وجاهدت وحصلت على جاه في الدنيا، فقد حازت حقًّا كبيراً يجب على الجميع الحفاظ عليه، فالإنسان صاحب الجاه والعرض لا يحقّ له التفريط فيه وصرفه في أيّ مكان، كما هو الحال بخصوص استقلال الدولة وجاهها؛ لأنّ التفريط في وجاهة دولة ومكانتها معصية كبيرة تستتبع عذاب النّار.

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٢، ص٢٧٢.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«إنّ الله فوّض إلى المؤمن أمره كلّه، ولم يفوّض إليه أن يكون ذليلاً، أما تسمع الله عزّ وجل، يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١] فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً»[٢].

وروى أبو بصير، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام:

«يخرج الرجل مع قوم مياسير وهو أقلّهم شيئًا، فيخرج نفقتهم ولا يقدر هو أن يخرج مثل ما أخرجوا، فقال عليه السلام: ما أُحب أن يذلّ نفسه، ليخرج مع من هو مثله»[٣].

ولا يحقّ للحاكم إذلال قومه وإذهاب وجاهة الدولة أمام الأغيار، بل يلزم عليه الحفاظ على الحرّيّة، كما أنّ أمير المؤمنين عليه السلام عند رجوعه من صفّين كتب في وصيّته لابنه، وقد عدّه البعض الإمام الحسن عليه السلام، وقال:

«وأكرم نفسك عن كلّ دنيّة وإن ساقتك إلى الرغائب، فإنّك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضًا، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرًّا»[٤].

وبناء على هذا، فكما أنّ أصل الوجود من قبل الله، فكذلك الكمالات التي تأتي بعده كالاستقلال والحرّيّة والعدالة وسائر الحقوق، فكلّها من الله أيضًا، ويجب استعمالها في الطريق الصحيح والحفاظ عليها.

والخلاصة

١. الإنسان يمتلك حقوقًا فرديّة واجتماعيّة وسياسيّة وثقافيّة واقتصاديّة ونحوها.

٢. هذه الحقوق تعدّ مواهب إلهيّة وُهبت للإنسان.

٣. وهذه الموهبة تكون على شاكلة الاستيداع والاستئمان، أي أنّ الإنسان المستحقّ

---

١. المنافقون: ٨.

٢. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٦٧، ص٧٢.

٣. المصدر السابق، ج٧٦، صص٢٦٩.

٤. *نهج البلاغة*، الخطبة ٣١.

لهذه الحقوق، أمين عليها أمام صاحبها الرئيسيّ، ولا بدّ أن يسعى جاهدًا في حراستها، من دون أن يُسمح له التصرّف فيها على نحو التمليك وإيهابها.

٤. كما أنّ الإنسان مسلّط على ماله، من دون أن يكون له سلطان في هذا التسلّط، فهو ذو حقّ أيضًا بالنسبة لتلك الأوصاف المذكورة كالحرّيّة ونحوها، ولكن له تكاليف ووظائف أمام هذا الحقّ، أي إنّه مكلّف بالحفاظ على هذه النعم، والتمتّع بها بشكل معتدل ومن دون تعطيل، وليس له سلطان عليها.

ويمكن بيان انحصار حدود الحرّيّة بالله، المتجلّي في الشريعة، هكذا أيضًا: بناء على قانون العلّيّة، لا بدّ أن تنتهي جميع القيم كالحرّيّة والعدالة وغيرهما إلى الغنيّ المحض، يقول الإمام السجّادعليه السلام: «**طلب المحتاج من المحتاج سفه من رأيه وضلّة من عقله**»[1]. وعليه، فلا بدّ لجميع المحتاجين إدراك الحاجة والتفكّر في رفعها من جهة، ومن جهة أُخرى: فإنّ الرجوع إلى محتاج آخر مثلهم سفه. ولذا لا بدّ من رفع الحاجة باستعانة الغنيّ المحض، وأن يُطلب منه الحرّيّة والعدالة وسائر الحقوق القيميّة وكذلك تحديدها، وعندما تصل هذه الحقوق إلينا، لا بدّ أن لا نستعملها بشكل فوضويّ وفي كلّ مكان، وأن لا نعطيها لمن لا يليق بها وأن لا نزعم بملكيّتنا لها، بل لا بدّ أن نكون أمناء أمامها جميعًا.

تقييد الدين

ورد في كتاب أمير المؤمنينعليه السلام لمالك الأشتر: «**فإنّ هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار، يُعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا**»[2]. أي إنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله قد أحدث ثورة، وتحرّر الناس من قيود عبادة الأصنام والثنويّة الجاهليّة، وقد أمر النبيّصلى الله عليه وآله بتكسير الأصنام، وطهّر المسجد الحرام والكعبة من دنسها، ودفن جميع الأصنام عند باب بني شيبة، وأمر الحجيج بالدخول إلى المسجد الحرام من هذه الباب كي تُجعل الأصنام وثقافة عبادة الأصنام تحت أقدام الموحّدين.

---

١. *الصحيفة السجّاديّة*، الدعاء رقم ٢٨.

٢. *نهج البلاغة*، الخطبة ٥٣.

فمن هنا، عرف كثير من الناس أنّ مشاكلهم الاجتماعيّة والدينيّة، كانت بسبب هذه الأصنام والشرك والكفر، لذا لجأوا إلى التوحيد. وهناك قسم آخر لم يستفيدوا من هذه الحرّيّة بشكل صحيح وبقوا مذنبين، أمّا فريق الطغيان الذين ما انمحت رواسب الجاهليّة من نفوسهم، وبقيت الجاهليّة تظلّل على روحهم، أسلموا إسلامًا ظاهريًّا كالأمويّين والمروانيّين، قال أمير المؤمنين عليه السلام في حقّهم: «**ما أسلموا ولكن استسلموا**»[١]. فهؤلاء بدل أن يلقوا القيود على الطواغيت والشياطين والأبالسة، ألقوها على الدين وقيّدوا بها الشريعة وأسروها، وانتقموا من الإسلام الأصيل كما قال يزيد: «**فلا خبر جاء ولا وحي نزل**».

وقد زعم الأمويّون بخيالهم الساذج أنّهم بعد تقييد الدين قد أعدموه، وزعموا أنّهم محقوا الدين الذي حسبوه لعبة بيدهم، ولكنّ الإمام السجاد والعقيلة زينب بصحبة سيّد الشهداء وبقيادة تلك الذات المقدّسة، قد أحيوا الدين وفتحوا الأغلال الثقيلة عنه، وجعلوها على أبواب بني أميّة وبني مروان وفضحوهم إلى الأبد.

وقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: لمّا قدم علي بن الحسين وقد قتل الحسين بن عليّ عليهما السلام استقبله إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقال: يا علي بن الحسين من غلب؟ وهو يغطّي رأسه وهو في المحمل، قال: فقال له علي بن الحسين: «**إذا أردت أن تعلم من غلب ودخل وقت الصلاة فأذّن وأقم**»[٢]. أي فأذّن وأقم كي يُعلم أنّ نداء «أشهد أنّ محمّدًا رسول الله» قد ملأ الخافقين وانتشرت ثقافته في جميع أرجاء المعمورة.

كما أنّ شريحًا القاضي وضع هذه الأغلال على الدين بدل وضعها على رقبة الطاغوت، فأفتى بحلّيّة إراقة دم الحسين بن علي عليه السلام.

وعليه، ففريق الطغيان أسروا من يريد تحريرهم، وأساؤوا الاستفادة من الحرّيّة الإسلاميّة، فأسروا الدين وأحكامه ووضعوا القيود على السنّة والشريعة، ومن الواضح أنّ الصلاة والصوم والحجّ المقيّد، لا يتمكّن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنّ

---

١. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٦.

٢. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٤٥، ص١٧٧.

الآثار الإيجابيّة الكثيرة المرسومة للأحكام الإلهيّة، إنّما هي ناظرة إلى وجودها العينيّ لا مجرّد المفاهيم الذهنيّة، فضلاً عن وجودها الكتبيّ أو الشفويّ.

حكمة البعثة في الروايات

١. قال الإمام الكاظم عليه السلام:

«ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلّا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة»[١].

٢. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله بعثني لأُتمّم مكارم الأخلاق»[٢].

٣. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق»[٣].

٤. يرى أمير المؤمنين عليه السلام أنّ بعثة الأنبياء كانت من باب الكرامة والنعمة والبركة والرفاه وتعديل حياة الإنسان وإعزازهم، وأنّ رُسُل الله أُمروا بسوق الناس نحو التواضع واللّين، والتحذير من التكبّر وحبّ الحياة، وهم الدليل والحجّة على الناس، وهدفهم دعوة الناس للحقّ والحقيقة بالمنطق الصادق.

وبناء على كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فإنّ تواتر الأنبياء إنّما هو لأجل دعوة الناس إلى العهد والميثاق الفطريّ المركوز في خلقتهم ليثيروا لهم دفائن العقول من تحت ركام الضلال وغباره ليصلوا إلى نعمة التوحيد: «فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته... ويثيروا لهم دفائن العقول»[٤].

٥. قد ذكر الإمام الرضا عليه السلام حكمة بعثة الأنبياء بمنظار جامع، حيث قال:

«فإن قال: لم أمر الله الخلق بالإقرار بالله وبرسوله وحججه وبما جاء من عند الله عزّ وجل؟ قيل: لعلل كثيرة:

---

١. الكليني، *الكافي*، ج ١، ص١٦، من تعليمات الإمام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم.
٢. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٦، ص٢١٠.
٣. الكليني، *الكافي*، ج ٢، ص١٥٩.
٤. *نهج البلاغة*، الخطبة: ١.

أ) منها إنّ من لم يقرّ بالله عزّ وجل، لم يجتنب معاصيه، ولم ينته عن ارتكاب الكبائر، ولم يراقب أحدًا فيما يشتهي ويستلذّ من الفساد والظلم، فإذا فعل الناس هذه الأشياء، وارتكب كلّ إنسان ما يشتهي ويهواه من غير مراقبة لأحد، كان في ذلك فساد الخلق أجمعين، ووثوب بعضهم على بعض، فغصبوا الفروج والأموال، وأباحوا الدماء والنساء والسبي والقتل بعضهم بعضًا من غير حقّ ولا جرم، فيكون في ذلك خراب الدنيا وهلاك الخلق، وفساد الحرث والنسل.

ب) ومنها: إنّ الله عزّ وجل، حكيم، ولا يكون الحكيم ولا يوصف بالحكمة إلّا الذي يحظر الفساد، ويأمر بالصلاح، ويزجر عن الظلم، وينهى عن الفواحش، ولا يكون حظر الفساد والأمر بالصلاح والنهي عن الفواحش إلّا بعد الإقرار بالله عزّ وجل، ومعرفة الأمر والنهي، فلو تُرك الناس بغير إقرار بالله ولا معرفته، لم يثبت أمر بصلاح ولا نهي عن فاسد، إذ لا آمر ولا ناهي.

ج) ومنها: إنّا وجدنا الخلق قد يفسدون بأمور باطنة، مستورة عن الخلق، فلولا الإقرار بالله عزّ وجل، وخشيته بالغيب لم يكن أحد إلّا إذا خلا بشهوته وإرادته يراقب أحدًا في ترك معصية وانتهاك حرمة وارتكاب كبيرة، إذا كان فعله ذلك مستورًا عن الخلق غير مراقب لأحد، وكأن يكون في ذلك هلاك الخلق أجمعين، فلم يكن قوام الخلق وصلاحهم بإقرار منهم بعليم خبير يعلم السرّ وأخفى، آمرٍ بالصلاح ناه عن الفساد، لا تخفى عليه خافية، ليكون في ذلك انزجار لهم عمّا يخلّون به من أنواع الفساد.

د) فإن قال: فلم وجب عليهم معرفة الرسل والإقرار بهم والإذعان لهم بالطاعة؟ قيل: لأنّه لما لم يكن في خلقهم وقولهم وقواهم ما يكملون مصالحهم، وكان الصانع متعاليًا عن أن يُرى، وكان ضعفهم وعجزهم عن إدراكه ظاهرًا لم يكن بدّ من رسول بينه وبينهم، معصوم يؤدّي إليهم أمره ونهيه وأدبه، ويقفهم على ما يكون به إحراز منافعهم ودفع مضارّهم، إذ لم يكن في خلقهم ما يعرفون به ما يحتاجون إليه من منافعهم ومضارّهم، فلو لم يجب عليه معرفته وطاعته لم يكن

لهم في مجيء الرسول منفعة ولا سدّ حاجة، ولكان يكون إتيانه عبثًا لغير منفعة ولا صلاح، وليس هذا من صفة الحكيم الذي أتقن كلّ شيء»[١].

تحليل رواية الإمام الرضا عليه السلام

لقد أشار الإمام الرضا عليه السلام في هذه الرواية النورانيّة إلى عدّة معالم مفتاحيّة وأساسيّة:

١. لو طويت النبوّة وأصبح ربيع الرسالة خريفًا، لحلّ مكانها الفساد في الحرث والنسل وفيه خراب الدنيا، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[٢]. ولذا، قال الإمام الصادق عليه السلام: «حياة دوابّ البحر بالمطر، فإذا كفّ المطر ظهر الفساد في البرّ والبحر، وذلك إذا كثرت الذنوب والمعاصي[٣]».

وقد تطرأ هنا شبهة، وهي: إنّ كثيراً من بلاد الدنيا لم تتابع نبيًّا أو أنبياء ومع هذا لم تخرب بلادهم، بل ازدهرت يومًا بعد يوم، كما لم يظهر فيهم أيّ فساد، بل استمرّوا في حياتهم بنظم ونظام متين من دون الاتّكاء على القوانين الإلهيّة وأوامره[٤].

وقد ذكر الإمام الرضا عليه السلام جواب هذه الشبهة في تتمّة كلامه، حينما قال: «وليس هذا من صفة الحكيم الذي أتقن كلّ شيء»؛ لأنّ الحكمة تقتضي نهي الله عن الفساد والضلال، وهداية الناس إلى الخير والصلاح.

وبناء على هذا، فإنّ القوانين المصنوعة من قبل البشر مهما تكاملت وراعت المصالح، لا تقاس أبدًا بقوانين الله خالق البشر. ودليل ذلك فساد الحرث والنسل في الملل المتقدّمة ظاهريًّا، فهم وإن لم يكن لهم فساد ظاهريّ داخليّ، ولكنّ ضلالهم الخارجيّ سبّب استعباد الدول الضعيفة، وهيّأ هبوطهم وزوالهم واضمحلالهم، مضافًا إلى هذا يمكن القول بأنّ جميع الأفكار والقوانين والآداب والسنن البشريّة الصحيحة، إنّما هي إرث الأنبياء عليهم السلام، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «العلم

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٦، ص٥٩.
٢. الروم: ٤١.
٣. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٤، ص١٩٠ ذيل آية ٤١ من. الروم.
٤. ابن خلدون، *مقدّمة*، ، الفصل ١، ص٢٦.

ميراثي وميراث الأنبياء قبلي»[١] ولكن أخذ الملحدون والماديّون من تعاليم الوحي ما له صبغة إنسانيّة، وتركوا ما له صبغة إلهيّة: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾[٢].

٢. لو لم يأت نبيّ وما كانت نبوّة لبيان أسماء الله وصفاته للناس، بأن تقول لهم بأنّ الله العليم، عالم بسرّكم وظاهركم وعالم بجميع الكون، كي يتّقوا بهذه الطريقة المعاصي والأعمال السيّئة الظاهريّة والباطنيّة، لم يتمكّن أيّ قانون وعامل خارجيّ منع الناس من المعاصي الباطنيّة، وللزم ارتكابهم المعاصي والفساد في الخفاء، وحرمانهم من الكمال اللائق بهم؛ لأنّنا نعلم أنّ الإنسان يطلب الكمال والرقيّ، ولا بدّ أن ينتبه إلى هذا الأمر في كلّ لحظة ويتّجه إليه، غير أنّ شهيّة النقد من جهة، وعدم وجود الدليل والمانع الباطنيّ من جهة أخرى، تحول دون بلوغ هذا الكمال.

٣. إنّ الإنسان يسير نحو الكمال المطلوب، لذا يحتاج إلى من يدلّه ويوصله إلى الكمال الحقيقيّ وكلّ الكمال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[٣] وبناء على هذا، فإنّ الإنسان بحاجة إلى الدليل في هذا الطريق، الدليل الذي سلك بنفسه هذا الطريق ويكون من جنس البشر؛ إذ مع عدم وساطة النبيّ لا يتمكّنون من الارتباط بالله، وهم بحاجة إلى وسيط معصوم لا يوجد فيه نقصان وقصور في إبلاغ الرسالة، ولا تتدخّل أهواؤه فيها، ويحفظ رسالة الله ويبلّغها العباد بشكل تامّ، وفي غير هذه الحالة لا يكون مقتدى وأسوة ورحمة للعالمين.

---

١. *نهج الفصاحة*، ج ٢، ص٦٧١.
٢. النساء: ١٥٠.
٣. الانشقاق: ٦.

الفصل الثاني

مباحث عصمة الأنبياء

تأتي العصمة في اللغة بمعنى الطهارة وعدم التلوّث بالذنوب ومنع النفس عن المعصية من أوّل العمر إلى آخره، وعصمة الأنبياء في الاصطلاح القرآنيّ تعني الخصائص الآتية:

١. الحفظ والصيانة من حيث صفاء الجوهر والذات.

٢. امتلاك الفضائل الجسميّة والنفسيّة المتعالية.

٣. التأييد بالنصرة، والاستقامة في الوصول إلى الأهداف.

٤. نزول السكينة والطمأنينة عليهم.

٥. حفظ قلوبهم من الانحراف والاعوجاج.

٦. التوفيق لأداء مهامّ النبوّة[1].

إنّ النظم المنطقيّ والنظرة الشموليّة تقتضي الخوض في مبحث العصمة من الجوانب المختلفة الآتية:

أ) خصائص العصمة

١. تعريف العصمة

العصمة ملكة نفسيّة قويّة توجد في الإنسان المعصوم دومًا، ولا تزول بأيّ قوّة أخرى كالغضب والشهوة وغيرهما، والعصمة ليست كالعدالة، وتختلف عنها في عدّة موارد على الأقلّ:

أوّلًا: في مراتب الوجود، حيث إنّ مرتبة العدالة أضعف من العصمة، والشخص العادل قد يذنب وإن كان بصعوبة ويقع في فخّ الشيطان، وإن كان غير العادل يذنب

---

١. راغب، *معجم مفردات ألفاظ القرآن*/ عصم.

بسهولة، ولكنّ العصمة ملكة وجوديّة عليا لا تقهر أبدًا من قبل أيادي الشهوة والغضب، ولا يقرب الشيطان حِماها.

ثانيًا: لا يوجد تزاحم بين السهو والنسيان والغفلة مع العدالة، لذا قد يخطئ العادل أو يغفل، فيتصرّف في أموال الناس، ولكنّ هذه الأمور تتنافى مع ملكة العصمة، والمعصوم لا يسهو ولا ينسى ولا يغفل أبدًا.

ثالثًا: العدالة من الملكات العمليّة لا العلميّة؛ حيث إنّ العدالة لا طريق لها إلى الملكات العلميّة، والعادل لا يحيط علمًا بكلّ شيء ويحصل الخطأ في علومه، وعلى سبيل المثال: قد يفتي مرجعان عادلان في مسألة بحكمين مختلفين، ونحن نقطع بخطأ إحدى الفتاوى، ولكنّ هذا الخطأ لا يضرّ في عدالتهما.

نعم، إنّ العدالة لا تخلو من أثر في قسم الأفكار الصحيحة كالتقوى وسائر الفضائل العمليّة، ولكنّ ملكة العصمة تتواجد في العقل النظريّ والعمليّ معًا، وإن كان علم المعصوم شهوديًّا لا مفهوميًّا، وحضوريًّا لا حصوليًّا. فالإنسان المعصوم كما هو مصون في منطقة العلم، مصون في نطاق العمل أيضًا ومحفوظ كما سيأتي بيانه.

٢. أنواع العصمة

العصمة على نوعين: علميّة وعمليّة. وهذان القسمان ينفصلان عن بعضهما الآخر ذاتًا وحقيقة. إذ ربّما يكون شخص معصومًا في ملكة العلم، ولم يكن معصومًا في ملكة العمل وبالعكس، ولكنّ العصمة التي توجد في الأنبياء تجمع بين القسمين، فالأنبياء معصومون في العلم والعمل؛ بمعنى أنّ أعمالهم صالحة ومطابقة للواقع في عالم الثبوت، وعلمهم صائب ومنطلق من مبدأ لا يتطرّق إليه أيّ نوع من السهو والنسيان.

بيان ذلك: كما أنّ للإنسان قوتي الإدراك والحركة في نطاق الحسّ، فكذلك الأمر في نطاق النفس أيضًا. فبعض شؤون النفس تتولّى الأعمال العلميّة والإدراكيّة، والبعض الآخر يتصدّى للأمور العمليّة والحركيّة. ففي حدود الحسّ مثلاً، أنّ العين والأذن اللتين نبصر بهما ونسمع، تكونان من أدوات الفهم، ولكنّ اليد والرجل من أدوات الحركة وآلاتها، أي أنّهما لا يفهمان شيئًا. وبناء على هذا، يمكن تصوّر أربع حالات في الوهلة

الأولى: القوّة الإدراكيّة والحركيّة إمّا أن تكونا ضعيفتين معاً أو قويّتين، أو أن تكون القوّة الإدراكيّة قويّة والحركيّة ضعيفة وبالعكس.

والنفس أيضًا كذلك، أي تتولّى بعض شؤون النفس الفهم والإدراك، والبعض الآخر التصميم والعزم والإرادة والعمل أوّلًا، وثانيًا: تتكرّر الحالات الأربعة المذكورة هنا أيضًا.

هناك من يكون ذكيًّا في قسم الإدراك وحسن الاستعداد والفهم، كما يكون في القسم العمليّ أيضًا من أهل التصميم والإرادة القويّة ومن أولي العزم (قد يُحكى في الفقه والأخلاق عن النيّة والإيمان والإخلاص، وتارة عن الاجتهاد وحُسن الفهم والاستنباط والاستعداد الدالّة على الشؤون العمليّة والعلميّة للنفس) وهناك من يكون بليدًا في الجانب العلميّ، ومن دون عزم وإرادة في الجانب العمليّ. والفريق الثالث يكون قويًّا في الجوانب العلميّة وضعيفًا في مقام العمل ومتزلزلًا كالعالم من دون عمل والعالم المتهتّك، أمّا الفريق الرابع يكون بليدًا في مقام العلم، وقويًّا جديًّا وساعيًا في مقام العمل، كالجهلاء المتنسّكين العاملين بأيّ كلام ولا يعلمون ما يفعلون، كالخوارج والقرّاء الذين اسودّت جباههم من أثر السجود، وقد حاربوا القرآن الناطق.

فمن وصل إلى مقام العصمة العلميّة، فقد بلغ مرحلة العقل المجرّد والشهود المحض والكشف الصحيح، وهنا يكون الوهم والخيال تابعًا للعقل ويذعن لإمامته، ولا تتطرّق وساوس الشيطان في هذه المرحلة أبدًا؛ لأنّ مرتبة إبليس، كتجرّد الوهم والخيال، أدنى من مرتبة العقل المحض.

إنّ مرحلة العقل المحض، موطئ الإخلاص العلميّ والشهوديّ، ومن وصل إلى هذا المقام، كان من المخلصين الذين لا يتمكّن الشيطان من تدنيس أفكاره ومنظومته الفكريّة، ومن إيراد شبهة أو سفسطة عليه.

والإنسان البالغ لرتبة الإخلاص الكامل والعقل المجرّد، يكون الله هو الذي يعلّمه، وهو العلم المحض الذي لا يتطرّق إليه النسيان: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[1] لذا، لا تؤثّر حبائك الشيطان العنكبوتيّة على مواجيد الإنسان المعصوم العقلائيّة والشهوديّة والوجدانيّة.

---

١. مريم: ٦٤.

كما أنّ الواصل إلى العصمة العمليّة، لا يرتكب الخلاف عمدًا، كما لا يدنو نحوه جهلاً أو سهوًا أو نسيانًا. وهذا المقام المتعالي إنّما يتأتّى ويتيسّر لمن بلغ قلل الإخلاص العظيمة، وهكذا شخص يبتعد عن حدود قوّتي الشهوة والغضب الجهنّميّتين بفراسخ؛ لأنّه تمّ تعديل جميع القوى العمليّة والحركيّة، تحت هداية العقل العمليّ وحمايته.

فعصمة الأنبياء العمليّة تعدّ من أعلى درجات التقوى، وتتوقّف على عصمتهم العلميّة والنظريّة، غير أنّ عصمتهم العلميّة والنظريّة لا تتوقّف على عصمتهم العمليّة، أي يمكن تفكيكهما ثبوتًا، فمن يمتلك على سبيل المثال العدالة الكبرى، المعتبرة في المراجع، قد يصل إلى ملكة العصمة العلميّة، نعم إنّ بلوغ العصمة الكبرى الخاصّة بالأوحديّ من الأنبياء، لا تتيسّر من دون العصمة العمليّة.

وبناء على هذا، فالأنبياء وأئمّة الدين عليهم السلام معصومون في الإرادة والنيّة والتصميم والعزم والإخلاص والتقوى والتوليّ والتبرّي، ولا يرتكبون خلافًا أبدًا. إنّهم لا يفعلون خلاف الواقع، ولا يعترضهم السهو والنسيان، ولا يتطرّق إليهم الخوف والتشويش، ولا يحومون حول المعاصي، لذا فهم مصونون عن الجهل والسهو والنسيان والمغالطة في مقام الجزم العلميّ، كما أنّهم محفوظون من الشهوة العاطلة والغضب الباطل في مقام العزم العمليّ.

٣. الوصول إلى العصمة

قد يزعم البعض أنّ العصمة تخصّ الملائكة، ولا يتمكّن الإنسان بلوغ العصمة؛ لأنّه عرضة للشهوة والغضب، وللسهو والنسيان والغفلة أيضًا. يقول أحمد أمين:

> «وفكرة العصمة... كأنّها بعيدة عن الطبائع البشريّة التي ركّبت فيها الشهوات، وركّب فيها الخير والشرّ، ومزجت فيها الميول المتعاكسة... أمّا الطبيعة المعصومة فطبيعة الملائكة... لا طبيعة الإنسان الذي لو فقد شهوته لفقد حيويّته»[1].

---

١. مصرى، *ضحى الإسلام*، ج٣، ص٢٣٠.

وعليه، فكيف يمكن للإنسان بلوغ مرتبةٍ في الملكة العلميّة والعمليّة، يكون في مأمن من الأوصاف السيّئة المذكورة؟

ولكنّ هذا الزعم لا يتطابق مع الواقع، بل إنّ جوهر الإنسان ونفسه الناطقة خلقت على نحو، تتمكّن منه العروج إلى قمّة العصمة الشامخة؛ لأنّ نفس الإنسان تتكامل عن طريق الحركة الجوهريّة في قوس الصعود، وتتحوّل من القوّة إلى الفعل، وتقدر على صيانة نفسها من آفّات السهو والنسيان والغفلة والجهل؛ لأنّ منبع الجهل والشيطنة والتوهّمات ينحصر في الوهم والخيال، وحدود الوهم والخيال إنّما هو التعلّق بالعالم الطبيعيّ، ولكن أنىّ لشيطان الوهم والخيال أن يرقى إلى حدود العقل الخالص وينبوعه النقيّ. وما ينبع من عين العقل المحض كلّه حقّ، ولا مجال فيه للسهو والشكّ والنسيان والغفلة والجهل.

ومن البديهي أنّ الشكّ يظهر فيما لو حصل شيئان على الأقلّ وتمّ تصوّرهما، ويقع في الشكّ عندما ينظر إليهما من بعيد بغية تمييزهما وتشخيصهما، فلو دخلنا مكتبة تحتوي على كتابين: القرآن وغير القرآن، فعندما ننظر إليهما من بعيد، ولم نتمكّن من تمييز القرآن عن غير القرآن، فندخل في نطاق الشكّ حينئذٍ، ولكن لو دخلنا مكتبة تكون كلّ الكتب فيها قرآنًا، فعندما ننظر من بعيد نستيقن بأنّ كلّما نراه فهو القرآن، لذا لا مجال للشكّ والشبهة حينئذٍ.

وبناء على هذا، فإنّه يوجد حقّ وباطل في بعض حدود الكون، ففي عالم المادّة ونطاق الحسّ وعالم الخيال والوهم، فإنّ كلّ ما يراه الإنسان أو يسمعه أو يلمسه أو يحسّه أو يذوقه، يكون موردًا للشكّ، ولأمكن القول: إنّ الإنسان هل سمع الحقّ ورآه تذوّقه، أم سمع الباطل والخطأ؟ ولكن لو ارتقت نفسه إلى العالم الأعلى وما يفوق الوهم والخيال، ودخلت في وادي العقل الخالص المقدّس والشهود التامّ والكشف الصحيح، فحينئذٍ كلّ ما يسمعه ويراه يكون حقًّا وواقعًا وحقيقة وصحيحًا كلّه أجمع؛ لأنّ الباطل والخطأ لا يرقى إلى تلك المرتبة. فلو وصل الإنسان عن طريق المبدأ القابليّ إلى إمكان تجاوز عالم المادّة والوهم والخيال والتوهّمات، والوصول إلى منبع جميع الحقائق،

لأمكن أن يكون معصومًا، وتكون نفسه الناطقة عند اشتدادها الوجوديّ في مرتبة الملائكة أو أفضل منها، وقد يعجز الملك المقرّب عن مصاحبته.

لقد أقام بعض العلماء، كالمتكلّمين، البرهان على العصمة بناء على المبدأ الفاعليّ، وقالوا: إنّ الله الحكيم المرسل للأنبياء بناء على حكمته في هداية نوع الإنسان، ويؤيّدهم ويساعدهم بالمعاجز، لا بدّ وأن يعصمهم كي لا يقعوا في مسير وظيفتهم الخطيرة، أي إبلاغ الرسالة، في السهو والخطأ والنسيان والغفلة، فإذا لم يعصموا أمام هذه الأوصاف، لم يعتمد عليهم الناس، ويتطرّق حينئذٍ احتمال الخطأ والنسيان في إبلاغ رسالة الله، ويكون نقضًا للغرض بالمآل.

٤. إمكان إثبات عصمة الأنبياء

إنّ إمكان عصمة الأنبياء، بالإضافة إلى ما قلناه، بحاجة إلى عدّة أمور أساسيّة أخرى، نوردها فيما يلي:

١. **توحيد الله:** لقد ثبت في محلّه وبُرهن عليه أنّ الله المتعالي وجود محض، إنّه مبرّأ من أيّ تشبيه وتنزيه في مقام الذات، ولا مجال هناك لأيّ نوع من الاسم والرسم والوصف، كما أنّ التعبير بـ (مقام الذات) أيضًا يكون من باب فقدان اللفظ المناسب.

ولا يمكن تصوّر الشريك والعدل في ذلك المقام بتاتًا؛ لأنّ سعة إطلاقه الوجوديّ لم يدع مجالاً للغير، فإنّه كلّ الكمال وحائز لجميع الكمالات. إنّ كلّ الوجود له، وهو صرف الوجود، وبسيط الحقيقة، وفي عين وحدته فإنّ عين جميع الكمالات الوجوديّة إنّما هي عين ذاته.

ومعرفة كنه هكذا حقيقة وإن كان محالاً، غير أنّه يمكن معرفته بمقدار القابليّة الوجوديّة والعقليّة؛ لأنّ جميع الممكنات متعلّقة ومتقوّمة به، ومعرفة الممكنات تقترن لا محالة بمعرفة مقوّمها. من باب معرفة المتقوّم بالمقوّم. وكما أنّ معرفة أيّ شيء إنّما هو بمعرفة مقوّمه المفهوميّ أو الماهويّ في مقام تحليل المفهوم أو الماهيّة، فكذلك فإنّ المعرفة الحضوريّة لأيّ شيء إنّما تكون بمعرفة مقوّمه الوجوديّ.

وهذا المقدار من المعرفة، لم يكن ممكنًا فحسب بل ضروريًّا، ومن البديهيّ أنّ الممكنات مرتبطة في ذاتها بالوجود المحض ارتباطًا وجوديًّا، كما أنّ إحاطة المحدود لغير المحدود محال.

وبناء على هذا، فما يوصل الإنسان إلى هذا المقدار من المعرفة، إنّما هو سلاح البرهان أو الشهود الصحيح، وإلّا فعندما يواجه الآيات القرآنيّة كقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[1] يسقط في وادي التحجّر، وتتحدّى حينئذٍ فكرة جسمانيّة الله واتّكائه على العرش، عقلانيّة البرهان وكشف العرفان، وهذا ما تتأذّى منه فاهمة العقلاء، وذائقة العرفاء، كما أنّ الأصل القرآنيّ الكبير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2] يستهزئ بتلك الفكرة، ويكافحها آيات سورة الإخلاص، وأوائل سورة التوحيد.

٢. **معرفة الإنسان:** إنّ من الضروريّ معرفة عدّة نقاط بخصوص معرفة الإنسان:

أ) الإنسان من الموجودات الممكنة التي لها ماهيّة ووجود.

ب) بعد التحليل العقليّ، تمتلك كلّ من الماهية والوجود إمكانها الخاصّ.

ج) الروح المجرّدة هي التي تكوّن أصالة الإنسان.

د) تتّصف روح الإنسان بالإمكان الفقريّ والوجوديّ، وإن كانت خالية من الماهيّة والإمكان الماهويّ، بل هي عين الفقر والربط.

هـ) إنّ روح الإنسان المجرّدة، أي جانبه الوجوديّ، وإن كانت عارية عن الماهيّة والإمكان الماهويّ ومجرّدة، لكنّها تنفصل عن ذات الباري تعالى، بفواصل غير محدودة، ومن باب تشبيه المعقول بالمحسوس، فإنّ ظلّ الشمس تنفصل عن الشمس نفسها بفواصل كثيرة، فالظلّيّة من ذاتيّات الروح.

كما أنّ جميع الأشياء ظلّ الله في ذاتها، وللظلّيّة أيضًا مراتب. فالماهيّة ظلّ الله بواسطة الوجود، والجسم ظلّ الله بواسطة الروح. وتقسيم الحجب إلى ظلمانيّة ونورانيّة، إنّما ينشأ من الاختلاف بين الظلّ المادّيّ والمجرّد، وخصائص الجسم من حيث المبدأ

---

١. طه: ٥.

٢. الشورى: ١١.

القابليّ (لا الفاعليّ) لا تخلو من أثر في وصول الروح إلى الفيوضات، كما أنّ جميع كمالات الجسم الفعليّة تستند إلى الروح من حيث المبدأ الفاعليّ القريب. وبعض الأرواح تهبط نحو النقص، وبعضها الآخر تحوز قليلاً من الصعود.

ويمكن استنباط اختلاف الأشياء في ظلّيّة الله من الروايات أيضًا، كما ورد عن رسول اللهﷺ حيث قال: «**السلطان العادل ظلّ الله في الأرض، يأوي إليه الضعيف، وبه ينتصر المظلوم**»[١].

فكلّ مخلوق وإن كان ظلّ الخالق، ولكن تمّ وصف الأشياء المهمّة بظلّ الله في روايات المعصومينعليهم السلام، وبما أنّ حكومة الأنبياء والأولياء العادلة، وأوصيائهم الواقعيّين ذات أهمّيّة، طُرحت بعنوان ظلّ الله.

والآن نشرع ببيان أصل المطلب، وهو أنّ الروح المجرّدة التي تكوّن الجانب الأصليّ للإنسان، إنّما هي نوعيّة الوجود، وأنّ أصل حقيقة الوجود لم يكن من سنخ الماهيّة بل يقابلها وله مراتب تشكيكيّة في الشدّة والضعف، وروح الإنسان إحدى تلك المراتب، وبناء على الحركة الجوهريّة فإنّ الوجود الضعيف يشتدّ نحو الوجود الشديد إلى أن يثبت بعد الوصول إلى التجرّد التامّ. لذا، فإنّ من المتيسّر رقيّ بعض الأرواح ووصولها إلى قمّة التكامل الوجوديّ الشامخة، كالوصول الى قمّة الولاية والعصمة والنبوّة والخلافة، حيث تبلغ روح الإنسان إلى التجرّد واللياقة التامّة بعد الوصول إليها.

وبناء على هذا، فلا يُتصوّر السهو والنسيان والزلل وأمثالها في هذا المقام الرفيع، والأنبياء البالغون لهذه المرتبة لا يمكن عروض السهو والنسيان والغفلة لهم في العادة.

ولذا، قد بدأ كبار العلماء والحكماء والمتكلّمين وعلماء الإماميّة، الكلام في باب العصمة من معرفة التوحيد، كمبدأ فاعليّ، ومن تجرّد روح الإنسان، كمبدأ قابليّ، وتطرّقوا الى مبحث العصمة من السهو والنسيان بعد معرفة مقام الخلافة والنبوّة والرسالة، واعتقدوا بعدم إمكان طروّ السهو والنسيان للأنبياء في العادة.

---

١. *نهج الفصاحة*، ج ٢، ص٦١٩.

درجات العصمة

قد أشرنا إلى أنّ ملكة العصمة عندما تصل إلى نصابها اللازم، أي بأن تصل إلى كمال العقل النظريّ، وتمام العقل العمليّ، وتكون مرضيّة لله في الفكر والعزم، فإنّها حينئذٍ تمنع نفس الإنسان من أيّ نوع من السلوك المذموم والسيّء.

ولملكة العصمة درجات، كما أنّ للنبوّة والإمامة والرسالة والولاية والخلافة درجات، وهي وجود مشكّك، كما ورد في القرآن: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[١] و ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾[٢] فكما انّ للنبوّة والرسالة مراتب، فانه تختلف أيضًا درجات عصمة الأنبياء وإن كانوا معصومين جميعًا.

فأولو العزم من الأنبياء لهم درجات أعلى من العصمة، فالدرجة العليا للنبيّ تكون سببًا لمن هو أدنى منه درجة ان يشعر بالذنب عندما يقيس نفسه بالنتبي الذي اعلى منه رتبة ومن دون أن تصدر منه صغيرة أو كبيرة فانّ: «**حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين**»[٣] أي إنّ النبيّ الذي ينظر إلى نفسه بالنقص أمام أنبياء أولي العزم، فإنّه يقيّم نفسه مع أولئك الذين هم أكمل منه، لذا يضجّ ويقول: «**فارحم عبدك الجاهل**»[٤]. رغم كونه إنسانًا كبيراً أو معصومًا.

فالإنسان العادي عندما يقول في المناجاة: «**فارحم عبدك الجاهل**». فإنّه لا يعلم كثيراً من الأشياء وهو جاهل بالحمل الشائع، ولكن عندما يناجي نبي عظيم الشان هكذا مناجاة، وهو الحائز للشخصيّة الكاملة والعليا في العالم، الذي وصل بمعونة الله إلى مقام ﴿عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[٥] فمن المعلوم أنه يرى نفسه أمام الذات القدسيّة الإلهيّة جاهلاً ومذنبًا؛ لأنّ أيّ نقص وعيب من هذا المنظار يُعدّ ذنبًا.

---

١. البقرة: ٢٥٣.
٢. الإسراء: ٥٥.
٣. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٢٥، ص٢٠٤.
٤. *مفاتيح الجنان*، دعاء الافتتاح.
٥. النساء: ١١٣.

عدم كون العصمة ذاتيّة وانحصاريّة

لم تكن ملكة العصمة ذاتيّة ولا انحصاريّة، بل إنّها اختياريّة، وبإمكان غير الأنبياء وأئمّة الدين عليهم السلام الوصول إليها؛ لأنّ طريق السعي والترويض والجهاد النفسي مفتوح أمام الجميع، وأنّ نتائجه عامّة للجميع: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[1] ويمكن بلوغ هذه الملكة المجيدة وكسب إرادة فولاذيّة عن طريق تهذيب النفس ورعاية التقوى والمواظبة على الأعضاء والجوارح والخواطر النفسانيّة والشيطانيّة، ومع أكل الحلال والمراقبة والمحاسبة.

وليعلم أنّ كلّ نبيّ وإمام معصومٌ، ولكن ليس كلُّ معصوم نبيًّا وإمامًا؛ لأنّ ملكة العصمة، في حدّ ذاتها، لها درجات كسائر الكمالات الوجوديّة، وهي مشكّكة لها شدّة وضعف، ولكن مقام النبوّة والرسالة والإمامة محصور: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[2] فالله تعالى، لا يعطي المقامات المفتاحيّة والمسؤوليّات الحسّاسة في النيابة عنه لكلّ أحد حتّى للمعصوم الفعليّ.

اكتسابيّة العصمة

كما أشرنا سابقًا أنّ عصمة الأنبياء وأئمّة الدين عليهم السلام ليست ذاتيّة، لذا لم يمتنع منهم ذاتيًّا صدور الذنب؛ لأنّه لو كان ممتنعًا ذاتيًّا ومحالاً بالذات لم يكن مقدورًا، وإذا لم يكن مقدورًا لم يكن مورد التكليف.

ثمّ لو كان الذنب والمعصية محالاً ذاتًا، لكانت الطاعة والامتثال ضروريّة ذاتًا، وحينئذٍ لم تكن الطاعة مورد التكليف، ولم يحصل مجال الإنذار والتبشير والوعد والوعيد، ومن هنا لم يُكلّف الملائكة؛ لامتلاكهم العصمة الذاتيّة لا الاختياريّة.

وعليه، يوجد الاختيار في العصمة الاكتسابيّة غير الذاتيّة، ويمكن نسبة الفعل أو الترك قبل تحقّقهما إلى المعصوم كقضيّة ممكنة، ولكن بعد التحقّق تكون نسبة ذلك الفعل إلى المعصوم ضروريّة وعدمها ممتنع، يطلق على هكذا امتناع (الامتناع بالاختيار)

---

١. الأنفال: ٢٩.

٢. الأنعام: ١٢٤.

وهو غير مناف للاختيار، وعلى سبيل المثال: يقال قبل أداء الفعل: «**إنّ المعصوم يطيع بالإمكان ويعصي بالإمكان**» ولكن بعد أداء الطاعة يقال: «**إنّ المعصوم مطيع بالضرورة**» وهذا في الواقع يكون من قبيل قضيّة (الضرورة بشرط المحمول).

وسبب كل هذا أنّ المعصوم يرى النار في باطن الذنب، ولا يتطرّق إليه السهو والنسيان أبدًا وإن كان نائمًا، كما قال رسول اللهﷺ «تنام عيني ولا ينام قلبي»[١]. وهو ان لم يتمكّن من المعصية لما قال الله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٢] ولكن مع هذا فهو معصوم، وخواطره رحمانيّة كلّها ولم تكن نفسانيّة وشيطانيّة، والغرض أنّ ملكة العصمة تحصل باختيار الإنسان كسائر الملكات العلميّة والعمليّة، ويمكن أن تزول باختياره أيضًا.

الفرق بين عصمة الأنبياء وغيرهم من الناس

قد أشرنا إلى إمكان بلوغ العصمة لسائر الناس العاديّين بمعونة تهذيب النفس، وهذه العصمة تتحقّق بثلاثة طرق:

١. عدم الاقتراب من الذنب مع عدم الميل القلبيّ إلى الذنب.

٢. الابتعاد من الذنب مع الميل القلبيّ للذنب.

٣. الابتعاد من الذنب عند الإحساس بالخطر مع الميل القلبيّ للذنب.

ولكن بخصوص جميع الأنبياء سيّما نبيّ الإسلام المكرّمﷺ فإنّ الجهات الإيجابيّة لهذه الموارد الثلاثة ثابتة لهم، والجهات السلبيّة منتفية عنهم وسنشير إليها لاحقًا. يقول الله سبحانه، بهذا الخصوص: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾[٣] ومعناها: أيّها النبيّ إنّك لم تكن تتصرّف في الآيات فحسب بل لم تقترب منه ولم تمل نحوه، ولولا تثبيت الله لأوشكت أن تدنو منه قليلاً، ولكنّ العصمة الإلهيّة حالت دون ذلك.

وكذلك يستفاد من قوله تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾[٤] بأنّ الميل إلى الذنب لم

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٢٢، ص٢٧.

٢. الزمر: ٦٥.

٣. الإسراء: ٧٤.

٤. يوسف: ٢٤.

يحصل عند يوسف عليه السلام بتاتًا، وأنّ الله صرف عنه السوء والفحشاء، ولم يكن الصرف عن المنكر والسوء من قبل الله، بمعنى أنّ الله أبعد في الحقيقة الفحشاء التي هي من وساوس الشيطان عن حدود حياة يوسف النورانيّة وجميع الأنبياء والأئمّة، بحيث لا يتمكّن الذنب من الدنو إلى تلك الذوات.

والغرض أنّ: ١) النبيّ لا يذنب. ٢) النبيّ لا يقترب من الذنب كي يهيّئ بعض مبادئه ومقدّماته. ٣) النبيّ لا يميل إلى الذنب قلبًا. ٤) النبيّ لا يقترب أيضًا من الميل القلبيّ في فضاء روحه وميدان قلبه. ٥) الدنوّ من الميل القلبّي لا يجرأ ايضا من الحضور عند قلب النبيّ؛ لأنّ القلب التامّ من معرفة التوحيد، والمليء من محبّة الله سبحانه، لا يوجد فيه مجال للميل إلى الذنب، وكذلك الدنوّ من الميل إلى الذنب، وكذلك لا توجد أيّ فرصة لهجوم الميل أو الدنوّ من الميل أو دخول هذا الضيف الطفيليّ.

وبناء على هذا، فإنّ عصمة الأنبياء تختلف عن عصمة غيرهم؛ لأنّ ما يدركه الأنبياء حقّ، ويقول الله تأييدًا لهذا الكلام: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[١] ويقول أيضًا: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[٢].

فلا يوجد أيّ طريق لنفوذ الشيطان؛ لأنّ الملائكة تحفظ القرآن في جميع مراحل نزوله، كما يقول الله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[٣]. فالوحي عند نزوله محفوظ من قبل حفظة الغيب من كلا طرفيه كي لا يتطرّق إليه الشيطان، ويصل معصومًا إلى قلب النبيّ صلى الله عليه وآله وسالمًا إلى المجتمع البشريّ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[٤].

وبعد هذه المرحلة، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٥].

---

١. النمل: ٦.
٢. الشعراء: ١٩٣-١٩٤.
٣. الجن: ٢٦-٢٨.
٤. الإسراء: ١٠٥.
٥. الكهف: ٢٩.

والحاصل: إنّ الذنب وميل الذنب لا يتطرّق إلى حريم أنبياء الله الآمن، كما أنّ عصمتهم لم تكن جبريّة، بل تتكوّن حول محور الاختيار الكامل.

ب) إثبات عصمة الأنبياء

بعد معرفة الله والإنسان، فإنّ عصمة الأنبياءعليهم السلام تنطلق من القرآن ومأخوذة منه، وتضرب بجذورها في النصّ الإسلاميّ، ولم تكن من النتائج الفكريّة لفرقة خاصّة باسم الشيعة، كما أنّ معتقد الشيعة في عصمة الأنبياء وأئمّة الدين، لم تكن بدواعي سياسيّة ومذهبيّة لإثبات أحقّيّة أئمّتهم وخلع الآخرين من دفّة الحكم، وإن أمكن القول بانّ الكشف عن عصمة الأنبياء والأئمّةعليهم السلام طرأت في بادئ الأمر من الشيعة؛ لأنّ الشيعة تتبع عترة النبيّصلى الله عليه وآله (الثقل الأصغر) العارفين بالوحي والناطقين عن الله، وبناء على الحديث المعروف والمشهور (حديث الثقلين) فإنّ القرآن والعترة لا يفترقان.

وعليه، لم تُحجب عن عترة النبيّصلى الله عليه وآله أيّ معرفة ملكوتيّة، كما أنّهم علّموها تلامذة مكتبهم وأتباعهم، وهذا ما يستنبط بجلاء من الأحاديث والروايات المأثورة عنهم.

فالأنبياء يمتلكون ملكة العصمة، ولا يتطرّق إلى حريم أفهامهم الآمن الجهل والقصور والتقصير، وأيّ نوع من السهو والنسيان والغفلة. كما أنّهم عملوا بما أنزل إليهم في مقام الإجراء، بنحو صحيح ومن دون سهو ونسيان، فهم معصومون من الخطأ والزلل من الناحية العلميّة والعمليّة، أمّا غيرهم فقد يكونون معصومين في الآراء العقليّة وغير معصومين في مقام العمل أو بالعكس، كالجاهل المتعبّد المصرّ على ترك المعاصي مع ضعفه في الرؤية والنظر.

ومن الضروريّ هنا التذكير ببعض النقاط:

١. العصمة مفهوم مشكّك؛ إذ كما يفكّك في مقام التقسيم إلى عصمة علميّة وعمليّة، فإنّه أيضًا قابل للتصنيف من حيث التقسيم إلى مراتب ودرجات. لذا، فإنّ ثبوت بعض مراتبها لا يستلزم ثبوت المراتب الأخرى، كما أنّ سلب بعض مراتبها لا يوجب نفي البعض الآخر من تلك المراتب.

٢. الحدّ الأدنى من العصمة تختص بالدرجة النازلة للنبوّة والرسالة، ويلزم الحدّ الأوسط للمرتبة المتوسّطة من النبوّة والرسالة، كما أنّ المرحلة العليا من العصمة تختصّ بالمرتبة العليا من النبوّة والرسالة.

٣. النصاب المحتاج إليه في العصمة لنيل مقام النبوّة الشامخ، هو عصمة النبيّ في حدود تلقّي الشريعة وتبليغ الأحكام وإجرائها.

وقد وردت آيات في القرآن يستفاد منها عصمة الإنسان الكامل، ويمكن تصنيف هذه الآيات ضمن الفئات المختلفة الآتية:

الفئة الأولى من الآيات

إنّ الوثوق بكلام الأنبياء والاطمئنان به، فرع لصحّة كلامهم. فلو احتُمل الكذب في كلام النبيّ، وجازت المعصية عليه، أو احتمل أن يقول شيئًا لم يقله الله، فإنّه يسقط نهائيًّا من الاعتبار. لذا نقرأ في القرآن: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[١] ويقول القرآن أيضًا: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[٢]. فما رأى من خفايا العالم وجده قلبه بالحقيقة ولم يره كذبًا وخيالًا، كما قال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾[٣] وهذه الآيات وإن كانت ناظرة إلى النبيّ الخاتمﷺ، ولكنّ البحث النهائيّ في محتواها يدلّ على أنّ خصائص النبوّة عدم التكلّم بالهوى وعدم حياكة الكذب.

ومن جهة أُخرى، فالله أمر بمتابعة الأنبياء، فلو كانت أعمالهم غير مرضيّة له، فلماذا يجب متابعتهم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[٤] نعم، إنّ عموم هذا الأمر لسائر الأنبياء، يتّضح من خلال ما ذُكر سابقًا.

---

١. النجم: ٣-٤.
٢. النجم: ١١.
٣. النجم: ١٧.
٤. آل عمران: ٣١.

الفئة الثانية من الآيات

الأنبياء مكلّفون بتعليم الناس وتربيتهم، فلو قالوا للناس كلامًا، أو وعظوهم موعظة، ولكن عملوا خلافه ولم يعتصموا من الزلل، أو تكلّموا بخلاف أعمالهم، فعملهم هذا مذموم في كلا الحالتين، ولم يتمكّنوا من التأثير في المجتمع ولم يلق كلامهم قبولاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[١].

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزلّ المطر عن الصفا**»[٢]. هذا التنظير يرجع فقط إلى الجانب السلبيّ للمثال؛ لأنّ المطر النافع ينفذ في الأرض، ويسبّب ازدهار الورود والأشجار، وما لا ينفع من المطر يزلّ عن الصفا وليس له أيّ تأثير. أمّا الجانب الإيجابيّ من المثال، أي عبور الماء من الصفا المسبّب لغسلها وذهاب الأدران عنها، فلم يُلحظ هنا.

الفئة الثالثة من الآيات

هي الآيات الدالّة على أنّ العصمة هبة إلهيّة، يمتنع الأنبياء بها عن الأعمال غير الصالحة، من قبيل:

١. ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾[٣].

٢. ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾[٤].

فللأنبياء إذن أرضيّة صالحة تمكّنوا بها من الفوز بموهبة الاصطفاء والمعجزة وسائر الآيات الإلهيّة، إنّهم اتّصفوا بالشجاعة والترويض والإخلاص وسلامة الفطرة والعصمة والوقوف أمام الظالمين وعبدة الأصنام، مع سائر الصفات والشؤون النفسانيّة والأرضيّة

١. الصفّ: ٢-٣.
٢. الكليني، *الكافي*، ج ١، ص٤٤.
٣. ص: ٤٥-٤٨.
٤. الدخان: ٣٢-٣٣.

الداخليّة والباطنيّة، فاصطفاهم الله ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١] و ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٢].

الفئة الرابعة من الآيات

١. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[٣].

إنّ الأنبياء أسوة ونموذج وهم المصطفون في الكون من جهة، والانحراف عن طريقهم ضلال من جهة ثانية: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾[٤]. وليعلم أنّ إضلال الله، الوارد في الآية الأخيرة، لم يكن كهدايته؛ لأنّ الهداية على قسمين: الهداية الابتدائيّة والهداية الجزائيّة، ولكنّ الإضلال قسم واحد؛ وهو الإضلال من باب العقوبة؛ إذ لا يتصوّر الإضلال الابتدائيّ بالنسبة الى الله تعالى أبدًا.

٢. ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[٥].

يعدّد الله في هذه الآية من أنعم عليهم، ويقول في آية أخرى إنّ من أنعم عليه لا

---

١. الأنعام: ٨٧.
٢. الحجّ: ٧٨.
٣. الأنعام: ٨٤-٩٠.
٤. الزمر: ٣٦-٣٧.
٥. النساء: ٦٩.

يغضب عليه ولا يضلّ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[١]. ونتيجة هاتين الآيتين أنّ الله لا يغضب على الأنبياء، كما لم يكونوا ضالّين، أي لم تصدر منهم أيّ معصية، ومن لم تصدر منه معصية فهو معصوم.

الفئة الخامسة من الآيات

الآيات الدالّة على أنّ الأنبياء معصومون من الخطأ والزلل في تبليغ تعاليم الوحي ولا يتطرّق إليهم النسيان، أي إنّهم معصومون سواء في تلقّي الوحي أو في الحفاظ عليه وفي تبليغه وإيصال آياته، وفي تنفيذ تعاليمه، والآيات الدالّة على ذلك هي:

١. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[٢].

٢. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[٣].

ومفاد الآيتين: إنّ الهدف من إنزال الكتب السماويّة هو القضاء والحكم بين الناس طبقًا لما يريه الله من المعارف للنبيّ أو الأنبياء، ولا يمكن أن يكون ما يعلّمه الله للنبيّ خطأ، بل الله يعلّمهم ما هو صحيح من جهة، ومن جهة ثانية: فإنّ الحكم بالحقّ يتوقّف على العلم بالأحكا، كما تدلّ عليه الآية ١١٣ من سورة النساء، ويقول العلاّمة الطباطبائيّ قدس سره في ذيل هذه الآية: «**إنّ مورد الآية قضاء النبيّ صلى الله عليه وآله في الحوادث الواقعة والدعاوى التي ترفع إليه برأيه الخاصّ، وليس ذلك من الكتاب والحكمة بشيء وإن كان متوقّفًا عليهما بل رأيه ونظره الخاصّ به**»[٤]. وبناء على هذا، فالنبيّ معصوم من الخطأ والزلل في مقام القضاء والحكم، كما يدلّ ذيل الاية على شمول العصمة وسعتها «**كان فضل الله عليك عظيمًا**» فهو مشمول بالرحمة الواسعة من القديم في أيّ واقعة جزئيّة وكلّيّة، شخصيّة وعموميّة.

---

١. الفاتحة: ٧.

٢. النساء: ١٠٥.

٣. النساء: ١١٣.

٤. الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن*، ج٥، ص٨١.

وقد ذكر المفسّرون في شأن نزول هذه الآية، أنّ متخاصمين اشتكيا إلى النبيّ ﷺ، وحاول كلّ واحد منهما تبرئة نفسه واتّهام الآخر، وكانا بصدد خدعة النبيّ ﷺ كي يحكم خلاف الحقّ، فهنا نزلت الآية، وظهر الحقّ من الباطل. وبقي النبيّ ﷺ مصونًا من الزلل.

٣. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[١] ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[٢] ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[٣] ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾[٤].

تدلّ هذه الآيات على أنّ شهود يوم القيامة، يتحمّلون الشهادة في الدنيا، ويؤدّونها في الآخرة، وأنّ أنبياء الله في رأس قائمة الشهداء وهم شهداء على كلّ شيء وفي أيّ مكان، كما يقول القرآن عن لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٥]. وفي آية أخرى أنّ روح الله عليه السلام شهيد على جميع أعمال الناس الصالحة والطالحة: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[٦].

وهذا القسم من الآيات تدلّ على أنّ شهادة الأنبياء على جميع خفايا أعمال الناس وأفكارهم، لم تكن عن طريق الحواسّ الخمسة الظاهريّة فحسب؛ لأنّهم يشهدون أمورًا لم تُر بالعين بتاتًا ولم تُسمع بالأذن أيضًا، فشهادة الأنبياء تكون بمساعدة حسّ آخر مصون من أيّ نوع من الزلل والخطأ وهذا هو معنى عصمتهم؛ لأنّ النسيان والعصيان لو تطرّق إلى الشهود الباطنيّ، لم تحصل الشهادة المقبولة في مكان لم يكن فيه سوى الله.

---

١. البقرة: ١٤٣.
٢. النساء: ٤١.
٣. النحل: ٨٤.
٤. الزمر: ٦٩.
٥. المائدة: ١١٧.
٦. النساء: ١٥٩.

الفئة السادسة من الآيات

وهي آية جعل الإمامة لإبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[١].

فالله تعالى، بعدما اختبر إبراهيم عليه السلام مرارًا بأنواع الاختبارات ورآه موفّقًا، جعل له درجة أعلى ومنحه الإمامة، غير أنّه طلب من الله عزّ وجل، أن تجري هذه المنحة الرفيعة في ذرّيّته أيضًا، فأشار الله تعالى، إلى أمر كبير وصرّح بأنّ الظلم وعدم العدالة بجميع أنواعه وفي أيّ مكان ومن قبل أيّ شخص كان، يسبّب الحرمان من مقام الإمامة الرفيع.

ويستنبط من هذه الآية: أنّ صرف العصمة لا تكفي لنيل مقام الإمامة الشامخ، بل يلزم فيها شرائط أُخر؛ كالابتلاء والنجاح في الامتحانات الصعبة.

وقد ذكر الفخر الرازيّ أنّ هذه الاية تدلّ على عصمة الأنبياء من وجهين:

١. أنّ المراد من العهد في هذه الآية هو الإمامة، فكلّ نبيّ إمام؛ لأنّ الإمام من يقتدي به الناس ويكون مقتداهم، وعليه فعندما تدلّ الآية أنّ الإمام والمقتدى لم يكن فاسقًا، تدلّ بطريق أولى على أنّ النبيّ لم يكن فاسقًا أيضًا ولم تصدر منه المعاصي.

٢. إذا كان المقصود من العهد في جملة ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ هو النبوّة، يجب عدم بلوغ الظالمين النبوّة، ولو كان المقصود منه الإمامة فلا بدّ أن لا ينالها الظالم أيضًا؛ لأنّ كلّ نبيّ لا بدّ أن يكون إمامًا كي تجعله الناس مقتداها وتقتدي به، وعليه فالفاسق ظالم (ولو لنفسه) والنبوّة لا تصل إلى الفاسقين[٢].

وقد تمسّك مفسّرو الشيعة وغيرهم من مفسّري أهل السنّة بهذه الآية للدلالة على العصمة، يقول إسماعيل حقّي: «**وفي الآية دليل على عصمة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) عن الكبائر قبل البعثة وبعدها**»[٣].

---

١. البقرة: ١٢٤.

٢. فخر الدين رازى، *تفسير الكبير*، جذيل آية ١٢٤ من. البقرة، بتصرّف.

٣. حقى بروسوى، *روح البيان*، ج١، ص٢٤٤ ذيل الآية.

ولا بدّ هنا من التنويه إلى أنّ كلام الفخر الرازي قابل للنقد، لوجود المطالب المبهمة والبعيدة عن نطاق الآية، ولكن نطوي عنها كشحًا.

ويقول العلاّمة الطباطبائيّ في تفسيره القيّم (الميزان) بعد ذكر ما هو في غاية الأهمّيّة والفائدة:

«وقد سئل بعض أساتيذنا عن تقريب الدلالة على عصمة الإمام، فأجاب: إنّ الناس بحسب القسمة العقليّة على أربعة أقسام: من كان ظالمًا في جميع عمره، ومن لم يكن ظالمًا في جميع عمره، ومن هو ظالم في أوّل عمره دون آخره، ومن هو بالعكس هذا. وإبراهيم أجلّ شأنًا من أن يسأل الإمامة للقسم الأوّل والرابع من ذرّيّته، فبقي قسمان وقد نفى الله أحدهما وهو الذي يكون ظالمًا في أوّل عمره دون آخره، فبقي الآخر وهو الذي يكون غير ظالم في جميع عمره»[١].

ولكنّ هذا البيان يكفي لعصمة الأنبياء والأئمّة إلى حدود، وليس بشكل كامل؛ لأنّه لا يشمل جميع أنحاء النبوّة والإمامة وزواياها، إذ لم يشمل الأمور الآتية:

١. من ارتكب الذنب سهوًا في مقتبل عمره، وعلى سبيل المثال بأن يعلم عدم امتلاكه لهذه الفاكهة ولكن أكلها سهوًا، فإنّه لم يطلق عليه اسم الظلم؛ لأنّه لم يخطأ عن عمد وعلم.

٢. الجاهل بالموضوع، كمن يرى في داره فاكهة ولم تكن له في الواقع، غير أنّه يأكلها مع عدم علمه، أي الجهل بالموضوع لا الحكم، فهكذا شخص لم يكن ظالمًا أيضًا.

٣. من يرتكب صغيرة؛ لأنّه لا يطلق عليه عنوان الظلم، سيّما إذا كان الظلم في الآية الشريفة صفة مشبّهة لا اسم فاعل.

ففي جميع هذه الموارد يحصل، على الأقلّ، الشكّ في الشبهة المصداقيّة لذلك الدليل، وقد اتّفق الأصوليّون بعدم جواز التمسّك بالدليل في الشبهة المصداقيّة لذلك الدليل.

والخلاصة كما ظهر في ثنايا البحث، أوّلًا: إنّ للعصمة مراتب، وثانيًا: العصمة العليا

---

١. الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن*، ج١، ص٢٧٤.

شرط لبلوغ مقام النبوّة العليا والرسالة والإمامة ونحوهما، وأنّ العصمة الوسطى شرط لبلوغ المقام المتوسّط منها، والعصمة الأدنى شرط لبلوغ المقام الأدنى منها. ثالثًا: لأجل إثبات العصمة الكاملة، يلزم الاستفادة إمّا من الدليل المعتبر العقليّ الذي يثبت الصيانة التامّة لأصحاب منزلة التجرّد الكامل، وإمّا أن يستنبط من إطلاق الدليل النقليّ المعتبر الذي يشترط النزاهة التامة لاصحاب المقامات الالهية، حتّى البراءة من السهو، والصيانة من النسيان، والنزاهة من الجهل بمواضيع الحكم الشرعيّ، . رابعًا: هذه الآية كما استفدنا من بعض مداخلات مشايخنا، وتنفيذها بتقرير الأستاذ العلاّمة الطباطبائيّ ﷺ، تثبت بعض الموارد الراجعة إلى العصمة لا جميعها.

الفئة السابعة من الآيات

هي الآيات التي تأمر المجتمع الإسلاميّ بالاستماع إلى أوامر النبيّ ومتابعته، والامتناع من نواهيه. ومفاد هذه الآيات عصمة الأنبياء وأئمّة الأمّة من الزلل في الفكر والعمل، وأنّهم يوصلون الأمّة إلى الغاية المتوخّاة، وإلاّ فلماذا يلزم خضوع الناس أمام هؤلاء من دون أيّ اعتراض، وتقبّل أوامرهم ونواهيهم برحابة صدر؟

وفيما يلي نورد بعض الآيات بهذا الخصوص:

١. ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[١].

٢. ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[٢].

قال الفخر الرازي ذيل الآية:

«قوله: من يطع الرسول فقد أطاع الله، من أقوى الدلائل على أنّه معصوم في جميع الأوامر والنواهي، وفي كلّ ما يبلّغه عن الله؛ لأنّه لو أخطأ في شيء منها لم تكن طاعته طاعة الله، وأيضًا وجب أن يكون معصومًا في جميع أفعاله؛ لأنّه تعالى أمر بمتابعته في قوله: ﴿واتّبعوه﴾»[٣].

---

١. الحشر: ٧.

٢. النساء: ٨٠.

٣. الأعراف: ١٥٨. فخر الدين رازى، *تفسير الكبير*، ج١٠، ص١٩٩.

٣. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[١].

فلو لم يكن النبيّ أسوة من جميع الجهات، بل يصدر منه الزلل والخطأ، فكيف يأمر الله بشكل مطلق أن يجعلوه أسوة لهم؟!

الفئة الثامنة من الآيات

وهي آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٢].

إنّ تطهير آل البيت من مطلق الرجس أعمّ من الشرك والذنب والحسد والبخل والكفر وغيرها، ضامن لعصمتهم، فمن جهة لا يحبّ الله أن يتدنّس جوهر هذه الذوات المضيء بالأرجاس، وأن تتصدّأ هذه المرآة العظيمة الكاشفة عن صفات الله تعالى، ومن جهة ثانية فإنّ عترة النبيّ الطاهرين المعصومين، يعلمون بعواقب الذنوب والزلل والخطأ المظلمة، ولا يدنون منها ذاتًا ولا يتلوّثون بها.

وليعلم أنّ كثيراً من علماء أهل السنّة ومفسّريهم ذهبوا، طبقًا للروايات الكثيرة الواردة عن الرسول الأكرمﷺ، إلى أنّ أهل البيت في الآية المذكورة هم الرسولﷺ وعليّ وفاطمة والحسن والحسينعليهم السلام، كما يتّفق معهم مفسّرو الشيعة؛ طبقًا للروايات المتعدّدة أيضًا[٣].

وبناء على هذا، فهؤلاء يمتلكون ملكة العصمة وقد طهرت ساحتهم من أيّ رجس. وكذلك الحال في سائر الأنبياء، وما نُسب إليهم من التهم في بعض الكتب المحرّفة، لم يكن لها أيّ أساس، وهي من صناعة الجناة؛ لأنّ الله سبحانه، وصفهم في القرآن المجيد بالإخلاص والطهارة، وقد أمر نبيّ الإسلام الأكرم أن يتّبع هداهم: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[٤]؛ والذات الالهية المقدّسة لا تامر النبي بمتابعة غير المعصوم والمذنبين والخطّائين.

والنتيجة: إنّ جميع الأنبياء سيّما رسول اللهﷺ، تلقّوا ما يخصّ هداية المجتمع من

---

١. الأحزاب: ٢١.

٢. الأحزاب: ٣٣.

٣. سيوطى، *الدر المنثور في التفسير المأثور*، ج٦، صص٦٠٣-٦٠٤؛ الحسكانى، *شواهد التنزيل*، ج ٢، صص١٠-٩٢.

٤. الأنعام: ٩٠.

قبل الله بشكل تامّ وكامل، وأبلغوه إلى الناس بشكل دقيق، وبما أنّهم وصلوا إلى حدود العقل الكامل، لم يدخلوا في وحل الوهم والخيال، ولا يتطرّق إليهم السهو والنسيان والخطأ. إنّهم وصلوا إلى مقام الإخلاص الرفيع، وابتعدوا عن سهام وساوس الشيطان بفراسخ: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١].

إنّ نبيّ الإسلام هو الصراط المستقيم وهو الطريق، ومن أراد أن يسلك الصراط المستقيم لا بدّ وأن يجعل الرسول أسوة له، إنّه قد وصل إلى مقام (المخلصين)، بالفتح، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٢] حيث إنّ الشيطان قال: سأجلس في الصراط وأُضلّ عبادك، إلّا عبادك الذين وصلوا إلى مقام الإخلاص الرفيع، وطهرت جميع أعمالهم من عدم الخلوص، وعليه فالأنبياء معصومون من أيّ خطأ سواء في مقام الفكر والنظر أو مقام الفعل والعمل.

إنّ الأنبياء يصنفون ضمن الصالحين بتصريح القرآن (صغرى) ومن كان من الصالحين يدخل في ولاية الله (كبرى) فالأنبياء في ولاية الله المباشرة، وطهروا من أيّ اعوجاج وخطأ في الفكر والعمل: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[٣].

ج) الأقوال المختلفة حول العصمة

١. كلام الأئمّة عليهم السلام

إنّ عصمة الأنبياء من وجهة نظر أئمّة الدين عليهم السلام من الأصول المسلّمة والقطعيّة، وقد أصرّوا على ذلك وتداولوه في مجالسهم العلميّة. وهاهنا نشير إلى بعض الروايات بهذا الخصوص:

١. عن عليّ بن محمّد الهجم، قال:

«حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى عليهما السلام، فقال له المأمون: يا ابن رسول الله أليس أنّ الأنبياء معصومون؟ قال: بلى»[٤].

---

١. يس: ٣-٤.

٢. الحجر: ٤٠.

٣. الأعراف: ١٩٦.

٤. إبن بابويه قمى، *التوحيد*، صص ١٢١-١٣٢.

٢. قال الإمام الباقر عليه السلام في نبيّ الله أيّوب عليه السلام:

«أنّ أيّوب عليه السلام ابتلي سبع سنين من غير ذنب، وأنّ الأنبياء لا يذنبون؛ لأنّهم معصومون مطهّرون، لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنبًا صغيراً ولا كبيراً»[١].

٣. قال الإمام الصادق عليه السلام: «الأنبياء وأوصياؤهم لا ذنوب لهم؛ لأنّهم معصومون مطهّرون»[٢].

٤. وفيما كتب الرضا عليه السلام للمأمون:

«لا يفرض الله تعالى طاعة من يعلم أنّه يضلّهم ويغويهم، ولا يختار لرسالته ولا يصطفي من عباده من يعلم أنّه يكفر به وبعبادته ويعبد الشيطان دونه»[٣].

٥. روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهّرون معصومون»[٤].

وليعلم أنّ هكذا روايات كثيرة، وقد ذكرها الشيعة والسنّة في كتبهم على السواء، وإن اختلفوا في استنباط معنى العصمة وحدودها من لحاظ العلم والعمل وقبل النبوّة أو بعدها.

٢. آراء المتكلّمين

قال الشيخ الصدوق رحمه الله:

«اعتقادنا في الأنبياء والرسل والأئمّة والملائكة عليهم السلام أنّهم معصومون مطهّرون من كلّ دنس، وأنّهم لا يذنبون لا صغيراً ولا كبيراً، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ومن نفى عنهم العصمة في شيء من أحوالهم فقد جهلهم».

وقال الشيخ المفيد في شرح هذه العبارة:

«العصمة من الله تعالى، لحججه هي التوفيق واللطف والاعتصام من الحجج بهما عن الذنوب والغلط في دين الله تعالى، والعصمة تفضّل من الله تعالى، على

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٤٤، ص٢٧٥ ح٣.
٢. المصدر السابق، ج٢٥، ص١٩٩ ح٨.
٣. المصدر السابق.
٤. المصدر السابق، ج٢٥، ص٢٠١ ح ١٣.

من علم أنّه يتمسّك بعصمته... قال سبحانه: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[١] وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾[٢] والأنبياء والأئمّة عليهم السلام من بعدهم معصومون في حال نبوّتهم وإمامتهم من الكبائر كلّها والصغائر... وقد جاء الخبر بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام من ذريّته كانوا حججًا لله تعالى، منذ أكمل عقولهم إلى أن قبضهم، ولم يكن لهم قبل أحوال التكليف أحوال نقص وجهل، فإنّهم يجرون مجرى عيسى ويحيى عليهما السلام في حصول الكمال لهم مع صغر السنّ وقبل بلوغ الحلم، وليس إلى تكذيب الأخبار سبيل»[٣].

وقال الشيخ المفيد رحمه الله في النكت الاعتقاديّة عند تعريف العصمة:

«فإن قيل: ما الدليل على أنّه معصوم من أوّل عمره إلى آخره؟ فالجواب: الدليل على ذلك أنّه لو عهد منه في سالف عمره سهو أو نسيان لارتفع الوثوق عن إخباراته، ولو عهد منه خطيئة لنفرت العقول من متابعته، فتبطل فائدة البعثة»[٤].

ويقول العلّامة المجلسيّ رحمه الله:

«قال القاضي عياض: وقد قرّرنا بالبرهان والإجماع عصمته صلى الله عليه وآله من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمدًا ولا سهوًا، أو أن يشتبه عليه ما يلقيه الملك ممّا يلقي الشيطان، أو أن يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يتقوّل على الله لا عمدًا ولا سهوًا ما لم ينزل عليه»[٥].

وقال المحقّق الطوسي رحمه الله، حكيم الإسلام الكبير الذي ألّف كتاب تجريد الاعتقاد الكلاميّ القيّم لإثبات الولاية والإمامة، فقد أثبت عصمة الأنبياء بعدّة أدلّة، وقال: «**ويجب في النبيّ العصمة، ليحصل الوثوق فيحصل الغرض، ولوجوب متابعته وضدّها والإنكار عليه**»[٦].

---

١. الدخان: ٣٢.

٢. ص: ٤٧.

٣. الشيخ المفيد، ***تصحيح الاعتقاد***، ص ١٢٨.

٤. الشيخ المفيد، ***النكت الاعتقاديّة***، ص ٤١.

٥. المجلسي، ***بحار الأنوار***، ج١٧، ص٦٧.

٦. الحلي، ***كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد***، ص٣٤٩، المقصد الرابع المسألة الثالثة.

وقد شرحها العلّامة الحلّيّ رحمه الله من ثلاثة وجوه، وقال:

«أقول: اختلف الناس هنا، فجماعة المعتزلة جوّزوا الصغائر على الأنبياء إمّا على سبيل السهو كما ذهب إليه بعضهم، أو على سبيل التأويل كما ذهب إليه قوم منهم، أو لأنّها تقع محيطة بكثرة ثوابهم. وذهبت الأشعريّة والحشويّة إلى أنّه يجوز عليهم الصغائر والكبائر إلّا الكفر والكذب، وقالت الإماميّة أنّه يجب عصمتهم من الذنوب كلّها صغيرها وكبيرها؛ والدليل على وجوه:

أحدها: إنّ الغرض من بعثة الأنبياء عليهم السلام إنّما يحصل بالعصمة، فتجب العصمة تحصيلاً للغرض، وبيان ذلك أنّ المبعوث إليهم لو جوّزوا الكذب على الأنبياء والمعصية، جوّزوا في أمرهم ونهيهم وأفعالهم التي أمروهم باتباعهم فيها ذلك، وحينئذٍ لا ينقادون إلى امتثال أوامرهم، وذلك نقض للغرض من البعثة.

الثاني: إنّ النبيّ تجب متابعته، فإذا فعل معصية فإمّا أن تجب متابعته أو لا، والثاني باطل لانتفاء فائدة البعثة، والأوّل باطل لأنّ المعصية لا يجوز فعلها، وأشار بقوله: (لوجب متابعته وضدّها) إلى هذا الدليل؛ لأنّه بالنظر إلى كونه نبيًّا تجب متابعته، وبالنظر إلى كون الفعل معصية لا يجوز اتّباعه.

الثالث: إنّه إذا فعل معصية وجب الإنكار عليه لعموم وجوب النهي عن المنكر، وذلك يستلزم إيذاءه، وهو منهيّ عنه، وكلّ ذلك محال»[١].

وقد أضاف الملّا عليّ القوشجيّ في شرحه لتجريد الاعتقاد، ستّة أوجه أخرى بعد ذكره للأوجه الثلاثة المذكورة، وقال: ولزم أيضًا أمور أُخر كلّها منتفية:

منها: أن تكون شهادته مردودة؛ إذ لا شهادة للفاسق بالإجماع، ولقوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[٢].

---

١. المصدر السابق.

٢. الحجرات: ٦.

وليعلم أنّ إجماعات أهل السنّة مصدرها السقيفة حيث قالوا هناك: (لن تجتمع الأمّة على الخطأ) وزعموا أنّه دليل مستقلّ إلى جنب السنّة، وهذا بخلاف ما هو موجود في مدرسة الإماميّة؛ لأنّ الإجماع عند الفرقة الناجية وإن قُرّر بأيّ تقرير، فهو حجّة لأنّه يدخل تحت عنوان سنّة المعصوم عليه السلام، ولم يكن حجّة

ومنها: استحقاقه العذاب واللعن واللوم؛ لدخوله تحت قوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[١] وقوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٢] وقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾[٣] ولكن ذلك منتف بالإجماع ولكونه من أعظم المنفّرات.

ومنها: عدم نيله عهد النبوّة لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٤] فإنّ المراد به النبوّة والامامة التي دونها.

ومنها: كونه غير مخلص؛ لأنّ المذنب قد أغواه الشيطان، والمخلص ليس كذلك لقوله تعالى: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٥] ولكن اللازم منتف بالإجماع، ولقوله تعالى في إبراهيم ويعقوب: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾[٦] وفي يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٧].

ومنها: كونه من الشيطان ومتّبعيه واللازم للبطلان.

ومنها: عدم كونه مسارعًا في الخيرات معدودًا عند الله من المصطفين الأخيار؛ إذ لا خير في الذنب لكن اللازم منتف لقوله تعالى في حقّ بعضهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾[٨] ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾[٩][١٠].

مستقلّة أمام حجّيّة أُخرى هي السنّة، وعلى كلّ حال فإنّ كلام القوشجي على أنّ من لم تقبل شهادته في أمور الدنيا الحقيرة ولم يُسمع كلامه، فكيف تقبل شهادته في أمر الدين القويم والمستحكم؟ فهكذا شخص لا ينفع للنبوّة

١. هود: ١٨.
٢. الصفّ: ٢.
٣. البقرة: ٤٤.
٤. البقرة: ١٢٤.
٥. الحجر: ٣٩-٤٠.
٦. ص: ٤٦.
٧. يوسف: ٢٤.
٨. الأنبياء: ٩٠.
٩. ص: ٤٧.
١٠. القوشچي، *شرح تجريد الكلام*، المقصد الرابع، المسألة الثالثة.

والحاصل: أنّه تجب عصمة الأنبياء وأئمّة الدين عليهم السلام؛ بسبب التوالي الفاسدة الكثيرة التي أُشير إليها.

وليعلم أنّ المحقّق الطوسيّ رحمه الله تطرّق في مبحث الإمامة إلى عصمة الأئمّة، وذكر خمسة أدلّة؛ لأنّ ملاك النبوّة والإمامة واحد، وكما أشرنا فإنّ ملاك العصمة عند مفسّري أهل السنّة والشيعة واحد لكليهما، أي إنّ مقام النبيّ والوليّ يقتضي عصمتهما، ونضيف هذه الأدلّة الخمسة إلى باقي الأدلّة، وإن تداخل بعضها مع ما سبق ذكره.

١. «**وامتناع التسلسل يوجب العصمة**» أي إن لم يكن الإمام معصومًا، لزم افتراض إمام آخر له، وإن لم يكن هذا الإمام معصومًا أيضًا لاحتجنا إلى إمام ثالث، وسنصل بالمآل إمّا إلى التسلسل الباطل، أو إلى إمام معصوم وهو الإمام الأساسيّ.

٢. «**ولأنّه حافظ للشرع**» أي أنّ الإمام حافظ للشرع لذا تلزم عصمته؛ لأنّه لا الكتاب يتمكّن من الحافظ على الشرع، ولا السنّة ولا الإجماع ولا سائر الأدلّة والقواعد؛ لوجود اختلاف التفاسير وعدم الاطّلاع الكافي عند الآخرين. فالإمام هو الوحيد الذي يتمكّن من القيام بهذه المهمّة، ويتمكّن من حفظ الشرع، فإن كان معرّضًا للخطأ لا يمكن الاطمئنان به، والنتيجة أنّه لا تبقى العبوديّة ولا التكليف ولا الانقياد.

٣. «**ولوجوب الإنكار عليه لو أقدم على المعصية، فيضادّ أمر الطاعة**» أي لو صدر منه خطأ وجب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وهذا يضادّ أمر الله بطاعته: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[1].

٤. «**ويفوت الغرض من نصبه**» أي لو صدرت منه معصية، لزم نقض الغرض من نصبه، بمعنى لزوم امتثال الأمّة لأوامره وإطاعته من جهة، ومن جهة أخرى بما أنّ المعصية قد صدرت منه يلزم عدم متابعته.

٥. «**ولانحطاط درجته عن أقلّ العوام**» أي لو صدر منه الذنب، لزم أن يكون أدنى مرتبة من الناس العوام؛ لأنّ عقله ومعرفته وثوابه وعقابه أكثر من الآخرين، فلو

---

١. النساء: ٥٩.

صدر منه الذنب مع هذه الكمالات، لزم أن يكون أدنى رتبة من الناس حيث خضع لهذا الذنب[١].

كما أنّ العلاّمة المجلسيّ بعد جمعه لأقوال المتكلّمين وآرائهم، قدّم بحثًا ممتعًا في بحار الأنوار[٢].

وقد جوّز بعض الخوارج من الأزارقة أتباع أبي راشد نافع بن الأزرق (ت ٦٥هـ) الذنب على الأنبياء، مع اعتقادهم بأنّ كلّ ذنب كفر[٣].

وهناك فريق آخر باسم الحشويّة أتباع محمّد بن كرّام الذين أجمعوا على الجبر والتشبيه، ذهبوا إلى إمكان صدور المعصية الكبيرة من الأنبياء، سواء قبل البعثة أو بعدها[٤].

وقد ذهب بعض المعتزلة الى إمكان صدور الكبيرة على الأنبياء قبل البعثة وعدم إمكانها بعد البعثة، والبعض الآخر منهم اعتقد بعدم جواز صدور الكبيرة من الأنبياء لا قبل البعثة ولا بعدها، ولكن لا تضرّ الصغائر غير المنفّرة، ويجوز ارتكابها؛ لأنّ قلّة الثواب والجزاء بسبب ارتكاب الصغائر لا تضرّ صدق الرسالة وقبولها[٥].

وذهبت الأشاعرة إلى منع صدور المعاصي من الأنبياء بعد البعثة مطلقًا عمدًا أو سهوًا، كما منعوا الصغائر عمدًا دون سهو بشرط عدم الإصرار والإقرار، ولكن لا مانع منها قبل البعثة[٦].

٣. رأي الحكماء

يعالج الحكماء المسلمون موضوع العصمة، فضلاً عن مقام الإثبات، في مقام الثبوت ونفس الأمر أيضًا (خلافًا للمتكلّمين حيث يعالجونها في مقام الإثبات في الأعمّ

---

١. الحلي، ***كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد***، المقصد الخامس في الإمامة، المسألة الثانية.

٢. المجلسي، ***بحار الأنوار***، ج١١، صص٨٦-٩٦.

٣. الشهرستاني، ***ملل ونحل***، ج١، ص١٣٧؛ تفتازاني، ***شرح المقاصد***، ج٥، ص٤٩.

٤. تفتازاني، ***شرح المقاصد***، ج٥، ص٥٠؛ شرح الأصول الخمسة، صص٥٣٥-٥٣٧.

٥. المصدر السابق، ص٥٠.

٦. المصدر السابق، ص٥٠؛ ايجى، ***المواقف***، ص ٣٥٩.

الأغلب) بمعنى أنّ العصمة من خصائص الأنبياء النفسيّة، وعليه فإنّ برهان الحكماء يثبت العصمة بما هو أرقى من دليل المتكلّمين. لذا، عندما تصل النفس إلى مرحلة العقل المستفاد والعقل بالفعل، تحوز جميع خصائص النبوّة وعلومها وحقائقها.

وبناء على هذا، فالنبيّ معصوم في نيل الحقائق وتقبّلها من المبدأ الواجب المتعالي، كما أنّه مصون في حفظها، وكذلك فإنّه معصوم في مقام العمل بالأحكام؛ لأنّ من وصل إلى مقام ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى[١]﴾ ففي هذه المرحلة فإنّ قوّة الخيال والوهم من داخل هذا الإنسان، وكذلك الشيطان وأعوانه من الأبالسة من خارج هذا الإنسان، ضعيفة وعاجزة، فهو محفوظ من خطر الخطأ والسهو والنسيان والزلل العلميّ والعمليّ.

يقول ابن سينا في إلهيّات الشفاء بكلّ وضوح أنّ ساحة الأنبياء المقدّسة، أعلى من أن ينالها السهو والخطأ: «**الأنبياء الذين لا يؤتون من جهة غلطًا أو سهوًا**»[٢].

إنّ نفس الإنسان تنال مقام العصمة عند وصولها إلى مرحلة كمال العقل النظريّ والعمليّ، ونيل مقام الشهود والولاية التي هي نهاية السفر الأوّل من أسفار العرفاء الأربعة، ومن هذه الجهة لها قابليّة النبوّة أو الإمامة.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أمرين:

١. كما قلنا سابقًا، فإنّ العصمة مشكّكة، وإنّ مرحلتها العليا تخصّ النبيّ الخاتمﷺ ولا تكون نصيبًا لغيره، ولا يوجد دليل عقليّ أو نقليّ معتبر على لزوم حيازة هذه المرتبة العليا لباقي الأنبياء.

٢. إنّ البرهان العقليّ لم يكن ناظرًا إلى الأشخاص، ولم يكن أبدًا كالدليل اللفظيّ الذي يمكن تطبيقه على شخص أو أشخاص معيّنين، أو الاستفادة من عمومه اللفظيّ أو إطلاقه.

---

١. النجم: ٨-٩.

٢. ابن سينا، ***الهيات شفا***، المقالة الأولى، الفصل ٨.

٤. رأي العرفاء

جعل العرفاء النبّوة مبتنية على مقام الخلافة الإلهيّة، لذا يلزم ظهور أوصاف الحقّ في الإنسان الكامل كالمرآة، وهنا فخليفة الله هو الوحيد الذي تتجلّى فيه العصمة المطلقة، وخليفة الله هو الإنسان الكامل الذي يكون مظهرًا وجامعًا لجميع الأسماء الإلهيّة، وبناء على هذا فإنّ مسألة خلافة الإنسان تعدّ الحدّ الوسط في برهان العصمة.

الإنسان الكامل مظهر لجميع أوصاف الله كالعلم وغيره، وعلم الله شهود محض وحضور صرف، فلا يبقى مجال حينئذٍ للسهو والنسيان والزلل والخطأ والجهل وعدم العلم.

الإنسان الكامل مظهر فيض الله التامّ، وبواسطته يتمّ الفيض لجميع الناس والملائكة والجنّ وسائر الموجودات: «**ببقائه بقيت الدنيا، وبيمنه رزق الورى، وبوجوده ثبتت الأرض والسماء**»[١]. ولا يوجد اليوم في جميع أنحاء المعمورة إنسان كامل سوى بقيّة الله الأعظم المهديّ المنتظر عليه السلام، وهو معلّم الملائكة والإنسان، وله العصمة المطلقة وهو خليفة الله الأعظم، كما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله هو الإنسان الكامل وأفضل العالمين أيضًا، من البدء إلى الختم وله إحاطة تامّة بعالم الإمكان. وهو الشاهد والناظر على جميع الأنبياء والأمم يوم القيامة: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾[٢].

وبناء على هذا، يلزم عصمة جميع الأنبياء سيّما رسول الله صلى الله عليه وآله، كي يشهدوا بإحاطتهم على الجزئيّات الواقعة في شتّى أنحاء عالم الإمكان، بحيث لا يخفى شيء على علمهم الغزير، ويرحل عن علمهم السهو والنسيان تمامًا.

قدرة المعصوم على الذنب

يوجد خلاف على قدرة المعصوم على الذنب أو عدم قدرته على ذلك، فذهب البعض إلى أنّ شاكلة خلقة الإنسان المعصوم الجسميّة والنفسيّة، تمّ تصميمها وإبداع خصائص فيها، بحيث تقتضي عدم الإقدام على المعصية نهائيًّا. وقال البعض الآخر إنّ العصمة هي القدرة على الطاعة وعدم القدرة على الذنب.

---

١. *دعاء العديلة*.

٢. النساء: ٤١.

وذهبت الإماميّة إلى أنّ العصمة لا تنافي القدرة على المعصية، أي أنّ المعصوم يقدر على المعصية، وإلّا ما استحقّ المدح والثواب على ترك المعصية. مضافًا إلى أنّ الثواب والعقاب سوف لا يكون ذا معنى حينئذٍ، بل يلزم أن يخرج من دائرة التكليف، والحال أنّ الأمر ليس كذلك؛ لأنّ الإنسان المعصوم مكلّف، يستحقّ المدح على الطاعة كما أنّ شاكلته في الخلق لا تختلف عن باقي الناس: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾[١].

وبناء على هذا، كما أشرنا، فالعصمة عند الإماميّة ملكة يدرك الإنسان بها ومن صميم وجوده عواقب المعاصي الأليمة، كما يرى الطبيب الحاذق تطوّر المرض الخطير، والميكروبات القاتلة في جسم المريض، فلا يلامس هذا المريض بتاتًا بل يتوقّاه ويراعي المستلزمات الطبيّة ولا يقترب إلى هكذا إنسان مهما أمكن.

وفي المقام الذي لا يدخل الإنسان يده في فم الأفعى السامّة القاتلة، يحترز المعصوم أيضًا شعلة الجحيم بسبب شهوده لها، إذ إنّه يرى نار جهنّم؛ لأنّه وصل إلى مقام اليقين عن طريق المعرفة والعبادة: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[٢] وكيف لا تُخاف النار المشهودة؟!

والخلاصة في رأي الإماميّة، أنّ الأنبياء وأئمّة الدين لا يدنون أبدًا من المعاصي الصغيرة والكبيرة قبل البعثة وبعدها؛ لامتلاكهم ملكة العصمة التي هي موهبة وتفضّل إلهيّ، وساحتهم طاهرة من أيّ دنس منذ زمن التمييز وظهور العقل إلى آخر العمر.

عصمة الأنبياء في التبليغ

أشرنا إلى أنّ الأنبياء بلّغوا الوحي بتمامه وكماله إلى الناس، وقد اتّفق جميع العلماء والمتكلّمين على هذا إلّا ما شذّ منهم، وسنشير إليهم:

فقد جوّز أبو بكر الباقلاني (ت ٢٠٣هـ) الخطأ في إبلاغ الرسالة سهوًا ونسيانًا ونفى الخطأ العمديّ. وقد ادعى القاضي عبد الرحمن أحمد الإيجي الإجماع على عصمة الأنبياء في مقام التبليغ، وقال:

---

١. الكهف: ١١٠.

٢. التكاثر: ٥-٦.

«أجمع أهل الملل والشرايع كلّها على عصمتهم عن تعمّد الكذب فيما دلّ المعجز القاطع على صدقهم فيه كدعوى الرسالة وما يبلّغونه عن الله»[١].

والمعتزلة أيضًا كالأشاعرة لا تجوّز السهو والغلط في التبليغ، قال القاضي عبد الجبّار بهذا الخصوص:

«إنّا لا نجوّز عليه (النبيّ) السهو والغلط فيما يؤدّيه عن الله تعالى... لأنّه لا فرق في خروجه من أن يكون مؤدّيًا بين أن يسهو ويغلط أو يكتم أو يكذب... وإذا كان الخطأ والسهو فيما يؤدّي عن الله تعالى، لا يجوز، فتعمّد المعصية أو وقوعه على وجه المعصية بتأويل بأن لا يجوز أولى»[٢].

ويقول العلاّمة الطباطبائيﷺ من الإماميّة:

«إنّ العصمة على ثلاثة أقسام: العصمة عن الخطأ في تلقّي الوحي، والعصمة عن الخطأ في التبليغ والرسالة، والعصمة عن المعصية... ونعني بالعصمة وجود أمر في الإنسان المعصوم يصونه عن الوقوع فيما لا يجوز من الخطأ أو المعصية... وكيف كان فالقرآن يدلّ على عصمتهمﷺ في جميع الجهات الثلاث»[٣].

دلائل من جوّز الخطأ على الأنبياء

جوّز بعض المتكلّمين السهو والخطأ على الأنبياء، كما أشرنا إلى رؤيتهم، وهنا سنتناول بعض أدلّتهم على ذلك مع نقدها:

١. الآية الكريمة: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[٤].

زعم الطبريّ ومؤيّدوه أنّ للشيطان سبيلاً إلى ساحة الأنبياء المقدّسة كي يبتليهم بالنسيان ويدخلوا في حوار مع الظلمة، والحال أنّ هذا الزعم باطل مائة بالمائة؛ لأنّ

---

١. ايجى، *شرح المواقف*، ج٨، ص٢٦٣.
٢. المعتزلى، *المغني*، ج: ١٥، صص٢٨١، ٢٨٦.
٣. الطباطبائى، *الميزان في تفسير القرآن*، ج٢، ص١٣٤.
٤. الأنعام: ٦٨.

القرآن خاطب النبيّ ﷺ في الظاهر مرارًا، ولكن يقصد بذلك الناس وأمّة النبيّ ﷺ، وفيما نحن فيه فالمقصود هو تحذير الناس من الحضور في مجالس الظلمة والعاصين الذين يستهزؤون بآيات القرآن.

فالقرآن بيّن غرضه في هذه الآية هكذا: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[١].

فالكلام هنا في هذه الآية مع الناس لا النبيّ، وعليه فالغرض من هذه الآية السابقة هو نهي الناس من المشاركة في مجالس الظالمين التي يستهزأ فيها بالدين والمقدّسات، فالآية لا تدلّ على نسيان النبيّ ونفوذ الشيطان فيه، بل تشمل حصرًا من يقع في فخّ تلك المجالس.

وعليه، فإنّ مفاد تلك الآية كهذه الآية القائلة: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٢]؛ إذ طبقًا للأدلّة العقليّة والنقليّة، فإنّ الأنبياء لا يشركون بالله ولو للحظة واحدة.

٢. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾[٣].

فهذه الآية أيضًا تخاطب النبيّ ﷺ بحسب الظاهر، لكنّها في الواقع خطاب للناس؛ طبقًا للأصول والمحكمات وسائر الشواهد.

٣. قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾[٤] هذه الآية تخاطب النبيّ ﷺ بأنّك لا تنسى أبدًا آياتنا، ولكنّ قدرة الله المطلقة لم تبقَ مكتوفة اليد، فلو أرادت لتمكّنت من إنسائك لما تريد، ولكن تعلّقت إرادة الله بصيانتك من النسيان، ولذا فإنّ إقراء الله المستمرّ جاء بهذا السبب.

وليعلم أنّ رسالة هذه الآية هو المديح وتدلّ على التوحيد الأفعاليّ، وأنّ زمام جميع الأمور بيد الله حتّى ما يتعلّق بالوحي والنبوّة.

---

١. النساء: ١٤٠.
٢. الزمر: ٦٥.
٣. الكهف: ٢٣-٢٤.
٤. الأعلى: ٦-٧.

٤. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[١] وأيضًا قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[٢].

وقد نُسب النسيان والعصيان في هاتين الآيتين إلى آدمعليه السلام، والحال أنّهما لا يتوافقان مع مقام عصمته، ومن أفضل الأجوبة ما روي من درر كلام الإمام الرضاعليه السلام. حيث سُئل الإمام في مجلس المأمون وبحضور متكلّمي اليهود والنصارى والمجوس: «يا ابن رسول الله أتقول بعصمة الأنبياءعليهم السلام؟ قال: نعم، قال: فما تعمل في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ فقال: ويحك اِتق الله ولا تنسب إلى أنبياء الله الفواحش، ولا تتأوّل كتاب الله برأيك، فإنّ الله عزّ وجل، قد قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[٣][فمن لا يعلم بتأويل القرآن، فإنّ كلّ ما يقدّمه في تفسير الآيات المتشابهة يكون خطأ وخروجًا عن معاني القرآن السليمة وتغييراً لها، ويعلم من كلام الإمام الرضاعليه السلام أنّ قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ من متشابهات القرآن التي لا يحقّ تفسيرها سوى للراسخين في العلم، وهم أئمّة الدينعليهم السلام].

ثمّ قال الإمام الرضاعليه السلام:

«أمّا قوله عزّ وجلّ، في آدم: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ فإنّ الله خلق آدمعليه السلام حجّة في أرضه وخليفة في بلاده، لم يخلقه للجنّة، وكانت المعصية من آدمعليه السلام في الجنّة لا في الأرض، وعصمته يجب أن تكون في الأرض»[٤].

وبناء على هذا، فإنّ نسيان العهد، والعصيان وظلم النفس في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٥] حصلت كلّها في الجنّة ولم يكن هناك أيّ تكليف، فالجنّة كانت دار الابتلاء المتناسب مع تلك النشأة، ولكن بعدما هبط نبيّ الله آدمعليه السلام إلى الأرض، وأصبح مبعوثًا وخليفة، نال مقام العصمة، كما في قوله

---

١. طه: ١١٥.

٢. طه: ١٢١.

٣. آل عمران: ٧.

٤. المجلسي، ***بحار الأنوار***، ج١١، ص٧٣، الدينوري، ***عيون الأخبار***، ج١، ص١٧٠.

٥. الأعراف: ٢٣.

تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[١].

والجنّة التي كان فيها آدم هي جنّة البرزخ، ولم تكن الجنّة الآخرويّة الخالدة ولا صنيعة دنيويّة، كما أنّ البرزخ يقسّم بحدّ ذاته إلى النزوليّ والصعوديّ، فالبرزخ الصعوديّ هو الذي يعرج إليه الإنسان بعد الموت، وهنا يأمن الإنسان من وساوس الشيطان، وهذا البرزخ يبدأ من الموت والقبر، وقبر كلّ إنسان إمّا هو روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران.

أمّا البرزخ النزوليّ، فهو بين عالم الطبيعة والتجرّد العقليّ التامّ، ويمكن للإنسان المكوث فيه والإخبار عنه والتمتّع بنعمه وهداية الغير إليه، وربمّا يراه الآخرون ويخبرون عنه كأسامة بن زيد وإخباره عن الجنّة والنار وأهل الجنّة وأهل النار، وأيضًا من قبيل كلام الإمام السجادعليه السلام في سفر الحجّ: «**ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج**»[٢]، وكما رأى الإمام الحسينعليه السلام يوم العاشر جدّهصلى الله عليه وآله حيث بشّره باللحاق به، وكذلك الحالات المناميّة وما يسمعه الإنسان من أصوات برزخيّة، ورؤيته لصور برزخيّة، والاستفادة من أطعمة البرزخ وشرابه تارة، فهذه كلّها تتعلّق بالبرزخ النزوليّ.

ولا يوجد في جنّة البرزخ النزوليّ أيّ تكليف أو وعد ووعيد تشريعيّ، وعليه فالأمر والنهي والارتكاب والامتثال والظلم والخسران وطلب المغفرة والرحمة في تلك النشأة، كلّها معاني تتناسب مع تلك النشأة، ولم تكن بما نفهمه ونصطلح عليه من معاني في الأرض وعالم التكليف.

وبما أنّ هذا الكلام يتعلّق مباشرة بتنزيه الأنبياء وطهارتهم من كلّ عيب ونقص وزلل وسهو ونسيان وظلم، فنفصّل الكلام فيه.

د) تنزيه الأنبياء

١. نبيّ الله آدمعليه السلام

يلوح من الآيات المذكورة وبعض الآيات الأخرى، صدور زلّة من نبيّ الله آدمعليه السلام، حيث لم

---

١. آل عمران: ٣٣.

٢. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٩٦، ص٢٥٨.

يمتنع من الشجرة التي أمر بالابتعاد منها: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[١].

والمفسّرون لم يكتفوا بعدم وجود التكليف في الجنّة البرزخيّة فحسب، بل جعلوا النهي المذكور إرشاديًّا. والأمر الإرشاديّ يكون كنهي الطبيب وأمره بتناول بعض الأطعمة أو تركها، فطاعة أمر الطبيب لم يكن واجبًا مستقلاً، ولا يُعاقب المريض إذا لم يعمل به، نعم أنّه يصاب بضرر عدم الامتثال والوقوع في الحرج لمخالفة أمره، ومن هنا قالوا: إنّ عمل نبيّ الله آدم كان من قبيل ترك الأولى، بمعنى أنّ ترك العمل أفضل من العمل به، وإلاّ فلا توجد حرمة أو وجوب تشريعيّ ولا يترتّب عليه ثواب أو عقاب.

مضافًا إلى هذا، توجد حِكم وأسرار خفيّة في جميع حياة الأنبياء لا يتيسّر فهمها لكلّ أحد، وعلى سبيل المثال: فقد روي في ذيل قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[٢] عن أمير المؤمنين عليه السلام رواية قال فيها:

«وأمّا هفوات الأنبياء عليهم السلام وما بيّنه الله في كتابه في ذلك، أدلّ الدلائل على حكمة الله عزّ وجلّ، الباهرة، وقدرته القاهرة، وعزّته الطاهرة؛ لأنّه علم أنّ براهين الأنبياء عليهم السلام تكبر في صدور أممهم، وأنّ منهم يتّخذ بعضهم إلهًا، كالذي كان من النصارى في ابن مريم، فذكرها دلالة على تخلّفهم من الكمال الذي انفرد به عزّ وجلّ»[٣].

وليعلم أنّ نقل هفوات الأنبياء إنّما هو لهذه الدنيا، وأنّ تأثيرها للناس في هذه النشأة أيضًا، ولكنّ تلك الهفوات يمكن أن تكون في نشأة البرزخ النزوليّة، كما هو الحال بالنسبة إلى نبيّ الله آدم عليه السلام مع اقترانها ببعض الآثار والعبر الحكيمة.

٢. نبيّ الله نوح عليه السلام

إنّ نبيّ الله نوح عليه السلام بعد أن صنع السفينة، أدخل فيها الناس والحيوانات وطلب من

---

١. البقرة: ٣٥-٣٦.

٢. طه: ١٢١.

٣. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٣، ص٤٠٤، المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٨٩، ص٤٣، ج٩٠، ص١١٢.

ابنه أن يصعد فيها لينجو ولا يكون مع الكافرين، فعصى ابن نوح وقال سآوي إلى الجبل يعصمني من الهلاك، فقال له نوح بأن لا عاصم اليوم من قهر الله ولا نجاة إلّا بلطفه، فحال بينهما الموج وغرق ابن نوح مع الكافرين، فقال نوح عليه السلام لربّه بأنّ ابنه من أهل بيته وأنّ وعد الله لنجاة أهله حقّ، فخاطبه الله تعالى، بأنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح وإن كان وعد الله تحقّق لنجاة أهله: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ...﴾[١].

﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٢].

فهنا قد سأل نوح عليه السلام ربّه بما لم يحط به علمًا، ثمّ اعتذر وطلب العفو من الله تعالى، وإن لم يغفر الله له لكان من الخاسرين، والحال أنّ هذه الأمور تبعد عن ساحة النبيّ المعصوم.

ويقال في مقام الإجابة، أوّلًا: ما ورد عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام في قوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾[٣]. ليس بابنه، إنّما هو ابنه من زوجته على لغة طيّ، يقولون لابن المرأة ابنه[٤].

وثانيًا: ورد عن الإمام الباقر عليه السلام إنّ طلب نوح من الله ثمّ اعتذاره وطلبه للعفو إنّما كان لعدم علمه بأنّ من تبنّاه كان من الكافرين أي كان جاهلاً بالموضوع لا الحكم، لذا عندما أخبره الله عزّ وجل، فقال نوح عليه السلام كما حكى الله عزّ وجل: رب أنيّ أعوذ بك من أن أسألك ما ليس به علم[٥]. فعمل نوح كان في الواقع ترك للأولى، ولا يضرّ مقام عصمته.

وربّما يتمّ تقرير هذه الشبهة هكذا:

١. الظاهر من كلام نوح «**أنّ ابني من أهلي**» أنّه زعم أنّ هذا الشخص الهالك هو ابنه، وتلقّاه من أهله.

٢. الظاهر من قوله تعالى «**أنّه ليس من أهلك**» أنّ الشخص الهالك ليس من أهل

---

١. هود: ٤٠.

٢. هود: ٤٦-٤٧.

٣. هود: ٤٥.

٤. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١١، ص٣٣٧.

٥. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٢، ذيل آية ٤٢.

نوح، وهذا النفي تكذيب لذلك الإثبات.

ومع قطع النظر عمّا ذكر من موعظة نوح لعدم اتباع الجهل، يمكن تقرير الجواب هكذا:

١. الظاهر من عنوان (الأهل) شموله لجميع أفراد الأسرة، وعليه فابن نوح يُعدّ من أهله.

٢. إنّ أهل نوح مصونون من الطوفان والغرق بالوعد الإلهيّ.

٣. إنّ وعد الله لا يتخلّف.

هذه الأمور سبّبت سؤال نوح عليه السلام أي استعلامه من دون أن يكون سؤالاً اعتراضيًّا؛ لأنّ السؤال قد يكون استعلاميًّا وقد يكون على نحو الاعتراض، كما يقال أنّ الشخص الفلانيّ مسؤول أي بمعنى المطالبة كقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[١].

٤. يعود ملخّص جواب الله إلى التعليم أو التنبّه لا التكذيب، أي أنّ الله بقوله: «**أنّه ليس من أهلك**» وبتعليل «**أنّه عمل غير صالح**» بيّن عنوان الأهل وفسّره، وأنّ المراد من الأهل هو الأهليّة الولائيّة لا أهليّة بالهويّة.

٥. يعود هكذا تفسير وتعليم إلى رفع الجهل عن عنوان الأهل، ليعلم نوح أنّ ابنه مستثنى لا مستثنى منه: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾[٢] أي سوف ينجو الصالح ويغرق الطالح، وابنك طالح.

٦. ما وصلنا من نوح عليه السلام قوله: ﴿لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾[٣] ولم يقل (من الكافرين)، ويحتمل عدم علمه بكفر ابنه المستور أي الجهل بالموضوع.

٧. إنّ نوح عليه السلام كسائر الأنبياء يستقي علومه في كلّ لحظة من الله تعالى، وقد يكون مسألة ظهور كفر ابنه واطلاعه على أنّه عمل غير صالح أو عامل غير صالح، من هذا القبيل [أي من قبيل الظهور التدريجيّ].

---

١. الصافّات: ٢٤.

٢. هود: ٤٠.

٣. هود: ٤٢.

٣. نبيّ الله إبراهيمﷺ

إنّ دراسة حياة نبيّ الله إبراهيمﷺ تدلّ على ارتكابه للكذب، من قبيل:

١. عندما حطّم إبراهيمﷺ الأصنام، قال له الوثنيّون: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾[1] ومن الواضح أنّ نسبة تحطيم الأصنام إلى الصنم الكبير كذب وقد ارتكبه إبراهيم.

ونقول في الجواب: إنّ نفس الآية تدلّ على وجود نيّة نبيلة لدى إبراهيمﷺ، حيث أراد إيقاظ فطرة الوثنيّين. لذا قال لهم اسألوا الأصنام إن كانوا ينطقون، أي إذا لم يكن الصنم موجودًا ذا شعور وقادرًا على تلبية حوائجكم، ولا يتمكّن من الإجابة، فحقيق به أن يتحطّم وأن يصير حطبًا، والحاصل أنّ هذه الجملة الشرطيّة تدلّ على عدم ارتكاب الكذب من قبل نبيّ الله إبراهيمﷺ.

وذلك أنّ صدق القضيّة الشرطيّة وكذبها، منوط بصدق التلازم بين المقدّم والتالي أو كذبه، لا خصوص المقدّم، فمثلاً في الآية المذكورة توجد قضيّتان شرطيّتان كلتاهما صادقة ولم تكن أيّ واحدة منهما كاذبة، وإن كان المقدّم كذبًا أو في حكم الكذب، إحداهما اشتراط تحطيم الصنم الكبير بتكلّم الأصنام المكسورة، وثانيهما اشتراط عبادة الأصنام المكسورة بقدرتهم على الإجابة، وإن كان إسناد عدم التحطيم الى الصنم الكبير كذب خبريّ، وكذلك وإن كان السؤال عن الأصنام المكسورة لغو وبحكم الكذب.

٢. نقرأ في القرآن إنّ إبراهيم عندما طلب منه قومه الخروج من المدينة، نظر إلى النجوم وقال إنيّ سقيم: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[2] والحال أنّه لم يكن مريضًا، ألا يكون هذا كذبًا؟

قد ورد عن الإمام الصادقﷺ في الإجابة على هذا الإشكال:

«ما كان إبراهيم سقيمًا وما كذب، ... [وإنّما عنى] أي سأسقم، وكلّ ميت سقيم،

---

١. الأنبياء: ٦٢-٦٣.

٢. الصافّات: ٨٨-٨٩.

وقد قال الله عزّ وجلّ، لنبيّهﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾[١] أي ستموت»[٢].

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادقؑ أيضًا، قال:

«حسب فرأى ما يحلّ بالحسينؑ، فقال: أنيّ سقيم لما يحلّ بالحسينؑ[٣]. فنبيّ الله إبراهيمؑ حفظ نفسه منهم بهذه الطريقة، كي يصل إلى هدفه النبيل أي كسر الأصنام».

٣. نقرأ في القرآن أنّ نبيّ الله إبراهيم كان يطمع في غفران ذنوبه: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[٤] وهذه الآية تدلّ على ارتكابه المعصية لذا كان ينتظر الغفران ويطمع به.

قال العلاّمة الطباطبائيّ بهذا الخصوص:

«ونسبة الخطيئة إلى نفسه وهوؑ نبيّ معصوم من المعصية، دليل على أنّ المراد بالخطيئة غير المعصية بمعنى مخالفة الأمر المولويّ؛ فإنّ للخطيئة والذنب مراتب تتقدّر حسب حال العبد في عبوديّته، كما قيل: حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين. والخطيئة من مثل إبراهيمؑ اشتغاله عن ذكر الله محضًا بما تقتضيه ضروريّات الحياة كالنوم والأكل والشرب ونحوها، وإن كانت بنظر آخر طاعة منهؑ، كيف وقد نصّ تعالى، على كونهؑ مخلصًا لله لا يشاركه تعالى، فيه شيء، إذ قال: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾»[٥].

٤. ألا تدلّ الآيات التي قال فيها إبراهيمؑ عن النجوم والقمر والشمس ﴿هَذَا رَبِّي﴾[٦] على الكذب أو الانحراف العقديّ والفكريّ؟

---

١. الزمر: ٣٠.

٢. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٤، ص٤٠٦.

٣. المصدر السابق.

٤. الشعراء: ٨٢.

٥. ص: ٤٦، و الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن*، ج١٥، ص٢٨٥.

٦. الأنعام: ٧٦.

يقول الإمام الرضاعليه السلام في مقام الإجابة أنّه كان على سبيل الإنكار والاستخبار[١]. أي إنّ مضمون جميع العبارات السابقة هو النفي في قالب الإثبات، وإنكار في لباس الإقرار، وتقريع الآخرين بلسان الانتساب إلى النفس.

٤. نبيّ الله موسىعليه السلام

نشير فيما يتعلّق بنبيّ الله موسىعليه السلام في أمرين:

الأوّل: تفيد ظاهر الآيات أنّ موسىعليه السلام دخل مصر على حين غفلة من أهلها، فرأى شخصين يتنازعان واحد من شيعته من بني إسرائيل والآخر من أعدائه من قوم فرعون، فطلب الذي من شيعته العون والمساعدة على عدوّه، وموسى ضرب العدوّ بيده فقتله، ثمّ قال موسىعليه السلام: ﴿**قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[٢]. وبناء على ظاهر هذه الآيات فإنّ موسىعليه السلام قد ارتكب عملاً شيطانيًّا فظلم نفسه.

وقد أجاب الإمام الرضاعليه السلام عن سؤال المأمون بهذا الخصوص: (هذا من عمل الشيطان) يعني الاقتتال الذي كان وقع بين الرجلين لا ما فعله موسىعليه السلام من قتله، (أنّه) يعني الشيطان (عدوّ مضلّ). قال المأمون: «**فما معنى قول موسى: إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي**» قال: «**يقول: إنّي وضعت نفسي غير موضعها بدخولي هذه المدينة (فاغفر لي) أي استرني من أعدائك لئلّا يظفروا بي فيقتلوني**»[٣].

وبناء على تفسير الإمام الرضاعليه السلام هذا، فإنّ نبيّ الله موسىعليه السلام لم يرتكب أيّ خلاف أو حتّى ترك أولى.

وبعبارة أُخرى:

١. لعلّ عدوّ موسىعليه السلام كان مستحقًا للقتل، وقد ألقى الله في روع موسىعليه السلام قتله.

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١١، ص٧٩.

٢. القصص: ١٥-١٦.

٣. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١١، ص٨١.

٢. إنّ الدفاع عن المظلوم، أي صديق موسى عليه السلام، راجح أو لازم، وقد أقدم موسى عليه السلام على الدفاع عن المظلوم وهو من شيعته.

٣. ما حصل في عمليّة الدفاع هذه أي قتل العدوّ، كانت مقصودة بالتبع لا بالأصالة وكان تحقّقه راجحًا للدفاع عن المظلوم ولم يكن مرجوحًا.

٤. إنّ إسناد الظلم إلى موسى كإسناده إلى آدم في دعائه المعهود: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾[١] وإن اختلف عنه.

الثاني: نقرأ في القرآن أنّ موسى عليه السلام طلب من الله أن يراه رأي العين ثمّ تاب بعد ذلك من هذا الطلب: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

قد قال الإمام الرضا عليه السلام في جواب سؤال المأمون: إنّ كليم الله موسى بن عمران عليه السلام علم أنّ الله تعالى، أعزّ من أن يُرى بالأبصار، ولكنّه لما كلّمه الله عزّ وجلّ، وقرّبه نجيًّا رجع إلى قومه فأخبرهم أنّ الله عزّ وجلّ، كلّمه وقرّبه وناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتّى نسمع كلامه كما سمعت، وكان القوم سبعمائة ألف رجل، فاختار منهم سبعين ألفًا ثمّ اختار منهم سبعة آلاف، ثمّ اختار منهم سبعمائة ثمّ اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربّه، فخرج بهم إلى طور سينا، فأقامهم في سفح الجبل وصعد موسى عليه السلام إلى الطور، وسأل الله تبارك وتعالى، أن يكلّمه ويسمعهم كلامه. فكلّمه الله تعالى ذكره، وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام؛ لأنّ الله عزّ وجلّ، أحدثه في الشجرة وجعله منبعثًا منها حتّى سمعوه من جميع الوجوه. فقالوا: «**لن نؤمن حتّى نرى الله جهرة**».

فلمّا قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا بعث الله عزّ وجلّ، عليهم صاعقة فأخذتهم بظلمهم فماتوا، فقال موسى: يا رب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا: أنّك ذهبت بهم فقتلتهم لأنّك لم تكن صادقًا فيما ادعيت من مناجاة الله إيّاك؟

---

١. الأعراف: ٢٣.

٢. الأعراف: ١٤٣.

فأحياهم الله وبعثهم معه، فقالوا: إنّك لو سألت الله أن يريك تنظر إليه لأجابك وكنت تخبرنا كيف هو نعرفه حقّ معرفته فقال موسىعليه السلام: يا قوم إنّ الله لا يرى بالأبصار ولا كيفيّة له، وإنّما يعرف بآياته ويعلم بأعلامه، فقالوا: لن نؤمن بك حتّى تسأله. فقال موسىعليه السلام: يا ربّ إنّك قد سمعت مقالة بني إسرائيل وأنت أعلم بصلاحهم، فأوحى الله يا موسى سلني ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ وهو يهوى ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ بآية من آياته ﴿جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ يقول: رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي وأنا أوّل المؤمنين منهم بأنّك لا ترى[١].

وليعلم أنّ التحقيق بخصوص سؤال نبيّ الله موسىعليه السلام لا بدّ أن يبحث في مكانه، لاحتمال رجوع السؤال إلى موسى نفسه لا إلى قومه، والغرض منه شهود الباطن لا الرؤية الحسّيّة، أي الوصول إلى شهود خاصّ يكون من حصّة الإنسان المتعالي، كعلي بن أبي طالبعليه السلام حيث قال: «**ما كنت أعبد ربًّا لم أره**»[٢]، وذلك لو كان الغرض من السؤال صرف الرؤية الباطنيّة، فإنّها كانت متحقّقة لموسىعليه السلام، كما أنّ الرؤية الحسّيّة محالة أيضًا. وعلى كلّ حال يبقى المجال للتأمّل مفتوحًا.

٥. نبيّ الله يوسفعليه السلام

نتطرّق بخصوص نبيّ الله يوسفعليه السلام إلى أمرين أيضًا:

١. طبقًا لما ورد في الآيات القرآنيّة، فإنّها تدلّ على اقترابه من الذنب، وهذا لا يتوافق مع مقام عصمته: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٣].

يقال في مقام الإجابة بما فسّره الإمام الثامنعليه السلام للمأمون عندما سأله عن هذه الآية،

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١١، ص٨١.
٢. المصدر السابق، ج١، ص٩٧.
٣. يوسف: ٢٤.

من أنّ البرهان هو العصمة، حيث قال: لكنّه كان معصومًا، والمعصوم لا يهمّ بذنب ولا يأتيه. ثمّ قال: ولقد حدّثني أبي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: همّت بأن تفعل وهمّ بأن لا يفعل[١].

فهنا قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ بمعنى التعليل أي بما أنّه واجد للبرهان الإلهيّ، وهو ملكة العصمة أو ما يرجع إلى ملكة العصمة، همّ بترك الميل. وننوّه إلى أنّ كلّما تمّ التطرّق فيه إلى تبرير الكلام وتأويله والتصرّف في الظاهر، تظهر مرحلة من التمحّل والاحتيال، وإلّا فالشبهة تظهر للعيان مع حفظ جميع الظواهر.

٢. إنّ يوسف عليه السلام اتّهم أخوته بالسرقة وهم منها براء: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[٢].

وقد أجاب الإمام الصادق عليه السلام عن هذه الشبهة في عدّة روايات، منها ما قال: أنّهم سرقوا يوسف من أبيه، ألا ترى أنّه قال لهم حين قالوا: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾[٣] ولم يقولوا: سرقتم صواع الملك، إنّما عنى أنّكم سرقتم يوسف من أبيه[٤].

ولا بدّ هنا من الإشارة إلى عدّة نقاط:

١. تطلق السقاية تارة على السقي كقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[٥] وتارة أخرى تأتي بمعنى المشربة كالآية المبحوث عنها، وقد تكون الوعاء الذي يُكال به الحنطة لذا قيل عنه بالصواع، كما ذكر بعض أهل اللغة أنّ الصواع يأتي بمعنى الكأس.

٢. نُسب وضع السقاية في رحل الأخوة إلى يوسف عليه السلام، سواء عن طريق المباشرة أو التسبيب من حيث الأمر بذلك، ولكن ربّما لم يكن إعلان بعض حاشية الملك للسرقة منسوبًا إلى يوسف أي عندما لم يجد مسؤول الكيل السقاية اتّهموا بعض القافلة بالسرقة، وبناء على هذا لايوجد دليل واضح من الآية على إسناد السرقة إلى

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١١، ص٨٢.
٢. يوسف: ٧٠.
٣. يوسف: ٧١-٧١.
٤. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٢، ص٤٤٤.
٥. التوبة: ١٩.

الأخوة بواسطة يوسف.

٣. إنّ يوسف عليه السلام وإن علم بأنّهم سيلقون القبض على أخيه بتهمة السرقة، وإنّ هذا سوف يؤدّي إلى هتك سمعة أخيه، كما هُتك سائر الأخوة أيضًا، ولكن ربمّا يكون قد أخبر أخاه بذلك سرًّا كي لا يحزن بل يطمئن.

٤. إنّ الله تعالى، هو الذي ألقى في روع يوسف عناصر هذه الخطّة، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[١] لذا لا بدّ من تقرير القصّة صدرًا وذيلاً بحيث لا يحصل أيّ وهن لمقام العصمة الشامخة.

٥. ويحتمل أيضًا لزوم بقاء أخ يوسف عنده ليأمن الأخطار؛ لأنّه يُفهم من قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[٢] بأنّه لم يكن في مأمن من كيد الأخوة كما يوسف، ولأجل ان يبقى في مأمن منهم حصلت بعض هذه التمحّلات بإذن الله.

٦. يُفهم من الحوار الذي جرى بين أخوة يوسف وجنوده، ويؤيّد بما حصل من الفعل الخارجيّ أي فحص رحال الأخوة قبل استخراجها من رحل أخ يوسف، إنّ التهمة كانت سرقة السقاية لا فقدانها من دون حصول الاتّهام كما لم يكن القصد سرقة يوسف كما يُستظهر من بعض النصوص، بل الغرض هو سرقة السقاية نفسها، كما قال الأخ الكبير بعد هذا: ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾[٣].

وليعلم أنّ بعض الروايات التفسيريّة، مع قطع النظر عن ضعف سندها، لم تكن تحلّ المشكلة فحسب، بل تزيد الأمر تعقيدًا وإشكالاً، لذا لا بدّ للمفسّر المتضلّع الخبير لحظ جميع الجوانب.

وهنا أمر آخر وهو ما يستفاد من مجموع الروايات المتعلّقة بأعمال الأنبياء وأفعالهم،

---

١. يوسف: ٧٦.

٢. يوسف: ٨٩.

٣. يوسف: ٨١.

بوجود برامج لكلّ واحد منهم طبقًا لعالم القضاء والقدر الإلهيّ.

وقد يشير القرآن إليها في بعض الأوقات، كما يقول بخصوص ما حصل ليعقوب ويوسف عليهما السلام وأخوته ووصول يوسف إلى الملك: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾[1].

٦. نبيّ الله داود عليه السلام

ورد في القرآن: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[2].

وعليه، فإنّ استغفار داود دليل على ارتكابه المعصية المنافية لمقام العصمة، فلماذا لم يتروّ داود عليه السلام ويحقّق في أمر النعجة هل له أم لا؟ ولماذا قال قبل البحث النهائيّ بأنّه ظلمك بسؤال نعجتك كما يدّعي كثيراً من الشركاء بعضهم على بعض؟ ولماذا لم يطلب البيّنة من المدّعي، ولماذا لم يطلب التوضيح من المدّعى عليه؟ فهذه كلّها تدلّ على حصول زلّة منه.

وقد أجاب بعض المفسّرين بأنّ داود وقع في ترك الأولى، وهو الاستعجال في القضاء، وإسناد الظلم إلى الأخ الغني أمام الأخ الآخر[3].

ثمّ إنّ سكوت الأخ الكبير أمام ادّعاء الأخ الفقير وعدم اعتراضه عليه، وإن دلّ على الاعتراف الضمنيّ بظلمه له، ولكن قال الإمام الرضا عليه السلام: «**إنّ داود إنّما ظنّ أنّ ما خلق الله**

---

١. يوسف: ٧٦.

٢. ص: ٢١-٢٤.

٣. فخر الدين رازى، *تفسير الكبير*، ج٢٦، صص١٩٣-١٩٤.

عزّ وجلّ، خلقًا هو أعلم منه، فبعث الله عزّ وجلّ، إليه الملكين...»[١].

بيان ذلك: فقد ورد في التوراة المحرّفة كلام لا أساس له بخصوص نبيّ الله داود عليه السلام وقد شاع هذا الكلام بين الناس، وقد حضر علي بن الجهم مجلس الإمام الرضا عليه السلام مع المأمون، وقد جرى الحديث حول هذه القضيّة، فقال الإمام الرضا عليه السلام لعليّ بن الجهم: فما يقول من قبلكم فيه؟ فقال علي بن الهجم يقولون: إنّ داود كان في محرابه يصلّي إذ تصوّر له إبليس على صورة طير أحسن ما يكون من الطيور، فقطع صلاته وقام ليأخذ الطير فخرج إلى الدار، فخرج في أثره فطار الطير إلى السطح، فصعد في طلبه فسقط الطير في دار أوريا بن حنان، فاطلع داود في أثر الطير فإذا بامرأة أوريا تغتسل، فلمّا نظر إليها هواها، وكان أوريا قد أخرجه في بعض غزواته، فكتب إلى صاحبه أن قدّم أوريا أمام الحرب، فقدم فظفر أوريا بالمشركين، فصعب ذلك على داود فكتب الثانية أن قدّمه أمام التابوت، فقتل أوريا وتزوّج داود بامرأته.

فضرب الرضا عليه السلام على جبهته، وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، لقد نسبتم نبيًّا من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته حتّى خرج في أثر الطير، ثمّ بالفاحشة، ثمّ بالقتل. فقال: يا ابن رسول الله فما كانت خطيئته؟ فقال: ويحك إنّ داود إنّما ظنّ أنّ ما خلق الله عزّ وجلّ، خلقًا هو أعلم منه، فبعث الله عزّ وجلّ، إليه الملكين فتسوروا المحراب فقالا: «**خصمان بغى بعضنا على بعض...**».

فعجل داود على المدّعى عليه، فقال:

«لقد ظلمك بسُؤال نعجتك إلى نعاجه» فلم يسأل المدعي البيّنة على ذلك، ولم يقبل على المدعى عليه فيقول: ما تقول؟ فكان هذا خطيئة حكمه، لا ما ذهبتم إليه، ألا تسمع قول الله عزّ وجلّ، يقول: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ**﴾»[٢].

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١١، ص٧٣.
٢. ص: ٢٦.

فقلت: يا ابن رسول الله فما قصّته مع أوريا؟ فقال الرضاؑ:

«إنّ المرأة في أيّام داود كانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوّج بعده أبدًا، وأوّل من أباح الله عزّ وجلّ، له أن يتزوّج بامرأة قتل بعلها داود، فذلك الذي شقّ على أوريا»[١].

وقد كافح أمير المؤمنينؑ أمام هذا الاتّهام الذي شاع في ألسن الناس وقال: «**لا أُوتي برجل يزعم أنّ داود تزوّج امرأة أوريا إلّا جلدته حدّين: حدًّا للنبوّة وحدًّا للإسلام**»[٢].

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى عدّة أمور:

١. إنّ قضيّة زواج نبيّ الله داودؑ لو كانت متحقّقة، كما ورد في الحديث السابق، إنّما كانت بعنوان السنّة العمليّة لإثبات الجواز الشرعيّ، لا إرضاء الغريزة الشهويّة عن طريق الحرام، فلا يوجد تهافت بين الروايتين.

٢. إنّ الاستدلال بقوله ﴿يَا دَاوُودُ...﴾ إنّما كان لإبطال تلك القصّة الموضوعة، لا بيان شأن النزول، أي لم يقصد الإمام الرضاؑ نزول هذه الآية بخصوص تلك الحكاية، بل يقصد الإمام الرضاؑ أنّ الله تعالى، عندما منح داود مقام الخلافة وأنّه يليق بمنزلة الحكم بالقسط والعدل الشريفة، فلا يبقى مجال لنسج هكذا حكاية منحولة والعثور على هكذا قصّة مجعولة.

٣. إنّ لأجل علاج توهّم الذنب ودفع شبهة العصيان، المنافية للعصمة، لا حاجة إلى تغيير اتّجاه الحكاية من حالتها العاديّة إلى تمثّل الملكين ونحوها، كما أنّ قطع الصلاة، على فرض صحّتها، ربّما تكون للصلاة المستحبّة لا الواجبة. كما أنّ خوف داودؑ ربّما يكون لأجل ورود هذين الشخصين في زمان ومكان غير متعارفين.

٧. نبيّ الله سليمانؑ

لقد أشكل بعض ناقصي البصيرة على نبيّ الله سليمانؑ أنّه أخطأ، ولذا قام بالتوبة

---

١. المصدر السابق، ج١١، صص٧٣-٧٤.

٢. طبرسي، *مجمع البيان في تفسير القرآن*. ج٧، ص٤٧٢.

والإنابة، وهذا يتنافى مع مقام العصمة: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[١]. وقد اختلف المفسّرون في تفسير هذه الآيات، منها ما ورد طبقًا لرواية الإمام الصادقؑ هكذا:

«إنّ الجنّ والشياطين لمّا وُلد لسليمانؑ ابنٌ قال بعضهم لبعض: إن عاش له ولد لنلقينّ منه ما لقينا من أبيه من البلاء، فأشفقؑ منهم عليه فاسترضعه في المزن والسحاب، فلم يشعر إلّا وقد وضع على كرسيّه ميتًا تنبيهًا على أنّ الحذر لا ينفع من القدر، وإنّما عوقبؑ على خوفه من الشياطين»[٢].

وبناء على هذا، فسليمانؑ ارتكب ترك أولى، وتاب الله عليه بتضرّعه وتوبته، ولا تتنافى ترك الأولى مع مقام العصمة.

وربّما يُتوهّم أنّ سليمان كان بخيلاً؛ لأنّه طلب من الله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، كما قال علي بن يقطين: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفرؑ: أيجوز أن يكون نبيّ الله عزّ وجلّ، بخيلاً؟ فقال: لا، فقلت له: فقول سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ ما وجهه ومعناه؟ فقال: الملك ملكان، ملك مأخوذ بالغلبة والجور وإجبار الناس، وملك مأخوذ من قبل الله تعالى، كملك آل إبراهيم وملك طالوت وذي القرنين، فقال سليمانؑ: هب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي أن يقول إنّه مأخوذ بالغلبة والجور وإجبار الناس، فسخّر الله له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب... وسخّر الله عزّ وجلّ، له الشياطين لكلّ بنّاء وغوّاص وعلم منطق الطير، ومكّن في الأرض، فعلم الناس في وقته وبعده أنّ ملكه لا يشبه ملك الملوك المختارين من قبل الناس والمالكين بالغلبة والجور[٣].

٨. نبيّ الله يونسؑ

لقد اعترف يونسؑ بظلمه، كما ورد في القرآن: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ

---

١. ص: ٣٤-٣٥.

٢. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٤، ص٤٥٧.

٣. الحويزي، *تفسير نور القلين*، ج ٤، ص٤٥٩.

﴿عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[١] فلو كان غضبه من قومه حقًّا فلماذا ابتلعه الحوت ووصف نفسه بالظلم، فهذا لا يتوافق مع عصمة النبيّ، سيّما وأنّ عمله كان بمثابة من القبح حتّى قال عنه الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٢] ولكن قد شمله اللطف الإلهيّ واستجاب دعاءه ونجّاه من الغمّ؛ لأنّه كان مؤمنًا حقًّا والله تعالى، ينجي المؤمن الحقيقيّ من الغمّ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

وقيل في مقام الإجابة: إنّ يونس ارتكب ترك الأولى؛ إذ كان عليه التحمّل والصبر وعدم العجلة، لذا وُصف في القرآن بأنّه نفذ صبره سريعًا، لذا قال الله تعالى، لنبيّ الإسلامﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٤].

وقد سأل المأمون الإمام الرضاؑ عن قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ...﴾ فقالؑ: ذاك يونس بن متّىؑ ذهب مغاضبًا لقومه فظنّ بمعنى استيقن (أن لن نقدر عليه) أي لن نضيق عليه رزقه... فنادى في الظلمات (أن لا إله إلّا أنت سبحانك إنيّ كنت من الظالمين) بتركي مثل هذه العبادة التي فرّغتني لها في بطن الحوت، فاستجاب الله وقال عزّ وجلّ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٥].

وورد في رواية أُخرى أنّ رسول اللهﷺ كان في بيت أمّ سلمة في ليلتها، ففقدته من الفراش، فدخلها من ذلك ما يدخل النساء، فقامت تطلبه في جوانب البيت حتّى انتهت إليه وهو في جانب من البيت قائم رافع يديه يبكي، وهو يقول: اللهمّ لا تنزع منّي ما أعطيتني أبدًا، اللهمّ لا تشمت بي عدوّي ولا حاسدًا أبدًا، اللهمّ لا تردّني في سوء

---

١. الأنبياء: ٨٧.
٢. الصافّات: ١٤٣-١٤٤.
٣. الأنبياء: ٨٨.
٤. القلم: ٤٨-٥٠، أنظر: فخر الدين رازى، *التفسير الكبير*، ج ٣١، صص٢١٤-٢١٥.
٥. الصافّات: ١٤٣-١٤٤.

استنقذتني منه أبدًا، اللهمّ ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدًا، قال: وانصرفت أمّ سلمة تبكي حتّى انصرف رسول اللهﷺ لبكائها، فقال لها: ما يبكيك يا أمّ سلمة؟ قالت: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله ولم لا أبكي، أنت بالمكان الذي أنت به من الله وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، تسأله أن لا يشمت بك عدوًّا أبدًا و... فقال: يا أمّ سلمة وما يؤمنني، وإنّما وكّل الله يونس بن متّى إلى نفسه طرفة عين فكان ما كان[١].

والخلاصة:

١. كان يونسعليه السلام مضافًا إلى حيازته مقام النبوّة الشامخة ورسالته وعصمته، حائزًا أيضًا العناية الولائيّة الإلهيّة حيث له نصيب من نعمة تلك الولاية الإلهيّة الخاصّة، لما ورد في القرآن بهذا الخصوص: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾؛ لأنّ الغرض من هذه النعمة هو فيض الولاية الإلهيّة، ومن كان تحت ولاية الله المباشرة يكون مصونًا من الزلل، وعليه فلا يوجد أيّ انحراف وزلل في سيرة هذا النبيّعليه السلام وسنّته، كما لم يكن مورد أيّ عتاب وطعن.

٢. للصبر والاستقامة درجات متعدّدة ومختلفة، والمقدار اللازم منه الذي يُعدّ نصاب تحمّل المسؤوليّة موجود في القادة المعصومين، ولكنّ المرتبة العليا منه توجد في بعض المعصومين، وفي بعضهم الآخر تنتفي بخصوص بعض الموارد.

٣. ما حصل ليونسعليه السلام، كان فقدان المرتبة العليا من الصبر في موطن من وظيفته الراجحة لا الواجبة، وقد قال القرآن بهذا الخصوص: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[٢].

٤. حصول هذا الأمر الصعب والمؤلم من جهة، وفقدان المرتبة العليا من جهة أُخرى، أدّى إلى حصول أرضيّة النقص، وهذا هو الذي يصحّح إسناد الظلم بمعنى النقص.

---

١. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٣، ص٤٥.

٢. القلم: ٤٨.

٩. نبيّ الله زكريّا عليه السلام

يستفاد من بعض آيات القرآن الكريم أنّ زكريا شكّ في وعد الله بحيث لم يميّز بين كلام الله وكلام الشيطان ووساوسه، لذا طلب من الله علامة صدق الوعد والخبر: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[١] وبناء على الآيات السابقة لهذه الآية، فإنّ زكريا طلب الولد من الله تعالى، فبشّر بولادة يحيى، وفي هذه الآية يطلب آية على ذلك، فيجيبه الله بصيام ثلاثة أيّام وعدم التكلّم مع الناس إلّا بالإشارة، وكثرة ذكر الله والتسبيح صباحًا وعشيًّا.

يقول العلّامة الطباطبائيّ رحمه الله:

«وسؤاله عليه السلام من ربّه أن يجعل له آية، والآية هي العلامة الدالّة على الشيء، هل هو ليستدلّ به على أنّ البشارة إنّما هي من قبل ربّه، وبعبارة أخرى: هو خطاب رحمانيّ ملكيّ لا شيطانيّ؟ أو لأنّه أراد أن يستدلّ بها على حمل امرأته ويعلم وقت الحمل، خلاف بين المفسّرين.

والوجه الثاني لا يخلو عن بعد من سياق الآيات، وجريان القصّة، لكن الذي أوجب تحاشي القوم عن الذهاب إلى أوّل الوجهين أعني كون سؤال الآية لتمييز أنّ الخطاب رحمانيّ هو ما ذكروه أنّ الأنبياء لعصمتهم لا بدّ أن يعرفوا الفرق بين كلام الملك ووسوسة الشيطان، ولا يجوز أن يتلاعب الشيطان بهم حتّى يختلط عليهم طريق الإفهام.

وهو كلام حقّ، لكن يجب أن يعلم أنّ تعرّفهم إنّما هو بتعريف الله تعالى، لهم لا من قبل أنفسهم واستقلال ذواتهم، وإذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يتعرّف زكريّا من ربّه أن يجعل له آية يعرف به ذلك؟ وأيّ محذور في ذلك؟ نعم، لو لم يستجب دعاءه ولم يجعل الله له آية كان الإشكال في محلّه»[٢].

يمكن التأمّل في كلام المرحوم العلّامة الطباطبائيّ رحمه الله؛ لأنّ الشيطان يتمكّن من

---

١. آل عمران: ٤١.

٢. الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن*، ج٣، ص٢٠٧.

التصرّف في حدود جسم الأنبياء فقط، لا مرحلة تلقّي الوحي والإلهام والخواطر والوحي نفسه، ولا في حدود التبليغ والتعليم، كما نادى أيّوب عليه السلام ربّه أنّ الشيطان مسّ جسمه وسبّب عذابه وأذاه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[1].

وبناء على هذا، فإنّ زكريّا بعد ما مضت فترة من نبوّته، وتلقّي الوحي والإلهام الإلهيّ لعدّة مرات وكان يعرفه جيّدًا، كيف يطلب الآية لتشخيص الوحي، والأنبياء وإن لم يبلغوا مقام تمييز الوحي بذواتهم وبشكل مستقلّ، ولكن عندما يوصلهم الله إلى نصاب النبوّة، يحوزون الفرقان وقوّة التشخيص ويحفظونه دومًا، وإلّا لأمكن الشكّ في كل قضيّة، وطلب الآية من الله لتشخيصها وعدم اختلاط كلام الله مع وسوسة الشيطان. فمن نال مقام تلقّي الوحي، يبلغ درجة يكون فيها على بيّنة من ربّه، ويرى الحقيقة واضحة، ولا طريق حينئذٍ لأيّ وسوسة، وعليه فالاحتمال الأوّل مردود.

أمّا الاحتمال الثاني، وهو أنّ زكريّا كان بصدد طلب الآية والبيّنة لتشخيص وقت ولادة ابنه، وكان ينتظر بفارغ الصبر تحقّق هذه البشارة، سيّما وقد بلغ الكبر والشيخوخة، وكان يخاف الوارث غير المؤهّل، لذا كان بصدد التعرّف على زمن ولادة ابنه، وطلب الآية لاطمئنان قلبه وقد استُجيب، فهذا الاحتمال أقوى.

١٠. نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله

نرى في القرآن الكريم آيات تتنافى وعصمة النبيّ صلى الله عليه وآله، من قبيل:

١. قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾[2]. وطبقًا لظاهر هذه الآيات كان نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله مذنبًا قبل نزول تلك الآيات وبعد نزولها، وأنّ الله غفرها جميعًا؛ أي السابقة واللاحقة.

وقد أجاب المفسّرون أجوبة كثيرة لحلّ هذا الإشكال، منها:

أ) سأل شخص الإمام الصادق عليه السلام عن غفران ذنوب النبيّ صلى الله عليه وآله السابقة واللاحقة،

---

١. ص: ٤١.

٢. الفتح: ٢.

فقال عليه السلام: «ما كان له ذنب ولا همّ بذنب، ولكنّ الله حمّله ذنوب شيعته ثمّ غفر لها، ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيمًا وينصرك الله نصرًا عزيزًا»[١].

ب) سأل المأمون الإمام الرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله أليس من قولك إنّ الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فما معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال الرضا عليه السلام: لم يكن أحد عند مشركي مكّة أعظم ذنبًا من رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأنّهم كانوا يعبدون من دون الله... فلمّا فتح الله تعالى، على نبيّه صلى الله عليه وآله مكّة، قال له: يا محمّد... ليغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر عند مشركي أهل مكّة بدعائك توحيد الله فيما تقدّم وما تأخّر[٢].

ولا بدّ أن ننوّه إلى عدّة أمور:

١. إنّ نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله كان معصومًا ولم يكن له أيّ ذنب في حياته لا فيما تقدّم ولا فيما تأخّر.

٢. كان نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله مذنبًا في تصوّر المشركين الواهي.

٣. إنّ زعم الذنب للنبيّ يرجع إلى الأمور العقديّة والحقوقيّة.

٤. إنّ الذنب العقديّ المزعوم، هو نفي عبادة الأوثان وذمّها. والذنب الحقوقيّ قتل المشركين في غزوة بدر ونحوها.

٥. مع انتشار الإسلام وظهور التوحيد، ذهب الذنب العقديّ المزعوم، وبعد عفو رسول الله صلى الله عليه وآله الكريم للمشركين بعد فتح مكّة، ذهب الذنب الحقوقيّ المزعوم أيضًا.

٦. الغرض من الذنب المتقدّم والمتأخّر هو الذنب القديم والجديد، ولا يعني الذنب المستقبليّ.

٧. إنّ إسناد الذنب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله طبقًا لزعم المشركين، شبيه بإسناد الذنب إلى موسى طبقًا لزعم آل فرعون؛ حيث ورد بخصوصه: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٧، ص٧٦، وج٦٨، ص٢٤.

٢. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٥، ص٥٦؛ المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١١، ص٨٣.

يَقْتُلُونِ﴾[١] أي عليّ ذنب بزعمهم.

٢. قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾[٢] فالعتاب واللّوم الوارد في هذه الآية، إنّما هو لصدور عمل سيّء، فلماذا أذن للمنافقين بترك الجهاد والالتحاق بالجيش؟

قال الإمام الرضاؑ في جواب سؤال المأمون بهذا الخصوص: خاطب الله عزّ وجلّ، بذلك نبيّه وأراد به أمّته [من قبيل إيّاك أعني واسمعي يا جارة] فكذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٣] وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾[٤] قال: صدقت يا بن رسول الله[٥].

٣. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾[٦].

والسؤال الذي يُطرح هنا: لماذا كان رسول اللهﷺ يخشى الناس، ويخفي في نفسه بحيث عاتبه الله. ألا تتنافى هذه الأمور مع عصمة النبيّ؟

وقد أجاب الإمام الرضاؑ عن هذا السؤال لعليّ بن الجهم، حيث قال: إنّ الله تعالى، عرّف نبيّهﷺ أسماء أزواجه في دار الدنيا، وأسماء أزواجه في الآخرة وأنّهنّ أمّهات المؤمنين، وإحداهنّ سمّى له زينب بنت جحش وهي يومئذ تحت زيد بن حارثه، فأخفىﷺ اسمها في نفسه ولم يبده لكيلا يقول أحد من المنافقين أنّه قال في امرأة في بيت رجل أنّها أحد أزواجه من أمّهات المؤمنين، وخشي قول المنافقين، قال الله عزّ

---

١. الشعراء: ١٤.
٢. التوبة: ٤٣.
٣. الزمر: ٦٥.
٤. الإسراء: ٧٤.
٥. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١١، ص٨٣.
٦. الأحزاب: ٣٧.

وجلّ: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾[١].

وبناء على هذا، فخشية النبيّ ﷺ كانت من أراجيف المنافقين، فرأى من المصلحة عدم الإخبار باسم زينب بنت جحش ابنة عمّته؛ لأنّها كانت في حبالة غيره، ولكن بما أنّ إرادة الله تعلّقت بكسر سنن الجاهليّة (وهي زعمهم عدم صحّة الزواج من زوجة الربيب بعد الطلاق)، أظهر ما أخفاه النبيّ ﷺ ليثبت قانون الله ويتمّ الإعلان عنه، وقد أوجب الله هذه السنّة على نبيّه، كما أنّها كانت جارية أيضًا في سنن باقي الأنبياء الماضين، وحكم الله نافذ وحتميّ: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾[٢].

٤. الآيات في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾[٣].

وقد قال بعض الجهلاء بمنطق الوحي والنبوّة أنّ قوله «**ضالًّا**» يعني الضلال والكفر. وبناء عليه، فإنّ النبيّ ﷺ كان ضالًّا فيما مضى فلم يكن معصومًا كاملاً. وهنا، وإن أجاب مفسّرو الشيعة والسنّة أجوبة عدّة، ولكن نقتصر هنا على جواب أهل البيت عليهم السلام وتفسيرهم حصرًا.

قال الإمام الثامن عليه السلام: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ فردًا لا مثل لك في المخلوقين فآوى الناس إليك ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أي ضالّة في قوم لا يعرفون فضلك فهداهم إليك ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ تعول أقوامًا بالعلم فأغناهم بك[٤].

وقد روى علي بن إبراهيم في تفسيره أيضًا هذا المعنى نفسه عن زرارة عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام[٥].

٥. أسطورة الغرانيق: لقد أشرنا أنّ الأنبياء معصومون في حدود أخذ الوحي وحفظه وتبليغه وبيان الأحكام، وكذلك في مجال الأعمال والأفعال، وأنّ الشيطان ووساوسه لا

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١١، ص٧٤؛ الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٤، ص٢٨١ ح١٢٩.
٢. الأحزاب: ٣٨.
٣. الضحى: ٦-٨.
٤. طبرسي، *مجمع البيان في تفسير القرآن*. ج١٠، ص٥٠٦.
٥. القمي، *تفسير قمي*، ج٢، ص٤٢٧.

طريق له فيهم مطلقًا، كما لا يتطرّق إليهم السهو والنسيان، بمعنى عصمتهم في نطاق العلم والجزم العمليّ، وفي حدود العمل والعزم العمليّ.

غير أنّ الوضّاع لم يكفّوا عن التخيّل والوساوس والشيطنة، فنسجوا للأنبياء نسيجًا كبيت العنكبوت، وتمسّكوا بهذه الآية لمآربهم الشيطانيّة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١].

فنسجوا قصّة الغرانيق الكاذبة تمامًا، بأنّ النبيّ ﷺ بعدما رأى اعراض المشركين عنه، ثقل عليه ذلك وتألّم منه، وتمنّى نزول شيء من قبل الله يسبّب في التقارب بين الناس، لشدّة حرصه على أن يؤمن الناس، وبناء على هذا قد كان جالسًا في يوم من الأيّام في محفل مزدحم لقريش، وفيه نزلت آيات سورة النجم، وبدأ النبيّ ﷺ بتلاوتها: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى... أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾[٢] وفي هذه الحالة قد أجرى الشيطان على لسانه: «**تلك الغرانيق العلى، منها الشفاعة لترتجي**».

فلمّا سمعت قريش هذا (أي مدح آلهتهم) دخلها السرور والفرح وسجدت، بل سجد كلّ من كان في المسجد من مسلم وكافر تبعًا للنبيّ في نهاية السورة إلّا الوليد بن المغيرة وسعيد بن العاص حيث لم يتمكّنا من السجود للشيخوخة وكبر السن، ولكن رفعا حفنة من التراب بأيديهما وسجدا عليه. ثمّ تفرّقت قريش بكلّ سرور وفرح، وعندما جنّ الليل جاء جبرئيل وسأل النبيّ: ماذا صنعت؟ هل قرأت على الناس ما لم ينزل من قبل الله ولم أتلُه عليك؟ فحزن حينئذٍ الرسول كثيراً وخاف جانب ربّه، فنزلت الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ...﴾ أي لم تكن وحيدًا في مسّ الشيطان، بل لم يخل نبي من الابتلاء بذلك.

وقد كذّب هذه القصّة الفخر الرازي وكثير من علماء أهل السنّة ومفسّريهم ومؤرّخيهم وقاطبة علماء الشيعة، وأنها لا سند لها وفيها نتائج غير صحيحة كثيرة:

١. إنّ إمكانيّة سهو النبيّ ﷺ في تلقّي الوحي وإبلاغه، تفتح الباب أمام إمكانيّة سهوه في مسائل أُخر.

---

١. الحجّ: ٥٢.

٢. النجم: ١-٢٠.

٢. توجيه التهمة إلى الأنبياء بوجود السهو في تلقّي الوحي عندهم؛ لأنّ طبقًا لهذه الحكاية المنحولة، تمّ إلصاق السهو لجميع الأنبياء تسليةً للنبيّ ﷺ.

٣. تمكّن الشيطان من النفوذ والتصرّف في الوحي، غير أنّ الله يلغي كلام الشيطان وإلقائه ويحكم آياته: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾.

٤. إنّ قصّة الغرانيق وإقحامها ضمن تلك الآيات، تغيّر انسجام آيات سورة النجم ونسقها وقد اتّفق المفسّرون أنّها نزلت دفعة واحدة، وتوجب عدم التناسق بين الآيات والتناقض الواضح (إذ جميع القرآن سيّما خصوص سورة النجم، تتطرّق إلى دحض الأصنام وعبادة الأصنام وذمّ اللاّت والعزّى والمناة، ثمّ تأتي هذه الآيات من جهة أخرى وتجعلها غرانيق وطيور جميلة كي تكسب قلوب المشركين).

٥. إنّ قصّة الغرانيق تستند إلى رواة كذّابين غير موثوق بهم، إنّهم لم يدركوا أنّ الوحي مصون من أيّ تحريف للشيطان ونفوذه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[١] تقول الملائكة إنّ جميع شؤونها، أعمّ من المبادئ المتقدّمة والآثار والمعاليل المتأخّرة، كلّها تحت إرادة الله، والله تعالى، منزّه من النسيان ومبرّأ من أيّ سهو.

كما أنّ النبيّ ﷺ معصوم أوّلاً في تلقّي الوحي: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[٢] وثانيًا: في مقام الحفظ وعدم النسيان: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾[٣] وثالثًا: في مقام الإنشاء والإبلاغ حيث لم يقل سوى الوحي الخالص: ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٤] رابعًا: انه مبرأ من الكتمان والبخل في مقام المسؤوليّة: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[٥] علمًا بأنّ الغرض من النطق في قوله: ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ لم يكن خصوص

---

١. مريم: ٦٤.
٢. النمل: ٦.
٣. الأعلى: ٦.
٤. النجم: ٣-٤.
٥. التكوير: ٢٤.

اللفظ، بل يشمل كلّ ما يظهر منه كوحي إلهيّ يخصّ الدين الإلهيّ، سواء أكان نطقًا أم عملاً فإنّه بأمر الله، وحتّى شاكلة السكوت في مقام البيان أيضًا.

وليعلم أنّ أعداء الدين والبشريّة يتمسّكون بين الحين والآخر بأسطورة الغرانيق، ويزعمون بخيالهم الفاتر إلقاء الوسوسة في تعاليم الأنبياء السامية، كي تتزلزل أُسس الدين ويساق الناس نحو الإباحيّة واللائيكيّة. فان نشر كتاب الآيات الشيطانيّة الموهن، وإعادة إحياء قصّة الغرانيق ينشأ من هذه الفكرة العنكبوتيّة الأمبرياليّة، وهي محكومة بالفناء: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾[1] وهذا والحال إنّ جميع المتفكّرين والعلماء في العالم، يخضعون لمقام الأنبياء المقدّس سيّما محمّد بن عبد اللهﷺ وتعاليمه السماويّة، ويكتبون الكتب في عظمة نتائج تعاليمه الوحيانيّة، ويجثون كلّ يوم في بحار عظمته ليصطادوا من علمه الإلهيّ الدرر ويقدّمونها لعالم البشريّة.

٦. قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾[2].

يقول الفخر الرازي:

«قال أهل العلم: هذه الآية تدلّ على أنّ الخطأ والنسيان جائزان على الرسول؛ لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ والتعمّد في مثل هذا غير جائز على الرسول، فلم يبق إلّا الخطأ والنسيان»[3].

ولكن هذا الاستدلال غير تامّ، والنبيّ لا يصاب بالفتنة ولا الخطأ والنسيان، وذلك أوّلًا: أنّ ملكة العصمة تمنعه من ذلك؛ إذ ملكة العصمة كالعلم بحقيقة النار الذي ينتبه الإنسان دومًا اليها في حالة السهو والنسيان والفتنة، حتّى إنّ المجانين والسفهاء إذا بقي لهم أدنى شعور، لا يلقون في أنفسهم في النار.

وثانيًا: لو جوّزنا الخطأ والنسيان عليهم، فلربمّا نسوا نفس هذه الجملة: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ

---

١. الرعد: ١٧.

٢. المائدة: ٤٩.

٣. فخر الدين رازى، *تفسير الكبير*، ج ١٢، ص١٦.

﴿يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ كي لا ينال عصمتهم ضرر بحسب زعمكم

ثالثًا: إنّ التكليف بالتحرّز من الفتنة والحذر من متابعة أهواء المخالفين، لا يستلزم إمكان الارتكاب العاديّ؛ وذلك أنّ الإنسان المعصوم مكلّف طيلة حياته بإتيان جميع الواجبات وترك جميع المحرّمات، ولم يكن الأمر بامتثال الواجب والانتهاء من الحرام بمعنى إمكان التخلّف العاديّ.

٧. قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[1] والشبهة هي أنّ النبيّ لو كان معصومًا، فما معنى استغفاره وطلب الرحمة من الله وتقديم الاعتذار المتكرّر؟ فمن المعلوم أنّ الاعتذار والاستغفار يكون فيما لو كان هناك ذنب أو زلل.

وللعلّامة الطباطبائيّ كلام هنا يمكن أن يكون جوابًا لهذه الشبهة، حيث يقول:

«الظاهر أنّ الاستغفار هاهنا هو أن يطلب من الله سبحانه، الستر على ما في طبع الإنسان من إمكان هضم الحقوق والميل إلى الهوى ومغفرة ذلك، ... فالمعنى والله أعلم: ولا تكن للخائنين خصيمًا ولا تمل إليهم، واطلب من الله سبحانه، أن يوفّقك لذلك ويستر على نفسك أن تميل إلى الدفاع عن خيانتهم ويتسلّط عليك هوى النفس، والدليل على إرادة ذلك ما في ذيل الآيات الكريمة: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾[2] الآية تنصّ على أنّهم لا يضرّون النبيّ ﷺ وإن بذلوا غاية جهدهم في تحريك عواطفه إلى إيثار الباطل وإظهاره على الحقّ، فالنبيّ ﷺ في أمن إلهيّ من الضرر، والله يعصمه فهو لا يجور في حكمه ولا يميل إلى الجور ولا يتّبع الهوى...

فقد بان من جميع ما قدّمناه أنّ هذه الموهبة الإلهيّة التي نسمّيها قوّة العصمة، نوع من العلم والشعور يغاير سائر أنواع العلوم في أنّه غير مغلوب لشيء من القوى الشعوريّة البتّة، بل هي الغالبة القاهرة عليها المستخدمة إيّاها،

---

١. النساء: ١٠٥-١٠٦.

٢. النساء: ١١٣.

ولذلك كانت تصون صاحبها من الضلال والخطيئة مطلقًا، وقد ورد في الروايات أنّ للنبيّ والإمام روحًا تسمّى روح القدس تسدّده وتعصمه عن المعصية والخطيئة، وهي التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[١] بتنزيل الآية على ظاهرها من إلقاء كلمة الروح المعلّمة الهادية إلى النبيّ ﷺ، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[٢]...إنّ المراد به تسديد روح القدس الإمام بفعل الخيرات وعبادة الله سبحانه»[٣].

وليعلم أنّ بكاء الأنبياء والأئمّة وأنينهم وتضرّعهم، لم يكن بسبب صدور زلل أو معصية منهم، بل إنّ البكاء سلاح المؤمن، والمؤمن لا بدّ أن يكون متسلّحًا دائمًا كي لا يهجم عليه العدوّ الذي أقسم بإغوائه وإذهاب جلبات التقوى عنه وجعله خاسرًا دائمًا.

وبناء على هذا، فالنبيّ ﷺ وأهل البيت عليهم السلام مصونون من دنس الذنب والخطأ والرجس والزلل بتصديق آية التطهير، وأنّ سبب استغفارهم أن لا يوجب ارتباطهم مع عالم الكثرة الرين والضيق في قلوبهم، وبعبارة أخرى: إنّ استغفارهم لدفع الخطر لا لرفعه.

كما أنّ استظهار العصمة من قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ﴾[٤] وتوهّم أنّ النبيّ كان ميّالاً إلى الجدال لصالح الخونة، مردود أيضًا؛ لأنّ ملكة العصمة تمنع الميل النفسانيّ، ولا يقدّم العدل الممثّل لصالح الظلم أبدًا، ولا يثور لأجله أيضًا.

روايات سهو النبيّ ﷺ

لقد أشرنا إلى أنّ الإماميّة تعتقد بعصمة الأنبياء وأئمّة الدين عليهم السلام، كما يعتقدون بعدم وجود أيّ سهو ونسيان وخطأ عند الأنبياء في أعمالهم وفي أخذ الوحي وحفظه وتبليغه وتنفيذه، وإلّا

---

١. الشورى: ٥٢.
٢. الأنبياء: ٧٣.
٣. الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن*، ج٥، صص٧٣-٧٤، ٨١-٨٢.
٤. النساء: ١٠٧.

يرتفع اطمئنان الناس ووثوقهم بهم؛ لأنّ احتمال الزلل فيهم يرفع الاطمئنان والسكون تمامًا. ومع هذا، فقد وردت روايات في كيفيّة صلاة رسول اللهﷺ بأنّه صلّى ركعتين في الرباعيّة وسلّم وأتمّ الصلاة، أو أنّه صلّى الرباعيّة خمس ركعات: «**إنّ رسول اللهﷺ سها فسلّم في ركعتين (ثمّ ذكر حديث ذي الشمالين فقال) ثمّ قام فأضاف ركعتين**». قال زيد الشحّام:

«إنّ نبيّ اللهﷺ صلّى بالناس ركعتين ثمّ نسي حتّى انصرف، فقال له ذو الشمالين: يا رسول الله أحدث في الصلاة شيء؟ فقال: أيّها الناس أصدق ذو الشمالين؟ فقالوا: نعم، لم تصلّ إلّا ركعتين، فقام فأتمّ ما بقي من صلاته»[١]. وقد روي هذا الحديث عن أبي هريرة سابقًا.

ونشير هنا إلى آراء العلماء حول سهو النبيّﷺ:

قال الشيخ الطوسيّرحمه الله في التهذيب: «**وهذا ممّا تمنع العقول منه**»[٢] وقال في كتاب الاستبصار حول حديث ذي الشمالين في سهو النبيّ: «**ممّا تمنع منه الأدلّة القاطعة في أنّه لا يجوز عليه السهو والغلط**»[٣].

ويقول الشيخ الصدوقرحمه الله:

«المعروف بقبول روايات سهو النبيّ وليس سهو النبيّﷺ كسهونا؛ لأنّ سهوه من الله عزّ وجلّ، وإنّما أسهاه ليعلم أنّه بشر مخلوق فلا يتّخذ ربًّا معبودًا من دونه، وليعلم الناس بسهوه حكم السهو متى سهوا، وسهونا من الشيطان وليس للشيطان على النبيّﷺ والأئمّةعليهم السلام سلطان: إنّما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم ب يشركون وعلى من تبعه من الغاوين»[٤].

وبناء على هذا، فإنّ سهو النبيّ يختلف عن إسهاء النبيّ، فإسهاء النبيّ يرجع إلى قدرة الله المطلقة التي لا ينكرها أحد، فسهو النبيّ مثل موت النبيّ وما شاكل.

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٧، ص١٠١.

٢. الطوسي، *تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للشيخ المفيد*، ج٢، ص١٨١.

٣. الطوسي، *الاستبصار فيما اختلاف من الأخبار*، ج١، ص٣١٨.

٤. إبن بابويه قمى، *من لا يحضره الفقيه*، ج١، ص٣٦٠.

علمًا بأنّ مسألة سهو النبيّﷺ ونسيانه ممّا لا يوافق عليه كثير من علماء أهل السنّة وقاطبة الشيعة، لذا قال المحقّق الطوسيّ في تجريد الاعتقاد: «**ويجب في النبيّ العصمة ليحصل الوثوق... وعدم السهو**». وقال العلاّمة الحلّي في شرح التجريد: «**ويجب في النبيّ... أن لا يصحّ عليه السهو لئلاّ يسهو ما أمر بتبليغه**»[١].

وقال المحقّق الأوّل في كتاب النافع: «**والحقّ رفع منصب الإمامة عن السهو في العبادة**»[٢] وقال العلاّمة الحلّي في كتاب المنتهى: «**هذا الحديث عندنا باطل لاستحالة السهو على الأنبياء**»[٣].

كما ذهب في هذا الكتاب وفي كتاب التذكرة بعد ذكر خبر أبي هريرة عن ذي اليدين، إلى بطلانه لعدّة جهات: ١) يتضمّن السهو في حقّ النبيّﷺ وهو محال عقلاً. ٢) لقد أسلم أبو هريرة بعد موت ذي اليدين بسنتين[٤].

وقال الشهيد الأوّل في الذكرى بعد ذكر خبر ذي اليدين: «**وهو متروك بين الإماميّة لقيام الدليل العقليّ على عصمة النبيّ عن السهو**»[٥]. وقال الفاضل المقداد: «**لا يجوز على النبيّﷺ السهو مطلقًا أي في الشرع وغيره**»[٦].

وقال العلاّمة المجلسيّ بعد ذكر ما تقدّم من الكلام النافع:

«إنّ أصحابنا الإماميّة أجمعوا على عصمة الأنبياء والأئمّةﷺ من الذنوب الصغيرة والكبيرة عمدًا وخطأ ونسيانًا قبل النبوّة والإمامة وبعدهما، بل من وقت ولادتهم إلى أن يلقوا الله سبحانه، ولم يخالف فيه إلاّ الصدوق محمّد بن بابويه وشيخه ابن الوليد (قدّس الله روحهما) فجوّزا الإسهاء من الله تعالى، لا السهو الذي

---

١. الحلي، *كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد*، ص٣٤٩-٣٥٠.
٢. الحلي، *النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر*، ص ٤٥.
٣. الحلّي، *منتهى المطلب*، ج١، ص٤١٩.
٤. المصدر السابق، ج١، ص٣٠٨، *التذكرة* الفصل الثالث في التروك.
٥. العاملي، *ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة*، ص٢١٥.
٦. السيوري، *نضد القواعد الفقهيّة*، ص ٦٨-٦٩.

يكون من الشيطان، ولعلّ خروجهما لا يخلّ بالإجماع لكونهما معروفي النسب. وأمّا السهو في غير ما يتعلّق بالواجبات والمحرّمات كالمباحات والمكروهات فظاهر أكثر أصحابنا الإجماع على عدم صدوره عنهم؛ ويدلّ على جملة ذلك كونه سببًا لتنفير الخلق منهم، ولما عرفت من بعض الآيات والأخبار في ذلك، لا سيّما في أقوالهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ...﴾ وفي الخبر المشهور عن الرضاؑ في وصف الإمام: (فهو معصوم مؤيّد موفّق مسدّد قد أمن من الخطأ والزلل والعثار) ...وعن أمير المؤمنينؑ: (فمنها أن يعلم الإمام المتوليّ عليه أنّه معصوم من الذنوب كلّها صغيرها وكبيرها، لا يزلّ في الفتيا، ولا يخطئ في الجواب، ولا يسهو ولا ينسى، ولا يلهو بشيء من أمر الدنيا»[1].

ثمّ يشير إلى ما كتب من رسائل مفردة في ردّ سهو النبيّﷺ، منها كتاب الشيخ المفيد الجميل في هذا الخصوص.

يرى الشيخ المفيد أنّ روايات سهو النبيّ من وضع النواصب (أعداء أهل البيت) ومقلّديهم من الشيعة، سيّما أنّ اختلاف الروايات في أنّ هذه الصلاة كانت صلاة الظهر أو العصر أو العشاء، دليل على ضعفها وسقوطها من الحجّيّة، ويوجب الحكم بترك العمل بها. يقول الشيخ المفيد:

«إنّ الرواية له من طريق الخاصّة والعامّة، كالرواية من الطريقين معًا أنّ النبيّﷺ سها في صلاة الفجر وكان قد قرأ في الأولى منهما سورة النجم حتّى انتهى إلى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾. فألقى الشيطان على لسانه (تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهنّ لترتجى) ثمّ نبّه على سهو فخرّ ساجدًا فسجد المسلمون وكان سجودهم اقتداء به، وأمّا المشركون فكان سجودهم سرورًا بدخوله معهم في دينهم...

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٧، صص١٠٨-١١٢.

ولو جاز أن يسهو النبيّﷺ في صلاته وهو قدوة فيها حتّى يسلّم قبل تمامها، وينصرف عنها قبل إكمالها، ويشهد الناس ذلك فيه ويحيطوا به علمًا من جهته، لجاز أن يسهو في الصيام حتّى يأكل ويشرب نهارًا في شهر رمضان بين أصحابه وهم يشاهدونه ويستدركون عليه الغلط، وينبّهونه بالتوقيف على ما جناه... ويسهو في الحجّ حتّى يجامع في الإحرام، ويسعى قبل الطواف، ولا يحيط علمًا بكيفيّة رمي الجمار، ويتعدّى من ذلك إلى السهو في كلّ أعمال الشريعة حتّى ينقلها عن حدودها، ويضعها في غير أوقاتها، ويأتي بها على غير حقائقها، ولم ينكر أن يسهو عن تحريم الخمر فيشربها ناسيًا أو يظنّها شرابًا حلالاً ثمّ ينفصل بعد ذلك لما بين عليه من صفتها، ولم ينكر أن يسهو فيما يخبر به عن نفسه وعن غيره ممّن ليس بربّه... وهذا ما لا يذهب إليه مسلم ولا غال ولا موحّد، ولا يجيزه على التقدير في النبوّة ملحد... [ومضافًا إلى هذا فإنّ ذا اليدين غير معروف] وما وجدنا في أصول الفقهاء ولا الرواة حديثًا عن هذا الرجل ولا ذكرًا له»[1].

والحاصل: إنّ سهو النبيّﷺ مردود من جميع الجوانب، وإنّ المعرفة التامّة للنبوّة، والمعرفة الكاملة للرسول الأكرمﷺ، تنفي أيّ شائبة من النقص أو العيب العمليّ عنهﷺ عند ذهن المحقّق المتعمّق.

---

١. المجلسي، ***بحار الأنوار***، ج١٧، صص١٢٤-١٢٩.

القسم الثالث

النبوّة الخاصّة

الفصل الأوّل

دلائل نبوّة نبيّ الإسلام

أوّلًا: ادّعاء النبوّة وتصديق الله

لقد ادّعى نبيّ الإسلامﷺ النبوّة، وشهد الله تعالى، لهذا المدّعى شهادة لفظيّة قوليّة، وشهادة فعليّة. وليعلم أنّ ثبوت الشهادة اللفظيّة تتوقّف على كون القرآن الكريم كلام الله؛ لأنّه في هذه الحالة يمكن عدّ الآية القرآنيّة شهادة قوليّة من قبل الله؛ لأنّها معجزة والإعجاز، سيّما لو كان خالدًا، علامة الصدق.

وقد ذُكرت الشهادة اللفظيّة والقوليّة في آيات كثيرة من القرآن، من قبيل:

١. ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[١].

٢. ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ...﴾[٢] وعليه، فهو نبيّ وقد شهد الله على حقّانيّة الكتاب المنزل عليه.

٣. ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[٣] وقد خاطب الله النبيّ في هذه الآية بالرسول، وقد شهد عليه أيضًا.

٤. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[٤].

٥. ادّعى النبيّ النبوّة، وقال إنّ القرآن هو الكتاب المنزل من قبل الله، وأشهد الله

---

١. يس: ١-٣.

٢. النساء: ١٦٦.

٣. النساء: ٧٩.

٤. الرعد: ٤٣.

على هذا الأمر: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[١].

٦. الآيات التي ذكرت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ و ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ وتخاطب النبيّ الأكرمﷺ أو تذكره بالاسم مباشرة، وهي تدلّ على نبوّته، من قبيل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ...﴾[٢] و ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[٣] و ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[٤].

٧. الآيات التي يُأمر فيها النبيّ بتبليغ رسالته العالميّة وإعلانها للعالمين، من قبيل: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٥].

٨. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا...﴾[٦].

٩. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[٧].

١٠. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٨].

ولأجل إثبات صحّة دعوى النبوّة، يلزم وجود عدّة أمور أُخرى، هي:

أ) الإعجاز وهو خرق العادة، كالإتيان بالمعجزات.

ب) التحدّي، وهو التساوي والمعارضة في أمرٍ، ودعوة الخصم وعجزه والتغلّب عليه. لذا دعى نبيّ الإسلامﷺ الجنّ والإنس للإتيان بمثل القرآن: عشر آيات أو

---

١. الأحقاف: ٨.
٢. المائدة: ٤١.
٣. الأحزاب: ٤٠.
٤. الأحزاب: ٤٥.
٥. الأعراف: ١٥٨.
٦. سبأ: ٢٨.
٧. الأنعام: ٩٠.
٨. الأنبياء: ١٠٧.

سورة واحدة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١].

ج) عجز الناس عن التحدّي، لم يُعهد من صدر الإسلام إلى يومنا الحاضر أنّ شخصًا أو جمعًا من الناس تمكّنوا من مجاراة سور القرآن، والإتيان بسورة من مثله، نعم يظهر بين الحين والآخر بعض المدّعين غير أنّه يسقط قبل تمكّنه من القيام بهذا الأمر.

د) مطابقة المعجزة مع المدعى، إنّ طالبي المعجزة، قد رأوا معاجز النبيّ ﷺ طبقًا لما طلبوه، كشقّ القمر، وتسبيح الحصى في يده، واستدعاء الشجرة و...، على خلاف مدّعي النبوّة الكاذبين حيث سبّبوا العمى للعين البصيرة و....

وهنا، لا بدّ من التطرّق إلى أصل المعجزة، وأيضًا معاجز نبيّ الإسلام ﷺ.

ثانيًا: معاجز نبيّ الإسلام ﷺ

قبل بيان معاجز نبيّ الإسلام ﷺ، لا بدّ من التذكير بعدّة أمور حول أصل المعجزة.

المعجزة هي تصديق الله الفعليّ وشهادته للنبيّ، وهي بيّنة عمليّة على صدق دعوى النبوّة، وأمر خارق للعادة يحدث على يد مدّعي النبوّة مطابقًا لدعواه، بحيث يعجز الناس عن الإتيان بمثله.

الهدف من المعجزة، إظهار صدق من ادّعى الرسالة من قبل الله، كجعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم ؑ، وجفاف النيل لعبور موسى ؑ، وإحياء الأموات على يد عيسى ؑ، وانزال القرآن على يد رسول الله ﷺ ولسانه.

وليعلم أنّ المعجزة أمر خارق للعادة، ولم يكن عملاً مخالفًا لقانون العلّيّة. والمعجزة أيضًا تتبع إرادة صاحب الإعجاز القويّة وقداسته، بحيث ينساق الجسم تحت اختيار الروح المجرّدة، بمعنى أنّ هذه الحالة الشاقّة تحصل بأمر الله، وتؤسّس بنيان دين ومذهب جديد، وتدلّ على قدرة الله تعالى، غير المتناهية، والنبيّ ﷺ بهذا العمل [أي

---

١. البقرة: ٢٣.

بالمعجزة] يجيب على طلب المنكرين من جهة، وتكون تصديقًا إلهيًّا من جهة ثانية حيث أجرى المعجزة على يده.

فالمعجزة تبيّن النبوّة الخاصّة وتصدّقها، وقد شيّد كلّ نبيّ رسالته ومذهبه بمعجزة خاصّة مستحكمة.

١. معجزة القرآن

لقد تجاوز نطاق إعجاز القرآن، الحدود الجغرافيّة الزمانيّة، بحيث هيمن على ما وراء الزمان والمكان، خلافًا لمعاجز سائر الأنبياء السابقين، حيث اختصّت بمقطع خاصّ وخاطبت طبقة خاصّة، ولو لم يكن القرآن لربمّا أمكن الشكّ في صحّتها التاريخيّة.

فهل يمكن أن تصير النار بردًا: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا...﴾[١] أو العصى ثعبانًا: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ...﴾[٢] أو يمكث إنسان لمدّة غير محدّدة في بطن الحوت، ثمّ يلقى سالمًا على الأرض؟ والملفت للنظر أنّ يونس لو لم يكن من المسبّحين للبث في بطن الحوت إلى يوم القيامة هكذا: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٣] وهل يعقل ضرب الحجر بالعصى لتنفجر منها اثنتا عشرة عينًا؟

ومعنى خصوصيّة معاجز الأنبياء السابقين، لا يعني أنّها لم تعدّ معجزة في العصر الراهن؛ لأنّ جميع تلك المعاجز تبقى معجزة إلى الأبد، ولا يتمكّن من الإتيان بمثلها إلّا النبيّ أو الإمام المعصوم عليهما السلام الحائز لمقام الولاية الإلهيّة. بل نعني بخصوصيّتها أنّها لم تكن موجودة حاليًّا أي لم تكن ناقة صالح موجودة أو طوفان نوح أو انفلاق البحر و... غير أنّ القرآن الكريم معجزة رسول الإسلام الأكرم صلى الله عليه وآله موجود إلى الأبد ومعجزة.

والقرآن معجزة كبيرة من عدّة جهات، ونشير إلى بعض محاور إعجاز القرآن، كالآتي:

---

١. الأنبياء: ٦٩.

٢. النمل: ١٠؛ القصص: ٣١.

٣. الصافّات: ١٤٢-١٤٤.

أ) الفصاحة والبلاغة

كان الفنّ القيّم والرائع في زمن رسول اللهﷺ ينحصر في الكلام الفصيح والبليغ سيّما الشعر الموزون والجميل، وكان الشعراء الفطاحل ينشدون أشعارهم في الأسواق والمحافل والمجامع ليستمع إليها الفصحاء والبلغاء، وبعد انتخاب أفضل الأشعار يتمّ وضعها على أستار الكعبة كسند للفخر الأدبيّ والثقافيّ.

وكان النابغة الذبيانيّ الحكم لأشعار العرب في سوق عكاظ ويعلن الجيّد من الرديء، ولكنّ حلاوة القرآن وجماله وسلاسة مضمونه وعمق محتواه وطريقة نظمه، كان خارج عالم الشعر وقد أخضع الصديق والعدوّ أمامه، كما أنّ بعض شعراء المعلّقات السبع، قد رفعوا أشعارهم عن جدار البيت ليلاً بعد نزول بعض آيات القرآن المجيد، وتركوا المضمار لفصاحة القرآن وبلاغته، إذ لم يتمكّنوا من مجاراته، ولم ولن يصل طائر أفكار فصحاء العرب والعجم لألف باء القرآن الرائع.

والطريف في الأمر، أنّ ألف باء المستخدمة في القرآن، هي نفسها التي كانت تحت متناول الجميع، ولكن لن يتمكّن أي أحد لا في الماضي ولا في الحال ولا في المستقبل الإتيان بسورة تضاهي أصغر سورة من سور القرآن بعد الاستعانة بنفس هذه الحروف وتركيب الألفاظ. وقد أشار القرآن إلى أبديّة الإعجاز في قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾[1].

ب) الهداية والتربية

لا يصل أيّ كتاب تربويّ إلى القرآن، ومع وجود الكتب السماويّة أي التوراة والإنجيل أمام أعين الناس، إلا أنّ أصول معارف القرآن المتعالية وأخلاقيّاته وتهذيبه في غاية العظمة.

ولقد خلق القرآن رجالاً ونساءً في غاية العفّة والتقوى والروح الجهاديّة، بعقول متفكّرة، وأيدي عاملة، وأرجل ثابتة، مليئة بروح التضحية بالمال والأنفس، وبألسن شاكرة، مع سلامة الروح والضمير، والحبّ والعطف، والعدل والإنصاف، هم العبّاد

---

١. البقرة: ٢٤.

الداعون، والمستغفرون اليقظون، أسود الحروب والمسبّحون الذاكرون، العلماء العاملون البعيدون عن الجهل.

وعلينا عدم كشح الوجوه عن هذه الشمس المضيئة: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[١] والتعرّف على الطريق من منبع النور هذا، والاقتباس منه في الظلمات والفتن، كما قال نبيّ الله الأعظم: «**فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن**»[٢] ولنتّبع هذا الكتاب المبارك: ﴿هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ...﴾[٣].

والقرآن تمكّن بهذه الطريقة من إيجاد ثورة إنسانيّة، تضمن سعادة البشر الأبديّة، ولكن بشرط العمل به وأن لا يسبقهم بالعمل به غيرهم، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**والله والله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم**»[٤].

وقد نقل العلاّمة المجلسيّ رحمه الله نموذجًا لأثر إعجاز القرآن، وقال:

«قدم أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس في موسم من مواسم العرب وهما من الخزرج، وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهرًا طويلاً، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار، وكان آخر حرب بينهم يوم بعاث، وكانت للأوس على الخزرج، فخرج أسعد بن زرارة وذكوان إلى مكّة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان أسعد بن زرارة صديقًا لعتبة بن ربيعة، فنزل عليه، فقال له: إنّه كان بيننا وبين قومنا حرب جئناك نطلب الحلف عليهم، فقال له عتبة: بعدت دارنا من داركم ولنا شغل لا نتفرّغ لشيء. قال: وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم؟ قال له عتبة: خرج فينا رجل يدّعي أنّه رسول الله، سفّه أحلامنا وسبّ آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا، فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب من أوسطنا شرفًا وأعظمنا بيتًا.

---

١. إبراهيم: ١.
٢. الكليني، *الكافي*، ج ٢، ص٥٩٩، ح٢.
٣. الأنعام: ١٥٥.
٤. *نهج البلاغة*، الخطبة ٤٧.

وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم النضير وقريظة وقينقاع، أنّ هذا أوان نبيّ يخرج بمكّة يكون مهاجره بالمدينة، لنقتلنّكم به يا معشر العرب، فلمّا سمع ذلك أسعد وقع في قلبه ما كان سمع من اليهود، قال: فأين هو؟ قال: جالس في الحجر، وإنّهم لا يخرجون شعبهم إلّا في الموسم، فلا تسمع منه ولا تكلّمه فإنّه ساحر يسحرك بكلامه، فقال أسعد: فكيف أصنع وأنا معتمر لا بدّ لي أن أطوف بالبيت؟ قال: ضع في أذنيك القطن. فدخل أسعد المسجد وقد حشا أذنيه بالقطن، فطاف بالبيت ورسول اللهﷺ جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم، فنظر إليه نظرة فجازه، فلمّا كان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما أجد أجهل منّي، أيكون مثل هذا الحديث بمكّة فلا أتعرّفه حتّى أرجع إلى قومي فأخبرهم، ثمّ أخذ القطن من أذنيه ورمى به وقال لرسول الله: أنعم صباحًا، فرفع رسول اللهﷺ رأسه إليه وقال: قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا، تحيّة أهل الجنّة: السلام عليكم، فقال له أسعد: إنّ عهدك بهذا لقريب، إلى ما تدعو يا محمّد؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّي رسول الله، وأدعوكم إلى أن لا تشركوا به شيئًا، وبالوالدين إحسانًا، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلّا بالحقّ، ذلكم وصاكم به لعلّكم تتّقون. ولا تقربوا مال اليتيم إلّا بالتي هي أحسن حتّى يبلغ أشدّه، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا نكلّف نفسًا إلّا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلّكم تذكّرون.

فلمّا سمع أسعد هذا، قال له: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّك رسول الله، يا رسول الله بأبي أنت وأمّي أنا من أهل يثرب من الخزرج وبيننا وبين أخوتنا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصلها الله بك ولا أجد أعزّ منك، ومعي رجل من قومي فإن دخل في هذا الأمر رجوت أن يتمّم الله لنا أمرنا فيك، والله يا رسول الله لقد كنّا نسمع من اليهود خبرك، ويبشّروننا بمخرجك ويخبروننا بصفتك،

وأرجو أن يكون دارنا دار هجرتك عندنا، فقد أعلمنا اليهود بذلك، فالحمد لله الذي ساقني إليك، والله ما جئت إلاّ لنطلب الحلف على قومنا، وقد أتانا الله بأفضل ممّا أتيت له.

ثمّ أقبل ذكوان، فقال له أسعد: هذا رسول الله الذي كانت اليهود تبشّرنا به، وتخبرنا بصفته فهلمّ فأسلم، فأسلم ذكوان، ثمّ قالا: يا رسول الله ابعث معنا رجلاً يعلّمنا القرآن، ويدعو الناس إلى أمرك، فقال رسول اللهﷺ لمصعب بن عمير... وأمره بالخروج مع أسعد»[1].

فتغيّرت وجهة المدينة، ولم يمض طويلاً حتّى أسلمت الأوس والخزرج واستمعوا إلى القرآن وهاموا به، وتهيّأت مقدّمات هجرة رسول اللهﷺ إلى المدينة. وقد دوّن التاريخ الإسلاميّ الكثير من هذا القبيل حول إعجاز القرآن.

ج) الإعجاز في نظم القرآن ومعانيه

لقد ذهب علماء اللغة ودارسو القرآن إلى أنّ كلمات القرآن الجميلة والبليغة، تمّ تنسيقها بشكل منتظم جنبًا إلى جنب كخرز السبحة أو الأعداد الرياضيّة. والعجيب في الأمر انضواء المعاني الوسيعة والمحتوى المتعالي تحت هذا النظم الجميل، بحيث أدهش عقول المتفكّرين، وذكروا له أعدادًا مليونيّة بل بالمليارات، ونشير فيما يلي إلى موردين:

١. لقد ذكر الجنابذيّ في تفسير بيان السعادة أنّ الوجوه والاحتمالات في الآيات الخمسة الأولى من سورة البقرة: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ... أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تمّ احتسابها في عدّة صفحات، وبلغت رقم (١١٤٨٤٢٠٥٧٧٠٢٤٠) ثمّ يضيف إنّ هذا العدد من المعاني لم تكن من المعاني الشاذّة والنادرة ولم تكن غير مفهومة ومغلقة، ولو أردنا ذكر سائر الوجوه وفيها الضعيفة أيضًا، لبلغ الرقم أكثر ممّا ذُكر، كما تمّ حذف المكرّرات أيضًا[2].

---

١. المجلسي، ***بحار الأنوار***، ج١٩، ص٨.

٢. جنابذى، ***بيان السعادة في مقامات العبادة***، ج١، صص٣٩-٤٠.

٢. النموذج الثاني، آية أعجبت الكثير، وحدّقت الأنظار نحوها، مع ما فيها من جمال اللفظ والبلاغة والفصاحة: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1].

قال العلّامة الطباطبائيّ في تفسير الميزان:

«قد اختلف المفسّرون في تفسير الآية اختلافًا عجيبًا لا يكاد يوجد نظيره في آية من آيات القرآن المجيد، فاختلفوا في مرجع ضمير قوله: ﴿اتَّبَعُوا﴾ أهم اليهود الذين كانوا في عهد سليمان، أو الذين في عهد رسول اللهﷺ أو الجميع؟ واختلفوا في قوله: ﴿تَتْلُو﴾ هل هو بمعنى تتبع الشياطين وتعمل به أو بمعنى تقرأ أو بمعنى تكذب؟ واختلفوا في قوله ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ فقيل: هم شياطين الجنّ، وقيل: شياطين الإنس، وقيل: هما معًا.

واختلفوا في قوله: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ فقيل: معناه في ملك سليمان، وقيل معناه في عهد سليمان، وقيل معناه على ملك سليمان بحفظ ظاهر الاستعلاء في معنى على، وقيل معناه على عهد ملك سليمان. واختلفوا في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ فقيل إنّهم كفروا فيما استخرجوه من السحر إلى الناس، وقيل إنّهم كفروا بما نسبوه إلى سليمان من السحر، وقيل إنّهم سحروا فعبّر عن السحر بالكفر.

واختلفوا في قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، فقيل: إنّهم ألقوا السحر إليهم فتعلّموه، وقيل: إنّهم دلّوا الناس على استخراج السحر وكان مدفونًا تحت كرسيّ سليمان فاستخرجوه وتعلّموه. واختلفوا في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾، فقيل: ما موصولة والعطف على قوله: ﴿مَا تَتْلُو﴾، وقيل: ما موصولة والعطف على قوله: ﴿السِّحْرَ﴾؛ أي يعلّمونهم ما أنزل على الملكين، وقيل: ما نافية والواو

١. البقرة: ١٠٢.

استئنافيّة؛ أي ولم ينزل على الملكين سحر كما يدّعيه اليهود، واختلفوا في معنى الإنزال، فقيل: إنزال من السماء، وقيل: بل من نجود الأرض وأعاليها، واختلفوا في قوله: ﴿الْمَلَكَيْنِ﴾ فقيل: كانا من ملائكة السماء، وقيل: بل كانا إنسانين ملكين بكسر اللام إن قرأناه بكسر اللام كما قرئ كذلك في الشواذّ، أو ملكين بفتح اللام أي صالحين أو متظاهرين بالصلاح إن قرأناه على ما قرأ به المشهور، واختلفوا في قوله: ﴿بِبَابِلَ﴾، فقيل: هي بابل العراق، وقيل: بابل دماوند، وقيل: من نصيبين إلى رأس العين.

واختلفوا في قوله: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾، فقيل: لا تكفر بالعمل بالسحر، وقيل: لا تكفر بتعلّمه، وقيل: بهما معًا. واختلفوا في قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾، فقيل: أي من هاروت وماروت، وقيل: أي من السحر والكفر، وقيل: بدلًا ممّا علّماه الملكان بالنهي إلى فعله، واختلفوا في قوله: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ فقيل: أي يوجدون به حبًّا وبغضًا بينهما، وقيل: إنّهم يغرون أحد الزوجين ويحملونه على الكفر والشرك فيفرّق بينهما اختلاف الملّة والنحلة، وقيل: إنّهم يسعون بينهما بالنميمة والوشاية فيؤول إلى الفرقة.

فهذه نبذة من الاختلاف في تفسير كلمات ما يشتمل على القصّة من الآية وجمله، وهناك اختلاف آخر من القصّة في ذيل الآية وفي القصّة نفسها، وهل هي قصّة واقعة أو بيان على سبيل التمثيل أو غير ذلك؟ وإذا ضربت بعض الأرقام التي ذكرناها من الاحتمالات في البعض الآخر، ارتقى الاحتمالات إلى كمّيّة عجيبة وهي ما يقرب من ألف ألف ومائتين وستين ألف احتمال.

وهذا من عجائب نظم القرآن، تتردّد الآية بين مذاهب واحتمالات تدهش العقول وتحيّر الألباب، والكلام بعد متّك على أريكة حسنه، متجمّل في أجمل جماله، متحلّ بحليّ بلاغته وفصاحته، وسيمرّ بك نظير هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾[1].

١. هود: ١٧؛ الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن*، ج١، صص٢٣٣-٢٣٤.

هذه السعة والعمق الذي يوجب الإعجاب، أدّى إلى تعبير مولى الموحّدين عليّ بن أبي طالبعليه السلام القرآن الناطق، في جميع نهج البلاغة عن القرآن بالبحر الذي لا يدرك قعره ولا ينتهي وان استقى منه جميع العالمين، «بحرًا لا يُدركُ قعرُهُ ... بحر لا ينزفُهُ المُستنزفُون» كما شبّهه بالعين التي لا تنضب والمنهل الذي لا ينقص ولا يصل إلى أسراره العلماء: «وعُيُون لا يُنضبُها الماتحُون ومناهلُ لا يغيضُها الواردُون». كما ذكر أنّ القرآن هو الوحيد الذي يطفئ عطش العلماء ويرويهم، نعم إنّ القرآن ربيع قلوب المتعمّقين: «جعلهُ اللّهُ ريًّا لعطش العُلماء وربيعًا لقُلُوب الفُقهاء»[١].

د) الإعجاز في الأدب والفنّ

لقد اتّفق جميع أدباء العرب والعارفون بالأدب العربيّ وأئمّة المفسّرين والحديث حتّى من خالف القرآن من القديم إلى الآن، على أنّ القرآن المجيد مليئ بالصنائع والفنون الأدبيّة والبلاغيّة؛ لأنّ الفصاحة فنّ تدور حول اللفظ والصوت الخارج من الفم واللسان والأسنان، ولكنّ البلاغة فإنّها في ذاتها من أوصاف المعاني ثمّ تعرض على اللفظ، بمعنى أنّ البلاغة تدور مدار العقل والعقليّات والنفس والمعاني وتتعلّق بالقضايا المعقولة، خلافًا للفصاحة التي تدور مدار القضايا اللفظيّة.

وعليه، فعالم اللفظ (الفصاحة) محدود؛ لأنّه يدور مدار الحروف اللفظيّة، ولكنّ عالم المعنى (البلاغة) غير محدود؛ لأنّه يدور مدار الصور الذهنيّة والشؤون الروحيّة والخواطر النفسيّة.

وبناء على هذا، فللبلاغة الذوقيّة والمعنويّة مجال واسع وكلّما تقدّم الزمان توسّعت هذه الدائرة، بمعنى أنّ الصنائع الأدبيّة ستتوسّع في المستقبل أكثر ممّا كانت عليه في الماضي، وعليه فإنّ البلاغة المعنويّة كالبحر الموّاج الذي لا ساحل له: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[٢].

---

١. *نهج البلاغة*، الخطبة: ١٩٨.

٢. الكهف: ١٠٩.

وعلى هذا الأساس، تتمكّن كلمات القرآن من بيان الخواطر النفسيّة والشؤون الروحيّة والمعنويّة أكثر من باقي اللغات. ومن هذه الجهة، فإنّ بلاغة القرآن تشتمل على جماليّات، اكتشفتها البشريّة من ذوقيّات ومعنويّات كثيرة أو ستكتشفها لاحقًا، أكثر ممّا ذكره أساتذة البلاغة في تعريف البلاغة أي موافقة الكلام الفصيح مع مقتضى الحال والمقام.

وبعبارة أُخرى: إنّ بلاغة القرآن وجماليّاته، هي التي أوجدت فنّ المعاني والبيان، كما أوجدت علم الصرف والنحو وكثيرًا من العلوم والفنون الأخرى أو التي ستوجدها، فهذه العلوم مدينة للقرآن وتابعة له.

وعليه، فقد عرف الباحثون في جماليّات القرآن وفنونه، بحدود سبعين دلالة جماليّة من وجوه البلاغة في سورة صغيرة كفاتحة الكتاب، يوجد عشرة منها في آية ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[1] وهذا إنّما هو بحسب استعداد الباحثين في القرآن وفهمهم، ولعلّه يتمّ اكتشاف أمور أخرى في المستقبل ليصل الرقم إلى أكثر من هذا.

نموذج من بلاغة القرآن

من الآيات التي سلبت عقول فطاحل العرب أمثال ابن المقفّع الذي كان ينوي الإتيان بمثل ربع القرآن، بل أعجبت كبار الأدباء والعلماء جميعًا قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

وقد تمّ اكتشاف ثلاثين صفة أدبيّة فنّيّة في هذه الآية لحدّ الآن:

١. الموازنة التامّة والكاملة بين كلمة (ابلعي) و (أقلعي).

٢. الاستعارة في ابلعي وأقلعي، تشبيه الأرض بالحيوان المبتلع؛ إذ الابتلاع من صفات الحيوان وقد استخدم للأرض. والاستعارة في قوله: ﴿يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ استعارة بالكناية؛ لأنّ القلع بمعنى الاجتذاذ، وهنا تمّ أمر السماء باقتلاع الستار الذي يهطل منه الماء أي السحاب.

٣. الطباق بين الأرض والسماء، والطباق هو الإتيان بكلمتين متخالفتين أو

١. الحمد: ٤.

٢. هود: ٤٤.

متضادّتين، كما في قوله: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾[١]؛ لأنّ الإغراق صفة الماء، فكأنّه جمع بين الماء والنار.

٤. مجاز الحذف في (يا سماءُ أقلعي) وهو في الأصل: يا مطر السماء.

٥. الإشارة أي البيان الرمزيّ للمعاني في قوله: ﴿غِيضَ الْمَاءُ﴾ أي ذهاب ما تبقّى من الماء. وهذه العبارة تعني عدّة أمور:

أ) انتهاء المطر.

ب) ابتلاع الأرض للماء.

ج) ذهاب المتبقّى القليل من الماء.

٦. الجناس اللاحق بين كلمة (ابلعي) و (أقلعي)، فهاتان الكلمتان متوافقتان في جميع الأشياء سوى حرف واحد، ويطلق على هذا التوافق (الجناس اللاحق).

٧. الإرداف، وهو الإتيان بكلمة مكان كلمة أُخرى بهدف الإشارة إلى أمر لطيف أو دقيق، كما في الآية المذكورة حيث ورد (استوت على الجُوديّ) بدل: جلست على الجوديّ أو استقرّت على الجوديّ، أي استواء السفينة على الجبل من دون انحراف إلى أيّ جهة.

٨. التمثيل عن هلاك الكفّار، بقوله: (قُضي الأمرُ)، وهذه العبارة جاءت للتمثيل؛ إذ هي بعيدة عن المعنى الموضوع للهلاك.

٩. التعليل؛ أي بيان علّة الشيء في الآية؛ لأنّ علّة استواء السفينة الكامل ذهاب الماء (غيض الماء).

١٠. صحّة التقسيم؛ حيث اشتملت على جميع أقسام الماء، أي الماء عندما يقلّ، وعندما لا تمطر السماء، وعندما لا يفيض الماء من الأرض، وعندما ينتهي الماء بشكل كامل أي ابتلاع الأرض لما تبقّى منه.

١١. الاحتراس أو التكميل (الإبهام ورفع الإبهام) أي أنّ توهّم شموليّة العذاب وابتلاعه حتّى للصلحاء، قد ذهب بقوله: ﴿بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إذ العبارة

---

١. نوح: ٢٥.

هذه تدلّ على أنّ العذاب خاصّ بالظالمين وسوف يهلكهم.

١٢. المساواة (مساواة اللفظ والمعنى) أي لم يستعمل الألفاظ في هذه الآية أكثر من محتوى الآية.

١٣. حسن النسق؛ حيث رُكّبت جمل هذه الآية بنسق جميل، أي نفوذ الماء في الأرض، وانقطاعه من السماء، ابتلاع الأرض لما تبقّى من الماء، واستواء السفينة على الجبل، وهلاك الظالمين، فكلّ هذه الأمور تمّ تنسيقها بشكل جميل.

١٤. ائتلاف اللفظ والمعنى؛ أي إذا كان المعنى عريقًا فاللفظ عريق أيضًا، وإذا كان المعنى سلسًا فالألفاظ سلسلة أيضًا، وإذا كان المعنى غريبًا صعب المنال فالألفاظ كذلك أيضًا، والألفاظ قد بيّنت المعاني المقصودة تمامًا.

١٥. الإيجاز (قصر اللفظ وسعة المعنى)؛ إذ تحتوي هذه الآية على عشرين كلمة يتبلور فيها الأمر والنهي والخبر والإنشاء والمنادى والنعت والسعادة والشقاء والحكاية و... ممّا يطول شرحها.

١٦. التفهيم؛ حيث تدلّ بداية الآية على نهايتها ومآلها.

١٧. التهذيب (أي تركيب الكلمات بشكل جميل)؛ حيث تبتعد الآية من الكلمات النافرة وعن التعقيد.

١٨. حسن البيان؛ حيث لا يتردّد المستمع في فهم الآية ولا ينغلق عليه شيء من معانيها.

١٩. الاعتراض؛ إذ العبائر التالية ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ و ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ و﴿اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ كلّها جمل معترضة، ليعلم أنّ ذهاب الماء وانتهاء الطوفان واستواء السفينة حدث بين أمرين: «قيل يا سماء» و «قيل بعدًا».

٢٠. الكناية، حيث لم يتمّ التصريح إلى الفاعل في قوله: (غِيضَ) و (قُضِيَ) و ﴿قِيلَ يَا أَرْضُ﴾ و﴿قِيلَ بُعْدًا﴾ ولم يصرّح أيضًا إلى القائل في ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي﴾ و ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ ممّا يدلّ على القدرة القاهرة والقوّة العظيمة.

٢١. التعريض؛ أي التعريض في قوله ﴿بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لجميع الظلمة بأنّ مصيرهم أيضًا إلى الهلاك كما هلكقوم مع الطوفان.

٢٢. الانسجام؛ حيث إنّ الكلمات تسلسلت بشكل سلس على اللسان كالماء الجاري.
٢٣. التمكين؛ أي رعاية فواصل الجمل بشكل جيّد وبهدوء واطمئنان.
٢٤. الإبداع؛ وهو ظهور صفة جديدة من مجموع عدّة صفات وفنون أدبيّة.
٢٥. اشتمال الآية على بعض بحور الشعر والأدب، كما في قوله: ﴿قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ على وزن مستفعل مستفعل فاعل، وكذلك ﴿يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ على وزن مفاعل مفاعل.
٢٦. تنزيل من ليس له عقل، في النداء والخطاب، منزلة من له عقل، كقوله: ﴿يَا أَرْضُ﴾ و ﴿وَيَا سَمَاءُ﴾.
٢٧. الإيهام؛ وهو استعمال كلمات لها وجوه عدّة، لمعنى قريب ومعنى بعيد، ليفهم المستمع المعنى القريب، ويقصد المتكلّم المعنى البعيد؛ ففي الآية كلمة (جوديّ) ولها معنيان، الأوّل جبل جوديّ، والثاني السقاء المملوّ من الهواء الذي تستقرّ عليه السفن الهوائيّة.
٢٨. اتباع السجع في آخر الآيات، حيث إنّ الآية السابقة تمّت بقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ والآية اللاحقة تمت بقوله: ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ لذا تمّت هذ الآية أيضًا بقوله: «**الظالمين**».
٢٩. التكرار غير المخلّ حيث تكرّرت كلمة الماء مرّتان، مرّة بلام التعريف في قوله: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ ومرّة مضافة في قوله: ﴿ابْلَعِي مَاءَكِ﴾.
٣٠. تخيّل المالكيّة للأرض في قوله: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ كالمالك القادر المتصرّف في أمواله.

وليعلم أنّ الحكماء والأدباء وأصحاب الفنون لو أرادوا البحث والفحص في مزايا القرآن العلميّة وأسباب جاذبيّته واتجاهاته المعنويّة، ليضيفوا على ما قيل لحدّ الآن، لكان حريّ أن يوصف القرآن بمغناطيس القلوب والنفوس.

الإعجاز والعجز

عن هشام بن الحكم، قال: اجتمع ابن أبي العوجاء، وأبو شاكر الديصانيّ الزنديق، وعبد الملك البصريّ، وابن المقفّع عند بيت الله الحرام يستهزؤون بالقرآن، فقال ابن أبي

العوجاء، تعالوا ننقض كلّ واحد منّا ربع القرآن، وميعادنا من قابل في هذا الموضع نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كلّه، فإنّ في نقض القرآن إبطال نبوّة محمّد، وفي إبطال نبوّته إبطال الإسلام وإثبات ما نحن فيه، فاتّفقوا على ذلك وافترقوا.

فلمّا كان من قابل اجتمعوا عند بيت الله الحرام، فقال ابن أبي العوجاء: أمّا أنا فمفكّر منذ افترقنا في هذه الآية: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[١] فما أقدر أن أضمّ إليها في فصاحتها وجمع معانيها شيئًا، فتشغلني هذه الآية عن التفكّر في ما سواها.

فقال عبد الملك: وأنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[٢] ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

فقال أبو شاكر: وأنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٣] لم أقدر على الإتيان بمثلها.

فقال ابن المقفّع: يا قوم إنّ هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٤] لم أبلغ غاية المعرفة بها، ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

قال هشام بن الحكم: فبينما هم في ذلك إذ مرّ جعفر بن محمّد بن محمّد الصادق عليه السلام، فقال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٥] فنظر القوم بعضهم إلى بعض وقالوا: لئن كان للإسلام حقيقة لما انتهت أمر وصيّة محمّد إلّا إلى جعفر بن محمّد، والله ما رأيناه قط إلّا هبناه واقشعرّت جلودنا لهيبته، ثمّ تفرّقوا مقرّين بالعجز[٦].

---

١. يوسف: ٨٠.
٢. الحجّ: ٧٣.
٣. الأنبياء: ٢٢.
٤. هود: ٤٤.
٥. الإسراء: ٨٨.
٦. الطبرسي، *الاحتجاج*، ج٢، ص٣٠٦؛ المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٧، ص٢١٣، ج٤٧، ص١١٧.

مضافًا إلى هذا، فإنّ الباحثين في القرآن وفصحاء العرب والعارفين بالعربيّة، ذهبوا إلى أنّ السياق وطريقة بيان الآيات القرآنيّة من أوّل الآيات إلى آخرها النازلة في ٢٣ سنة تقريبًا، كلّها دالّة على صدورها من مبدأ فصيح وبليغ ومستقيم وجميل وواحد، وبمحتوى جديد وبديع، ولا يمكن أن تكون من إنشاء أمّيّ، سيّما أنّ الزمان كلّما تقدّم ظهرت ثمرات ومعاني جديدة من هذا البستان إلى العالمين، وقدّم هذا البحر الزخّار الدرر واليواقيت الجديدة إلى سوق العلم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[١].

هـ) حاكميّة القرآن على سائر الكتب السماويّة

بما أنّ الإنسان مخلوق متحرّك طالب الكمال، فقد جعل الله إلى جنبه وبحسب الزمان والمكان، من تسبّب في تعاليه، ووهبوا له جوهر الدين والمعنويّة وعلّموه.

إنّ أصول هداية البشر الأساسيّة متّحدة تنبع من مبدأ واحد: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[٢] وقد ذكر الله سبحانه، بخصوص التوراة النازلة على موسى بأنّ فيها حكم الله: ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾[٣] كما قال بخصوص إنجيل عيسى عليه السلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾[٤].

ولو صان أهل الكتاب هذين الكتابين من التحريف، وعملوا بما جاء فيهما من قبل الله لأكلوا من بركات الأرض والسماء قطعًا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾[٥].

والقرآن قد كشف الدسائس وبيّن الأخطاء الواردة في الكتب السماويّة السابقة بقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[٦] ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٧].

---

١. النساء: ٨٢.
٢. المائدة: ٤٤.
٣. المائدة: ٤٣.
٤. المائدة: ٤٦.
٥. المائدة: ٦٦.
٦. النساء: ٤٦.
٧. البقرة: ٧٥.

فالقرآن يذمّ هؤلاء بشدّة ويوجّه إليهم اللعنات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[١].

وبما أنّ القرآن حفظ من التحريف ولم يتطرّق إليه زيادة أو نقصان أو تبديل، يكون ميزانًا لسائر الكتب الإلهيّة، لذا يتمكّن من تعديل الاعوجاج ورفع دسائس الكائدين ويكون حاكمًا ومسيطرًا ومشرفًا عليها، ويبيّن عيوبها كالمرآة. وهنا، سنشير إلى بعض موارد التحريف وميزانيّة القرآن لها.

نماذج من التحريف في التوراة والإنجيل

١. آدم عليه السلام في القرآن والتوراة

يذكر القرآن تاريخ نبيّ الله آدم عليه السلام في بعض مراحله هكذا: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٢].

ونقرأ في التوراة الحالية:

«(٧) وجبل الربّ الإله آدم ترابًا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسًا حيّة (٨) وغرس الربّ الإله جنّة في عدن شرقًا وأسكن هناك آدم الذي جبله (٩) وأنبت الربّ الإله من الأرض كلّ شجرة حسنة المنظر، طيّبة المأكل، وكانت شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشرّ في وسط الجنّة (١٥) وأخذ الربّ الإله آدم وأسكنه في جنّة عدن ليفلحها ويحرسها (١٦) وأوصى الربّ الإله آدم قال: من جميع شجر الجنّة تأكل (١٧) وأمّا شجرة معرفة الخير والشرّ فلا تأكل منها،

---

١. البقرة: ١٥٩.

٢. البقرة: ٣١-٣٧.

فيوم تأكل منها موتًا تموت (١٨) وقال الربّ الإله: لا يحسن أن يكون آدم وحده، فأصنع له مثيلاً يعينه، ... (٢٥) وكان آدم وامرأته كلاهما عريانين.

(١) وكانت الحيّة أحيل جميع حيوانات البريّة التي خلقها الله الربّ الإله، (٢) فقالت للمرأة: أحقًا قال الله لا تأكلا من جميع شجر الجنّة؟ فقالت المرأة للحيّة: من ثمر شجر الجنّة تأكل (٣) وأمّا ثمر الشجرة التي في وسط الجنّة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلاّ تموتا. (٤) فقالت الحيّة للمرأة: لن تموتا ولكن الله يعرف أنّكما يوم تأكلان من ثمر تلك الشجرة تنفتح أعينكما وتصيران مثل الله تعرفان الخير والشرّ (٦) ورأت المرأة أنّ الشجرة طيّبة للمأكل وشهيّة للعين، وأنّها باعثة للفهم، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت زوجها أيضًا وكان معها فأكل (٧) فانفتحت أعينهما فعرفا أنّهما عريانان، فخاطا من ورق التين وصنعا لهما مآزر.

(٨) وسمع آدم وامرأته صوت الربّ الإله وهو يتمشّى في الجنّة عند المساء، فاختبأ من وجه الربّ الإله بين شجر الجنّة (٩) فنادى الربّ الإله آدم وقال له: أين أنت؟ (١٠) فأجاب: سمعت صوتك في الجنّة فخفت ولأنيّ عريان اختبأت، (١١) قال الربّ الإله: من عرّفك أنّك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ (١٢) فقال آدم: المرأة التي أعطيتني لتكون معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. (١٣) فقال الربّ الإله للمرأة: لماذا فعلت هذا؟ فأجابت المرأة: الحيّة أغوتني فأكلت (١٤) فقال الربّ الإله للحيّة: لأنّك فعلت هذا فأنت ملعونة من بين جميع البهائم وجميع وحوش البرّ، على بطنك تزحفين وترابًا تأكلين... (٢٢) وقال الربّ الإله: صار آدم كواحد منّا يعرف الخير والشرّ، والآن لعلّه يمدّ يده إلى شجرة الحياة أيضًا فيأخذ منها ويأكل ويحيا إلى الأبد (٢٣) فأخرج الإله الربّ آدم من جنّة عدن ليفلح الأرض التي أخذ منها (٢٤) فطرد آدم وأقام الكروبيم شرقي جنّة عدن، وسيفا مشتعلاً متقلّبًا لحراسة الطريق إلى شجرة الحياة»[١].

---

١. *العهد العتيق*، سفر التكوين، الإصحاح ٢-٣.

وبمراجعة مختصرة نقف على عدّة أمور غير صحيحة في التوراة:

١. نسبة الكذب إلى الله، حيث أمرهما بعدم الأكل من شجرة العلم والمعرفة الموجودة في الجنّة لئلاّ يموتا.

٢. نسبة البخل إلى الله، حيث لم يرتض بتناول آدم وحوا من الشجرة كي لا يصبحا كالملائكة في العقل والمعرفة، بل عليهما أن يبقيا في الجهل دائماً.

٣. نسبة الجسميّة إلى الله وأنّه يمشي في الجنّة فيختفي منه آدم وحوا كي لا يراهما الله، مع نسبة الغناء إلى الله وقد سمعه آدم وحواء عندما كانا يمشيان في الجنّة.

٤. إنّ الشيطان (الحيّة) أرأف بآدم وحوا من الله؛ لأنّه أراد أن يبصر آدم وحوا المحاسن والمساوئ ولكنّ الله ما كان يريد ذلك.

٥. لقد طُرد آدم من الجنّة بعدما تعرّف على الخير والشرّ.

٦. إنّ ذنب طرد الشيطان (الحيّة) من الجنّة هو تقديم النصيحة لآدم وإلاّ لما كان ينبغي أن يزحف على بطنه ويأكل التراب، بل كان ينبغي أن يأكل مثلاً كآدم أفضل الطعام والشراب.

وتوجد بعض الروايات الإسلاميّة نحو ما ورد أعلاه، فهذه الروايات إمّا أن تكون من الإسرائيليّات التي وردت في الثقافة الإسلاميّة، وإمّا وردت على لسان أهل البيت عليهم السلام فحينئذٍ تكون من المتشابهات التي لا بدّ أن تفسّر على ضوء المحكمات، وعليه يمكن إجراء نفس المنهجيّة على التوراة أيضًا، طبعًا توجد مقاطع محرّفة لا يمكن تأويلها ولا بدّ من حكم الوضع والدسّ عليها.

٢. نوح عليه السلام في القرآن والتوراة

لقد ذكر القرآن نوح عليه السلام شيخ الأنبياء بأفضل الذكر في قالب أفضل الأوصاف، كقوله أوّلاً: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

ثانيًا: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[2].

---

١. الصافّات: ٧٩-٨١.

٢. الإسراء: ٣.

ثالثًا: إنّه كان حقًّا من عباد الله الصالحين: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ...﴾[١].

وهذا النبيّ العصاميّ مع ما يملك من لياقة وإيمان، أنذر قومه تسعمائة وخمسين سنة بالموعظة والبرهان والنصيحة، وقُوبل باستهزاء قومه ومع هذا لم يكفّ عن السعي ليل نهار إلى أن أغرق الله قومه بالطوفان: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٢].

والآن فلنلق نظرة إلى سيماء هذا النبيّ في التوراة:

«(٢٠) وكان نوح أوّل فلاّح غرس كرمًا، (٢١) وشرب نوح من الخمر، فسكر وتعرّى في خيمته، (٢٢) فرأى حام أبو كنعان عودة أبيه فأخبر أخوته وهما خارجًا (٢٣) فأخذ سام ويافث ثوبًا وألقياه على أكتافهما، ومشيا إلى الوراء ليسترا عورة أبيهما، وكان وجهاهما إلى الخلف، فما أبصرا عورة أبيهما (٢٤) فلما أفاق نوح من سكره علم بما فعل به ابنه الصغير (٢٥) فقال: ملعون كنعان عبدًا ذليلاً يكون لأخوته»[٣].

٣. إبراهيمؑ في القرآن والتوراة

ملئت حياة نبيّ الله إبراهيمؑ بالبهاء والتوهّج والثبات والغيرة على الإيمان والشجاعة، فبطل التوحيد ما خشي أحدًا أيّام حياته ولم يألُ جهدًا في تحقيق هدفه، فهجم على وكر الأوثان بمفرده: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[٤].

كما أنّه نال مقام الإمامة بعد خوض اختبارات كثيرة كالاستعداد لذبح ابنه وغيرها وبلغ ملكوت اليقين: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[٥] وقد

---

١. التحريم: ١٠.
٢. العنكبوت: ١٤-١٥.
٣. *العهد العتيق*، سفر التكوين، الإصحاح ٩.
٤. الصافّات: ٩١-٩٣.
٥. الأنعام: ٧٥.

مدحه الله بألفاظ مقدّسة كالإمام والصالح والحنيف والمسلم والموقن والأوّاه والحليم والمنيب والقانت والشاكر والمؤمن.

ولكن سيماء هذا النبيّ العظيم والشريف والغيور في التوراة هكذا:

«(١٠) وكان جوع في أرض كنعان فنزل إبرام إلى مصر ليتغرّب هناك؛ لأنّ الجوع كان شديدًا، (١١) فلمّا وصل إلى أبواب مصر قال لساراي امرأته: أعرف أنّك امرأة جميلة المنظر، (١٢) فإذا رءاك المصريّون سيقولون هذه امرأته، فيقتلونني ويبقون عليك (١٣) قولي إنّك أختي، فيحسنوا معاملتي بسببك ويبقوا على حياتي لأجلك (١٤) ولما دخل أبرام مصر رأى المصريّون أنّ المرأة جميلة جدًّا، (١٥) وشاهدها بعض حاشية فرعون، فمدحوها عند فرعون وأخذوها إلى بيته (١٦) وأحسن فرعون إلى إبرام بسببها، فصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتن وجمال (١٧) أمّا الربّ فضرب فرعون وأهل بيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام (١٨) استدعى فرعون إبرام وقال له: ما فعلت بي، فكتمت عنّي أنّها امرأتك (١٩) لماذا قلت لي هي أختي حتّى أخذتها لتكون زوجة لي؟ والآن خذ امرأتك واذهب (٢٠) وأمر فرعون رجاله أن يخرجوه من البلاد مع امرأته وكلّ ما يملك»[١].

٤. لوط عليه السلام في القرآن والتوراة

لقد مدح الله تعالى، لوط في موارد كثيرة من القرآن، وقد فضّله كسائر الأنبياء على العالمين: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢] وقال أيضًا: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾[٣].

فلننظر إلى التوراة كيف نقلت سيرة لوط، وكيف شوّهت سيماءه المعصوم بنسبة أيّ ذنب كبير إليه، عسى أن يجد المحرّفون طريقًا لشرب الخمر والزنا، سيّما مع المحارم، فنقرأ في التوراة:

---

١. *العهد العتيق*، سفر التكوين، الإصحاح ١٢.

٢. الأنعام: ٨٦.

٣. الأنبياء: ٧٤.

«(٣٠) وخاف لوط أن يسكن في صوغر، فصعد إلى الجبل وأقام بالمغارة هو وابنتاه (٣١) فقالت الكبرى للصغرى: شاخ أبونا وما في الأرض رجل يتزوّجنا على عادة أهل الأرض كلّهم (٣٢) تعالي نسقي أبانا خمرًا ونضاجعه ونقيم من أبينا نسلاً (٣٣) فسقتا أباهما خمرًا تلك الليلة، وجاءت الكبرى وضاجعت أباها وهو لا يعلم بنيامها ولا قيامها (٣٤) وفي الغد قالت الكبرى للصغرى: ضاجعت البارحة أبي، فلنسق خمرًا الليلة أيضًا: وضاجعيه أنت لنقيم من أبينا نسلاً (٣٥) فسقتا أباهما خمرًا تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغرى وضاجعته وهو لا يعلم بنيامها ولا قيامها (٣٦) فحملت ابنتا لوط من أبيهما (٣٧) فولدت الكبرى ابنًا وسمّته موأب وهو أبو المؤابيّين إلى اليوم (٣٨) والصغرى أيضًا ولدت ابنًا وسمّته بن عمّي، وهو أبو بني عمّون إلى اليوم»[١].

٥. داود وسليمان عليهما السلام في القرآن والتوراة

كان داود وسليمان عليهما السلام من أنبياء الله أصحاب المعاجز والسلطة والفضيلة، كما أشرنا إليه سابقًا. ولكنّ الصورة التي تصوّرها التوراة عن داود عليه السلام، سيّما علاقته مع أوريا، أنّه شخص ماكر وماجن مع إضافة سائر الخرافات والتهم التي لا تكون إلّا من دسائس الشيطان.

٦. عيسى عليه السلام في القرآن والإنجيل

يعدّ المسيح عليه السلام في القرآن (رسول الله) و (كلمة الله) ومن الأنبياء العظام وأولي العزم: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾[٢] وكانت له معاجز وبيّنات ومؤيّد بروح القدس: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[٣] وهو نبيّ مبارك: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[٤].

---

١. *العهد العتيق*، سفر التكوين، الإصحاح ١٩.
٢. النساء: ١٧١.
٣. البقرة: ٨٧.
٤. مريم: ٣١-٣٢.

ولكن نرى في الإنجيل عدم احترامه لأمّه وربمّا يكون غيرها أولى بالاحترام والتقدير عنده، فاقرأ هذه العبائر من إنجيل مرقس:

«(٣٢) وكان يجلس حوله جمع كبير فقالوا له: أمّك وأخوتك وأخواتك في خارج البيت يطلبونك (٣٣) فأجابهم: من هي أمّي ومن هم أخوتي؟ (٣٤) ونظر إلى الجالسين حوله وقال: هؤلاء هم أمّي وأخوتي (٣٥) لأنّ من يعمل بمشيئة الله هو أخي وأُختي وأميّ»[١].

وربمّا أمكن تصوّر بعض المعاني الباطنيّة لبعض ما ورد في العهدين، ولكن عندما لا توجد قرائن يلزم الحمل على المعنى الظاهريّ، وحينئذٍ يحصل المحذور من المعنى.

اتّهام عيسى عليه السلام بصنع الخمر

لقد حرّم القرآن المجيد الخمر في عدّة آيات: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[٢] و ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[٣].

إنّ نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله إذا أُتي بشارب الخمر ضربه، ثمّ إن أتى به ثانية ضربه، ثمّ إن أتى به ثالثة ضرب عنقه[٤].

وإنّ شارب الخمر لا تقبل صلاته لأربعين يومًا[٥] لا تزوّجوه ولا تعودوه إذا مرض ولا تحضروا جنازته إذا مات[٦] ويحشر شارب الخمر يوم القيامة بوجه أسود[٧]؛ لأنّ الخمر رأس سائر الذنوب[٨].

---

١. *العهد الجديد*، إنجيل مرقس، الإصحاح ٣.
٢. البقرة: ٢١٩.
٣. المائدة: ٩٠-٩١.
٤. العاملي، *وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة*، ج٢٨، ص٢٣٤.
٥. *الكليني*، *الكافي*، ج ٦: ٤٠١-٤٠٢.
٦. العاملي، *وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة*، ج٢٥، ص٣١٠.
٧. المصدر السابق، ٢٩٧.
٨. الكليني، *الكافي*، ج ٦، ص٤٠٣.

والآن انظروا إلى محرّفي الإنجيل، كيف شوّهوا الإنجيل للوصول إلى أهوائهم الشيطانيّة واتّهموا المسيح عليه السلام بتبديل الماء إلى الخمر، بل زعموا أنّها أوّل معجزة للمسيح، فانظروا إلى العبائر الآتية:

«وفي اليوم الثالث كان في قانا الجليل عرس، وكانت أمّ اليسوع هناك (٢) فدعي يسوع وتلاميذه إلى العرس (٣) ونفدت الخمر، فقالت له أمّه: ما بقي عندهم خمر، (٤) فأجابها: ما لي ولك يا امرأة ما جاءت ساعتي بعد، فقالت أمّه للخدم: اعملوا ما يأمركم به (٦) وكان هناك ستّة أجران من حجر يتطهر اليهود بمائها على عادتهم يسع كلّ واحد منها مقدار مكيالين أو ثلاثة (٧) فقال يسوع للخدم: املأوا الأجران بالماء، فملأوها حتّى فاضت (٨) فقال لهم: استقوا الآن وناولوا رئيس الوليمة، فناولوه (٩) فلمّا ذاق الماء الذي صار خمرًا، وكان لا يعرف من أين جاءت الخمر، لكنّ الخدم الذين استقوا منه كانوا يعرفون، دعا العريس (١٠) وقال له: جميع الناس يقدّمون الخمر الجيّدة أوّلًا، حتّى إذا سكر الضيوف، قدّموا الخمر الرديئة، أمّا أنت فأخّرت الخمر الجيّدة إلى الآن (١١) هذه أولى آيات يسوع، صنعها في قانا الجليل، فأظهر مجده فآمن به تلاميذه»[١].

التوراة والخمر

روينا فيما مضى عن الإمامين الصادق والباقر عليهما السلام أنّ الخمر، وفي بعض الروايات الخمر والزنا، كانا حرامًا في جميع الأديان التوحيديّة من بدء الخلقة إلى آخرها، وسيبقيا حرامًا[٢].

ونقرأ في التوراة أيضًا:

«(٨) وقال الربّ لهارون: (٩) لا تشرب خمرًا ومسكرًا، أنت وبنوك معك عند دخولكم إلى خيمة الاجتماع لئلّا تموتوا، هذه فريضة أبديّة مدى أجيالكم

---

١. *العهد الجديد*، إنجيل يوحنّا، الإصحاح ٢.

٢. العاملي، *وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة*، ج٢٥، صص٢٩٦-٣٠٠.

(١٠) لتميّزوا بين المقدّس للربّ والمحلّل للعموم وبين النجس والطاهر (١١) ولتعلّموا بني إسرائيل جميع الفرائض التي أمر الربّ بها على لسان موسى»[١].

ولعلّ المحرّفون نسوا اتّهام لوطعليه السلام بشرب الخمر والزنا في الفصل التاسع عشر من سفر التكوين بهدف استمرار النسل.

وعلى كلّ حال، فالقرآن الكريم المهيمن والمسيطر على سائر الكتب السماويّة، يمنع هذه الأعمال السيّئة والشنيعة، ويرفع الستار لينزّه ساحة الأنبياء المقدّسة من أيّ نوع من السوء والفحشاء والتلوّث.

فضيلة نبيّ الإسلامصلى الله عليه وآله وهيمنته

لنبيّ الإسلامصلى الله عليه وآله الهيمنة والسيطرة والإشراف والفضيلة والعلوّ على سائر الأنبياء؛ لأنّ مقامه يساوي القرآن، كما أنّ سائر الأنبياء متساوون مع كتبهم السماويّة، والقرآن الكريم مهيمن على سائر الكتب السماويّة: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾[٢] وعليه فالرسول الأكرمصلى الله عليه وآله مهيمن على سائر الرسل. لذا يقول القرآن: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾[٣]. بمعنى أنّنا نجيء من كلّ أمّة بشاهد ونبيّ وإمام ليشهد على عقائدهم وأوصافهم وأعمالهم، وجئنا بك يا محمّدصلى الله عليه وآله شهيدًا على هؤلاء الشهداء؛ لأنّك مهيمن على جميع الأنبياء وأممهم.

ومن هنا، نقرأ في الحديث: «**أوّل ما خلق الله نوري**»[٤]؛ لأنّه المتقدّم على (ما سوى)، ومن لوازم التقدّم الذاتيّ الإحاطة الوجوديّة والعلّيّة على جميع المعاليل، فما ذاق في عالم الإمكان رائحة الوجود، فإنّها من رائحة النبيّ الخاتمصلى الله عليه وآله العطرة، والعالم مضيء بنوره.

---

١. *العهد العتيق*، سفر اللاويّين، الإصحاح ١٠.
٢. المائدة: ٤٨.
٣. النساء: ٤١.
٤. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١، ص٩٧.

و) الإعجاز في التقنين

إنّ الباحثين في القرآن والمفسّرين والحكماء الإلهيّين، حتّى الباحثين من غير المسلمين، يعتقدون بتطابق القرآن مع الفطرة الإنسانيّة: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[١].

وللقرآن المجيد مئات الآيات حول الأصول الجامعة. والبرامج المختلفة لشؤون الحياة، كلّ واحدة منها تكون مبدأ ومنبعًا لعشرات بل مئات وآلاف القوانين الفرعيّة، وليس هذا بعجب ولا عجيب.

وهنا، نشير إلى آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

وبإمكان استنباط عشرات القوانين والأوامر والنواهي من هذه الآية من قبيل: ١) الإنصاف والعدل ٢) الصدق ٣) تعلّم العلم ٤) متابعة العمل والتجارة ٥) الالتفات إلى الصناعة والفلاحة ٦) استخراج المعادن والتوسّع في فرص العمل ٧) حماية طبقة العمّال ٨) الاخاء والتساوي ٩) حفظ أصول الحرّيّة طبقًا لقانون العقل والمنطق ١٠) مساعدة الآخرين ١١) الإحسان إلى الضعفاء ١٢) احترام الوالدين ١٣) الصدق في المعاملات ١٤) حراسة الأيّام ١٥) صلة الأرحام ١٦) حفظ الأمانة ١٧) الصلح ١٨) طلب الخير ١٩) الإصلاح بين الناس ٢٠) إعطاء القرض للمحتاجين ٢١) مساعدة المساكين مجّانًا ٢٢) إعطاء رأس المال للعاطلين عن العمل ٢٣) رعاية حقوق العمال ٢٤) الالتفات للعمّال أمام أرباب الأعمال ٢٥) مساعدة الجيران ٢٦) نجاة الضالّين ٢٧) المحبّة للأطفال ٢٨) إرشاد الشباب ٢٩) توقير الكبار ٣٠) الاستقامة في المصاعب ٣١) الصبر في المشاكل ٣٢) المنع من الأذى ٣٣) الإحسان إلى الناس.

وكذلك الابتعاد والنهي من: ٣٤) الجهل والأمّية ٣٥) العطل من العمل ٣٦) إيذاء الناس ٣٧) الكذب ٣٨) السرقة ٣٩) الخيانة ٤٠) النفاق ٤١) الربا ٤٢) البخل في المال ٤٣) التهمة ٤٤) الغيبة ٤٥) النميمة ٤٦) الرشوة ٤٧) الحقد ٤٨) الغشّ ٤٩) الإساءة إلى

---

١. الروم: ٣٠.

٢. النحل: ٩٠.

الوالدين ٥٠) سوء الظنّ بالناس ٥١) إيذاء اليتيم ٥٢) قطع الرحم ٥٣) نشر الفساد ٥٤) طلب الحرب والفتنة ٥٥) القتل ٥٦) الفوضى ٥٧) عدم إعانة المحتاجين ٥٨) تضييع حقوق العمّال ٥٩) الإخلال في عمل رجال الأعمال ٦٠) إيذاء الجار ٦١) الاحتيال ٦٢) الإساءة إلى الأطفال ٦٣) إضلال الشباب ٦٤) الإساءة إلى الكبار ٦٥) عدم الصبر في البلايا ٦٦) اتّباع الفتنة ٦٧) الإساءة إلى البشر في أيّ مكان وبأيّ وسيلة[١].

يقول آلبر مالة المؤرّخ والعالم الفرنسيّ في كتابه التاريخ العامّ بخصوص عظمة القرآن بأنّ القرآن كتاب ممتاز تمامًا، وهو بديل عن سائر الكتب الجيّدة ويحتوي على جميع العلوم، كتاب يحتوي على أوامر مذهبيّة وقوانين مدنيّة، وهو اليوم دليل للقاضي، وكمال مطلوب للعالم الروحانيّ[٢].

نطاق قوانين القرآن

لقد كشف القرآن عمليًّا بأنّ الزمان كلّما تقادم، تمكّن من إجابة قوانين المجتمع البشريّ، وقد دوّن فقهاء الإسلام والحقوقيّون منهم لحدّ الآن أكثر من خمسين كتابًا فقهيًّا وقانونيًّا في مختلف علوم المذاهب، وهذا عدا العناوين الجديدة والكثيرة التي أضيفت إلى النتاج السابق تحت عنوان (المسائل المستحدثة)، ودوّنت هذه كلّها مجموعة كبيرة من القوانين المستحكمة والمعقولة وحازت وشملت حجمًا غنيًّا وعظيمًا.

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«إنّ الله تبارك وتعالى، لم يدع شيئًا تحتاج إليه الأمّة إلاّ أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله صلى الله عليه وآله، وجعل لكلّ شيء حدًّا، وجعل عليه دليلاً يدلّ عليه، وجعل على من تعدّى ذلك الحدّ حدًّا[٣]».

لقد كتب صاحب الجواهر الفقه والحقوق الإسلاميّة في أربعين مجلّدًا، وقد بلغت

---

١. عبداللهى خوروش، *فرهنگ اسلام شناسان خارجى*، ص٣٥.

٢. المصدر السابق، ص١٥.

٣. الكلينى، *أصول كافى*، ج١، ص٥٩.

لحدّ الآن تأليفات الحقوقيّين وعلماء الشيعة بحدود المائة وخمسين مجلّدًا في هذا الموضوع، وستتضاعف الأعداد في المستقبل يقينًا، ممّا تنبئ عن سعة عمق بحور القرآن الكريم وسنّة المعصومين عليهم السلام. وقد بلغت أمواج هذا البحر الزخّار اليوم أقصى نقاط العالم وشملتها بقانونها؛ لأنّها تتطابق مع الفطرة، وتتناغم مع ذاتيّات البشر.

بناء على هذا، فالمدينة الفاضلة، والحضارة التي تتمكّن من إدارة البشريّة، تنحصر في ظلّ قوانين القرآن، لا القوانين المصنوعة من قبل الفكر البشريّ الذي لا يخلو من التبعيض العرقيّ والأنانيّة، وتارة أيضًا من الخرافات واستخدام العنف والاستعمار والاستثمار والاستعباد والاستحمار والتفرقة والقوميّة.

فقد أبطل القرآن جميع هذه المساوئ، وقال بالاعتماد على التقوى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

وعليه، فلا تفاضل لشخص على شخص آخر إلّا بالتقوى، وهذه الرسالة العظيمة وهذا القانون الجاذب للقلوب كالمغناطيس، يجذب جميع القلوب المتعالية وينبّهها. فلا يتمكّن الأبيض من التفاخر على الأسود، ولا العربيّ على العجميّ ولا السيّد على العبد وهكذا.

وقد ورد أصلان في القرآن الكريم بخصوص حقوق الإنسان ومساواتهم، وهما يضيئان على ناصية جميع القوانين المتكفّلة لحقوق الإنسان، أحدهما تساوي الأشخاص وعدم تمايزهم على الآخرين من جهة الخصائص الفرديّة، وثانيهما تساوي الأقوام والأعراق والطوائف والقبائل، بحيث لا يمتاز عرق على عرق آخر، إلّا بصلاح أعضاء ذاك العرق وفلاحهم ونجاحهم، نعم هذا الرجحان لا يوجب التمايز المادّيّ. فالآية الدالّة على تساوي الأفراد، هي التي تلوناها آنفًا، أمّا آية تساوي الطوائف فهي: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾[2].

---

١. الحجرات: ١٣.

٢. الحجرات: ١١.

والخلاصة: فالله تعالى، عند وضع هكذا قانون واسع، يريد راحة الناس واستقرارهم، لا التعب والصعوبة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[١] كما لا يريد تحميل الناس وتكليفهم أكثر من طاقتهم: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٢] ولا يوجد أيّ ضيق في الدين الإسلاميّ، كما لا تضايق ولا تكليف أكثر من الطاقة لدى الأعمى والأعرج: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾[٣] وأيضًا: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٤] و ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[٥].

ز) الإعجاز في الإخبار بالغيب

لقد ذكرنا في التفسير الموضوعيّ عن القرآن (القرآن في القرآن) الأخبار الغيبيّة القرآنيّة، كخبر غلبة الروم، وخبر فتح مكّة وخيانة الأعداء، والأخبار الغيبيّة المتلّعقة باليهود... وبإمكان القارئ مراجعة ذلك الكتاب للوقوف على التفاصيل.

ح) الإعجاز من حيث تنوّع العلوم

لا يوجد شكّ في أنّ القرآن كتاب الله، وكتاب الله مليء بالنور والحكمة والقانون والعلم والبصيرة والسعادة. لا يغادر صغيرة ولا كبيرة تخصّ سعادة البشر إلّا وقد أحصاها، وهو بيان وتبيان لكلّ شيء.

قد بيّن القرآن كثيراً من الفنون والعلوم بوضوح، وبيّن البعض الآخر الذي لم يستوعبه مجتمع عصر النزول ولم يتهيّأ لإدراكها، بيّنها بالرمز والكناية والإشارة. وفي فترة ما بعد عصر النزول وبحسب استيعاب المخاطبين وازدهار ثقافة كلّ زمان، فتحت تلك الأسرار والرموز بالتدريج وأُكسيت تلك الإشارات لباس الحقيقة. كما سئل الإمام السجّاد عليه السلام عن

---

١. البقرة: ١٨٥.
٢. البقرة: ٢٨٦.
٣. المائدة: ٦.
٤. الحجّ: ٧٨.
٥. النور: ٦١.

التوحيد، فقال عليه السلام: إنّ الله عزّ وجلّ، علم أنّه في آخر الزمان أقوام متعمّقون فأنزل الله تعالى، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والآيات من سورة الحديد إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1].

ويظهر من هذا المقطع بشكل جيّد أنّ القرآن سيجيب على متطلّبات المجتمع البشريّ إلى يوم القيامة، ويمكنه أن يكون أسوة في جميع فنون العلم والأخلاق والعقائد والاقتصاد وعلم الاجتماع و...؛ لأنّ التفات القرآن إلى القضايا المعرفيّة وحاجات الرؤية الكونيّة، لا يوجب الاستغناء عن الالتفات إلى الحاجات الضروريّة كالسياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع و....

قبل الخوض في بعض العلوم التي أشار إليها القرآن، وقبل الشروع برسم الوصف البيانيّ، لا بدّ أن لا يُغفل الأمر الذي سبق وأن أشرنا إليه، وهو أنّه قد ذكر في المتون المقدّسة صدرُ شيء أو بدايته وقد يشار إلى بعض منها وتُبيّن باقي المبادئ التصديقيّة في الروايات المعتبرة، وتارة تُبيّن تلك المبادئ التصديقيّة من خلال الدراية العقليّة. فما ورد من اشتمال المتون المقدّسة على الفنون التجريبيّة والتاريخيّة وغيرها، فهو من هذا القبيل؛ حيث إنّ أصل المطلب يُبيّن في النصّ الدينيّ، ولكنّ كثيراً من المبادئ التصديقيّة يتمّ تأمينها من خلال الحسّ والتجربة الطبيعيّة أو المنطق الرياضيّ أو المنطق التجريديّ ونحوها.

١. قانون الجاذبيّة

لقد أشار القرآن في عدّة موارد إلى هذا القانون:

أوّلاً: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[2].

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا

---

١. الكليني، *الكافي*، ج ١، ص٩١، ح٣.

٢. الرعد: ٢.

مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾[١].

سأل الحسين بن خالد عن الإمام الرضاعليه السلام معنى هذه الآية: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾[٢] فقال: هي محبوكة إلى الأرض، وشبّك بين أصابعه، فقلت: كيف يكون محبوكة إلى الأرض والله يقول: ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[٣] فقال: سبحان الله أليس يقول (بغير عمد ترونها)؟ فقلت: بلى، قال: فثمّ عمد ولكن لا ترونها[٤].

قد أخطأ الحسين بن خالد في فهم الآية، وتصوّر أنّ معناها ارتفاع السماوات هكذا كما تُرى من دون أعمدة، ولكن نبّهه الإمام الرضاعليه السلام بأنّه هناك أعمدة ولكن لا ترونها، وهذه الأعمدة تكون بحيث تُوازن بين السماء والأرض، فحبّك بين أصابع يده.

وبناء على هذا، فالقوى التي يذكرها القرآن والتي تسبّب استقامة الأرض والسماوات، ربمّا تكون قانون الجاذبية وسائر القوى التي لم تُكتشف لحدّ الآن، نعم ربمّا تكون سائر الاحتمالات الفيزيائيّة والرياضيّة موجودة ولها صلاحيّة علميّة للتداول.

يقول أمير المؤمنينعليه السلام:

«هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كلّ مدينة إلى عمود من نور، طول ذلك العمود في السماء مسيرة مأتين وخمسين سنة»[٥].

كلام أمير المؤمنينعليه السلام هذا يمكن أن يكون تفسيراً للآيات أعلاه وغيرها من الآيات الأخرى الناظرة إلى القوانين الحاكمة على الأجرام الفلكيّة والأجسام العنصريّة، وتقبل الانطباق على قانون الجاذبيّة العامّة، نعم كما أشرنا سابقًا فإنّ مجال البحث في مختلف الاحتمالات مفتوح.

يقول العلاّمة الطباطبائيّرحمه الله: «**وإن قام جرم سماويّ من غير عمود يقوم عليه فقد قام**

---

١. لقمان: ١٠.

٢. الذاريات: ٧.

٣. الرعد: ٢.

٤. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٢، ص٤٨٠.

٥. القمي، *سفينة البحار*، ج٨، ص١٩٥/ نجم.

أيضًا بسبب خاصّ به كطبيعته الخاصّة أو التجاذب العامّ مثلاً بإذن الله»[١].

إنّ موريس مترلينغ (١٨٦٢ـ ١٩٤٩) المؤلّف والمفكّر والمحقّق البلجيكيّ المعروف، والحائز على جائزة نوبل عام ١٩١٩، وعضو الأكاديميّة الفرنسيّة، ينسب التحقيق حول قانون الجاذبيّة إلى علماء الإسلام، ويقول:

«إنّ القانون الكبير في العالم الذي لم تكتشف البشريّة قانونًا أعظم منه هو قانون الجاذبيّة الذي اكتشفه نيوتن العالم البريطانيّ المعروف. يقول بلوتارك الذي عاش بقرون قبل الميلاد: نحن نتحيّر من عدم سقوط القمر على الأرض. وقد حاول كبلر المنجّم الألمانيّ المعروف اكتشاف قانون الجاذبيّة قبل نيوتن، وقال: إنّ النجوم بحسب المسافة المكعّبيّة فيما بينهما تتجاذب، وقد تابع نيوتن في بريطانيا دراسات ومحاسبات كبلر، وبقي ستة عشر سنة مشغولاً بالمحاسبات إلى أن تمكّن من اكتشاف القوّة الجاذبة ليقول F=G ويكمل عمل كبلر»[٢].

بمعنى أنّ قوّة الجاذبيّة (F) تساوي مع ضرب ٦/ ٦١٠-٨ G في M في M (الإجرام الكبيرة والصغيرة) وتقسّم على مسافة (r^2)، وبعبارة أخرى: كلّ ذرّة من المادّة في العالم، تجذب ذرّة أخرى بقوّة تناسب مع ناتج الضرب لأجرامها، ولها نسبة معكوسة مع فواصل الجذر فيما بينها.

وكما قلنا سابقًا إنّ العلم التجريبيّ والطبيعيّ، لا يتمكّن من التعليل النهائيّ من جهة، وليس له تحديد العلّة وبيان العلّة المنحصرة من جهة ثانية؛ لأنّ أصل قانون العلّيّة أمر عقليّ وليس تجريبيًّا، ولا يتيسّر حصر العلّة من دون الاستمداد بقانون أصل التناقض وسائر المبادئ التصديقيّة الفلسفيّة، وهكذا شجاعة لا تتحصّل إلّا على ضوء الحكمة البرهانيّة، لذا فقانون الجاذبيّة ونحوها ما دام لم ينحصر لم يدخل في مدار أصل العلّيّة، لا يتحصّل الجزم العلميّ بأنّ العلّيّة أصل قانون الجذب، وأنّ العلّة الحصريّة هي هذه الجاذبة أيضًا.

---

١. الطباطبائي، ***الميزان في تفسير القرآن***، ج١١، ص٢٨٨.

٢. مترلينک، ***خداوند بزرگ و من***.

٢. كرويّة الأرض

لقد ذكر القرآن مرارًا مشارق الأرض ومغاربها، كقوله تعالى: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾[١] و ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾[٢] و ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾[٣]. فلو لم تكن الأرض كرويّة بل مسطّحة، لأشكل أمر المشارق والمغارب، وعلى افتراض كرويّة الأرض يصحّ تصوّر المشارق والمغارب. وبعبارة أخرى أنّ تصوّر المشارق والمغارب من حيث الطول والعرض الجغرافيّ، يدخل في المشارق والمغارب القرآنيّة، وكان الناس في عصر النزول يعرفون هذا الأمر نوعًا ما (وإن كان الناس في الحجاز في غفلة عنه) روى زرارة عن أبي عبد اللهعليه السلام، قال: سمعته يقول: صحبني رجل كان يمسي بالمغرب ويجلس بالفجر، وكنت أنا أصلّي المغرب إذا غربت الشمس، وأصلّي الفجر إذا استبان لي الفجر، فقال لي الرجل: ما يمنعك أن تصنع مثل ما أصنع. فإنّ الشمس تطلع على قوم قبلنا وتغرب عنّا وهي طالعة على قوم آخرين بعد، قال: فقلت: إنّما علينا أن نصلّي إذا وجبت الشمس عنّا وإذا طلع الفجر عندنا ليس علينا إلّا ذلك، وعلى أولئك أن يصلّوا إذا غربت عنهم[٤].

ويفهم من كلام الإمام الصادقعليه السلام مع الرجل بلورة مفهوم اختلاف الأفق نوعًا ما؛ لأنّ هذا كلام لا يتناسب إلّا مع افتراض كرويّة الأرض.

خلفيّة فرضيّة كرويّة الأرض

كان القدامى فيما قبل فيثاغورث يعتقدون باستواء الأرض، غير أنّ فيثاغورث وغيره من العلماء كانوا يعتقدون بكرويّة الأرض، وتمسّكوا لإثبات ذلك بعدّة أدلّة:

١. استدلّ فيثاغورث، الفيلسوف اليونانيّ الشهير في أواسط القرن السادس قبل الميلاد، على كرويّة الأرض، وقال لا يوجد أيّ شكل هندسيّ آخر أكمل من كرة

---

١. الأعراف: ١٣٧.
٢. الصافّات: ٥.
٣. المعارج: ٤٠.
٤. العاملي، *وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة*، ج٤، ص١٧٩.

الأرض؛ لانتظام جميع أجزائها بالنسبة إلى المركز، ولا يمكن تصوّر الأجرام السماويّة ومنها الأرض التي تعدّ في نهاية الكمال، بغير هذه الصورة الكاملة.

٢. قال أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ق.م) لإثبات كرويّة الأرض: في الخسوف حينما يقع ظلّ الأرض على القمر، لا يرى إلّا على شكل مستدير (أي منحنى).

٣. كما استدلّ أرسطو أيضًا بأنّ بعض المادّة لو تُركت وحالها فإنّها تظهر على شكل الكرة، وبما أنّ الأرض ساكنة وسابحة في الفضاء، فشكلها كرويّ.

٤. إنّ الشمس والقمر وسائر النجوم لا تطلع ولا تغرب على الأرض بشكل ثابت وسواسية، بل إنّ طلوعها في بلاد الشرق أسرع من بلاد الغرب، كما إنّ الغروب في البلاد الشرقيّة أسرع منه في المدن الغربيّة، وهذا دليل على أنّ سطح الأرض بين المشرق والمغرب منحني وكرويّ.

وليعلم أنّ هذا هو نفس الدليل الذي تكلّم حوله الإمام الصادقﷺ مع ذلك الشخص. فما عند العلماء من معلومات مأخوذ من الأنبياء السابقين، كما قال رسول الإسلام الأكرمﷺ: «**العلم ميراثي وميراث الأنبياء قبلي**»[1]. لذا، فإنّ العلماء ورثة الأنبياء[2].

٥. يمكن القول بخصوص كرويّة الأرض من الشمال إلى الجنوب أنّ شخصًا لو سافر من الجنوب إلى الشمال، يرى نجومًا في الجهة الشماليّة كانت خافية عليه، كما أنّ بعض النجوم الشماليّة التي كانت تشرق وتغرب عنده، يعتقد بأبديّة ظهورها، وتخفى عليه بعض النجوم الجنوبيّة التي كانت تشرق وتغرب عليه وتصير أبديّة الخفاء.

٦. يستدلّ لكرويّة سطح البحار، وهي ربع الكرة الأرضيّة، إنّ السفن البعيدة عندما تقترب من الشخص، يظهر في البداية مقدّمها وكلّما اقتربت يلوح للناظر باقي أجزائها.

---

١. *نهج الفصاحة*، ج ٢، ص٦٧١.

٢. المصدر السابق، ص٦٧٥.

٧. في القرن السادس عشر الميلاديّ سافر ماجلانو، البحّار البرتغاليّ عام ١٥١٩، من ميناء سان لوكر الواقع في جنوب غرب أسبانيا نحو المغرب في المحيط الأطلسيّ وعندما وصل أمام القارّة الأمريكيّة اتّجه نحو الجنوب عند قرب سواحلها الشرقيّة واكتشف المضيق المسمّى باسمه حاليًا، ودخل من هناك إلى المحيط الكبير وأبحر فيه إلى جزائر فليبين، وقتل هناك في حرب قامت بينه وبين سكنة تلك الجزائر، ثمّ تابع عمله أحد زملائه، وبعدما اجتاز المحيط الهنديّ دخل المحيط الأطلسيّ مرّة ثانية من قبل جنوب غرب أفريقيا، ووصل إلى ميناء سان لوكر بعد ثلاث سنوات أي عام ١٥٢٢ شهر سبتمبر.

هذه بعض أدلّة كرويّة الأرض، نعم إنّ إثبات كرويّة الأرض اليوم بفضل الملاحة الجوّيّة وحركة عابرة القارّات السريعة بحيث أصبحت كرة الأرض كقرية صغيرة، تكون سهلة ويسيرة لكثير من المسافرين.

٣. حركة الأرض

ذهب بعض العلماء إلى أنّ القرآن ذكر حركة الأرض في هذه الآية:

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[١].

وذهب فريق آخر من المفسّرين إلى أنّ هذه الآية تبحث عن الحوادث والظواهر التي تظهر قبيل القيامة؛ لأنّ الآية التي قبلها تتعلّق بنفخ الصور واندهاش من في السماوات والأرض: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾[٢] وعليه، فالآية المذكورة لا تدلّ على حركة الأرض بأيّ وجه.

ولكن يقول الفريق الأوّل: إنّ الآية التي هي قبل قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ...﴾ تتكلّم عن الحياة الدنيويّة، لذا يقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

---

١. النمل: ٨٨.

٢. النمل: ٨٧.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾[١] وعليه، فقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ...﴾ تكون من قبيل الجملة المعترضة وضعت لإيصال رسالة بين آيتين دنياويّتين، فالآية المبحوث عنها دليل على حركة الجبال والأرض.

والدليل الآخر على هذا الأمر، ما ورد في ذيل الآية من قوله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فهذا لا يتناسب مع افتراض نسف الجبال وجعلها سرابًا بل إنّها بصدد بيان الاستقامة وإتقان صنع الأشياء.

والشاهد الثالث، ما ورد في ذيلها أيضًا: ﴿...إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ فهذه الجملة تدلّ أيضًا على أنّ الآية بصدد بيان أعمال العباد الدنيويّة، وإلّا فعند نفخ الصور والفزع لا يبقى مجال لذكر الأعمال، بل ما يناسبه هو القول مثلاً بأنّ الله يحضر جميع أعمالكم ويحاسبها.

ومع هذا، فقد ذكر بعض مفسّري الفريق الثاني بأنّ أهل البيت عليهم السلام الذين يحملون علم الكتاب والسنّة قد صرّحوا بحركة الأرض، وكان ذلك التصريح بألف سنة تقريبًا قبل كوبرنيكوس، كما ورد في الدعاء: «**وبسط الأرض على الهواء**»[٢].

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا: «**وأرساها على قرار... ورفعها بغير دعائم**»[٣]. «**وعدّل حركتها بالراسيات**»[٤] وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الأشياء تدلّ على حدوثها من دوران الفلك بما فيه وهي سبعة أفلاك وتحرّك الأرض...**»[٥].

خلفيّة حركة الأرض

ذهب بعض القدماء إلى حركة الأرض حول محورها، ويمكن الإشارة بهذا الخصوص إلى بعض الفلاسفة التابعين لفيثاغورث كأرسطرخس المنجّم ـ كان حيًّا عام ٢٧٠ق.م ـ، وكان أبو سعيد أحمد بن محمّد بن عبد الجليل السجزيّ من علماء المسلمين والعالم الرياضيّ في النصف الثاني من القرن الرابع الهجريّ، يعتقد أنّ كرة السماء ساكنة

١. النمل: ٨٦.
٢. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٩٤، ص١٤٢.
٣. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٨٣.
٤. المصدر السابق، الخطبة ٩١.
٥. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٠، ص١٦٦.

والأرض تدور حول محورها.

وقال أبو ريحان البيرونيّ ضمن وصف الأسطرلاب المعروف بالزورقيّ، أنّ مبدع الأسطرلاب هو أبو سعيد السجزيّ، وأساس عمله يعتمد على حركة الأرض وثبات الأفلاك مع ما فيها عدى السيّارات السبعة.

وفي الغرب، أوّل شخص أثبت بالبراهين الواضحة أنّ تصوّر حركة الأرض لا يتناقض مع قوانين الفيزياء، إنّما هو الفيلسوف الشهير الإيطاليّ غاليلو (١٦٤٢م)[١].

وليعلم أنّ القرآن قد تطرّق في موارد مختلفة أخرى وفروع العلوم ما يبلغ حدّ الإعجاز لا يسع هذا الكتاب ذكرها، كالزوجيّة العامّة، وتطوّرات الجنين، وآثار مناخ الأرض، والمطر والرعد والبرق....

وهنا لا بدّ من التنويه إلى عدّة نقاط:

١. قد قلنا سابقًا مرارًا بأنّ البرهان العقليّ يُعدّ من أدلّة الشرع وليس في قباله.

٢. إنّ الوحي متمّم ومكمّل للعقل، وله ابتكارات وإبداعات في موارد كثيرة.

٣. إنّ ما يتيسّر للبشر الوقوف عليه بالحسّ والتجربة أو الأدوات الرياضيّة أو أعلى منها بالوسائل الحكميّة والكلام، فإنّ الوحي بالنسبة لها يعدّ مكمّلاً ومتمّمًا ومصحّحًا، وما لا يتيسّر للبشر الوقوف عليه من الطرق المذكورة، ككثير من أسماء الله الحسنى ومظاهرها، وكيفيّة الوحي والنبوّة وأحداث القيامة وما يتعلّق بها من أمور محيّرة للعقول، وكذلك الأحكام وحكمة الأشياء والأفعال والأوصاف وفي النهاية العقائد، فإنّ الوحي الإلهيّ يكون مؤسّسًا لها ويفسّرها ويشرحها بصور مختلفة.

٤. إنّ مسألة حركة الأرض وما يشاكلها يدخل في القسم الأوّل، فالوحي الإلهيّ لم ير بخصوصها لزومًا للتكرار والصراحة والإصرار والمتابعة.

٢. سائر معاجز نبيّ الإسلامﷺ

لنبيّ الإسلامﷺ معاجز أُخرى غير القرآن، أتى بها بإذن الله في مقاطع مهمّة؛ لأنّ الناس

---

١. فلّينو، *تاريخ نجوم اسلامى*، ص ٣١٢.

المجادلين والباحثين كانوا يقولون: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[١] والنبيّﷺ كان يقبل طلبهم وأتى بمعاجز مختلفة في سنوات نبوّته، وهنا نشير إلى بعض هذه المعاجز.

أ) شقّ القمر

ذكر المفسّرون أنّ المشركين جاؤوا إلى النبيّﷺ، وقالوا: إذا أنت نبيّ فشقّ لنا القمر، فأنزل الله هذه الآيات في القرآن: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾[٢].

بيان ذلك: إنّ المشركين طلبوا من النبيّﷺ شقّ القمر، فدعا النبيّ وشقّ الله القمر، فأشهدهم النبيّ ثمّ التأم الشقّ، قالت قريش إنّه سحر ولا بدّ أن ننتظر قدوم المسافرين من خارج مكّة لنرى هل رأوا ذلك أيضًا أم لا لأنّ محمّدًا لا يتمكّن من سحر جميع الناس. فقدم المسافرون واحد بعد الآخر وسألت قريش عنهم حقيقة الأمر، فأجابوا بأنّهم رأوا أنّ القمر انشقّ نصفين، اقترب نصف منه من هذا الجبل، وذهب النصف الثاني إلى ما يقارب خلف الجبل.

قال الأستاذ الطباطبائيّ:

«ذكر السيّد الشريف أنّ الحديث متواتر لا يمترى في تواتره. والروايات مستفيضة متكاثرة رواها الفريقان وتسلّمها المحدّثون، فالكتاب والسنّة يدلّان عليها. وانشقاق كرة من الكرات الجوّيّة ممكن في نفسه لا دليل على استحالته العقليّة، ووقوع الحوادث الخارقة للعادة، ومنها الآيات المعجزات، جائز. ومن أوضح الشواهد عليه القرآن الكريم، فمن الواجب قبول هذه الآية، وإن لم يكن من ضروريّات الدين»[٣].

والقرآن الكريم لم يتطرّق إلى معاجز النبيّﷺ فحسب، بل ذكر معاجز كثير من الأنبياء

---

١. الشعراء: ١٥٤.

٢. القمر: ١-٤.

٣. الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن*، ج١٩، صص٦١-٦٢.

أيضًا، وأشار الى أنّ جميع الأنبياء كانت لهم تصرّفات في الكون، كما سخّر لسليمان الفضاء وألان له معادن النحاس: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾[١].

وسخّر الله البحر لموسى كمعجزة وفتح له طريقًا يابسًا بعد ما ضرب البحر بعصاه: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾[٢]. وكان يكسر بعصاه الحجر الصلد فتظهر منها عيون الماء: ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[٣].

وقد جعل النار لإبراهيمؑ بردًا وسلامًا: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[٤] وكذلك ناقة صالح ومعجزات عيسى.

وبناء على هذا، فالإشكال في شقّ القمر وسائر معاجز الأنبياء بعيد عن التعقّل بفراسخ؛ لعدم التمييز بين الامتناع العاديّ والامتناع العقليّ، ولم يفكّك بين خرق العادة وخرق أصل العلّيّة....

ب) المعراج الجسمانيّ والروحانيّ

يُعدّ المعراج من المعاجز العمليّة للنبيّﷺ. وقد ذكر القرآن والسنّة والمقطوع بها حادثة المعراج ونقرأ في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٥].

وقد حدث المعراج في مرحلتين: أرضيّة وسمائيّة، ففي المرحلة الأرضيّة سار النبيّﷺ من مكّة إلى المسجد الأقصى، كما أشارت إليه صدر الآية المذكورة. وتمّ بيان المرحلة السمائيّة في سورة النجم. وكان المعراج في الليل لأنّ ﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا

---

١. سبأ: ١٢.
٢. طه: ٧٧.
٣. الأعراف: ١٦٠.
٤. الأنبياء: ٦٩.
٥. الإسراء: ١.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[١]؛ لأنّ القيام في الليل أصعب والكلام فيه أصدق، وعليه فتحقّق كلّ شيء في الليل أسهل.

وعلى كل حال، فهذه الحركة كانت في اليقظة وبهذا الجسم؛ لأنّ (العبد) هو مجموع الجسم والروح، والنبيّﷺ عرج بهما معًا في حالة اليقظة، ولو كان المعراج حادثًا في النوم لما كان متوافقًا مع ظاهر الآية الدالّة على الامتنان.

والآيات التي رآها النبيّﷺ تلك الليلة ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ كانت آيات خاصّة، وكانت رؤيتها بالحواسّ الباطنيّة وملكوتيّة، لا مُلكيّة وبالعين والأذن الظاهريّة؛ لأنّ الله تعالى، قد أرى الآيات الظاهريّة لجميع الناس: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٢].

إنّ إثبات المعراج الجسمانيّ في حدود الحركة الأرضيّة، كالسير من المسجد الحرام إلى بيت المقدس والسير في مدارج السماء وطبقاته، ممكن تمامًا، ولا يوجد أيّ محذور وإشكال في حركة الجسم في نطاق الأرض أو السماء؛ لأنّ طيّ السماوات لصاحب الإعجاز والكرامات سهل يسير كالمشي على الأرض وإذا كان نقل عرش بلقيس ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين في طرفة عين ممكن: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾[٣]. كانت حادثة سير جسم رسول اللهﷺ في السماوات ممكنة أيضًا.

ومن الواضح يلزم أن لا يتمّ الإفراط في معنى المعراج الجسمانيّ بحيث تتحوّل جميع الأمور المعنويّة والروحانيّة إلى سلسلة من الأمور المادّيّة؛ لأنّه يلزم مراعاة جانب المعراج الروحانيّ الذي كان قبل المعراج الجسمانيّ أيضًا تمامًا، وإنّما يتمّ حفظ الحدود بين المعراج الجسمانيّ والروحانيّ بالنقاط الآتية:

١. إنّ عروج رسول الإسلام الأكرمﷺ كان دائمًا بجسمه وفي حالة اليقظة.

---

١. المزّمّل: ٦.

٢. آل عمران: ١٩٠.

٣. النمل: ٤٠.

٢. لم يفارق رسول اللهﷺ في معراجه جميعًا عالم الطبيعة بشكل نهائيّ وكلّيّ، بل جمع بين المُلك والملكوت مع الطبيعة، ولو كان ببُعد واحد لزم أن يكون إمّا بتجرّد الموجود المادّيّ أو مادّيّة الموجود المجرّد، وكلا الفرضين باطل؛ لأنّه يستلزم محذور اجتماع النقيضين، وعلى سبيل المثال فلو كان جسم رسول اللهﷺ هو الذي اقترب من الله تعالى، لزم منه أن يُتصوّر القرب المادّيّ والمكانيّ والعياذ بالله، ولو كان ما حصل في هذا السير الملكوتيّ هو التجرّد الصرف، لزم منه أن لا يكون شيئًا منه محسوسًا بالسامعة أو الباصرة ونحوهما.

٣. لم يكن السير الجسميّ لرسول اللهﷺ في السماوات بمعنى الخروج من عالم الطبيعة؛ لأنّ السماوات الظاهرة، كالأرض، لها وجود مادّيّ وطبيعيّ تجري عليها أحكام الطبيعة، مع بقاء القسم المتجرّد على حكمه. وعلى سبيل المثال: فإنّ الصلاة التي هي توجب تقرّب المتقينّ: «الصلاة قربان كلّ تقيّ[1]». إذا تمّ أداؤها في الأرض أو في السماء، ففي كلا الحالتين فإنّ التقرّب إلى الله، الراجع إلى القسم المتجرّد، إنّما هو روحانيّ والجسم لا يكون له تقرّب مكانيّ إلى الله تعالى. وبناء على هذا، فإنّ رسول اللهﷺ عندما تكون له حالات معنويّة خاصّة في الأرض، فإنّ جسمه الشريف لا يقترب من الله، فمعراج رسول الله الروحانيّ في السماء يكون هكذا أيضًا.

وعليه، فإنّ قسمًا من حالات تلقّي الوحي والعروج والإسراء يتحقّق في ظلّ ارتباط رسول اللهﷺ الخارجيّ مع عالم المثال المنفصل، كما يكون قسمًا آخر منه مرتبطًا بعالم المادّة والطبيعة، والقسم الثالث منه يتحقّق بالارتباط مع عالم التجرّد التامّ والعقل المحض.

أهداف المعراج

ذكر الله سبحانه، إنّ أهداف المعراج هي إراءة الآيات الكبرى لرسول الإسلام المكرّم:

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٠، ص٩٩.

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[١] كما تكلّم رسول اللهﷺ بعد هذا السير السمائيّ بحقائق ومعارف كبيرة، كرؤية الملائكة والأنبياء وحقيقة الموت وملائكة الموت والحياة والرزق والجنّة والنار كما تناول بعض فواكه الجنّة وغيرها.

ثمّ إنّ عباد الله الصالحين، وإن أمكنهم الوصول إلى بعض تلك الأمور المذكورة، غير أنّ معراج النبيّﷺ مع رؤية تلك العجائب والأسرار الكثيرة، تتناسب مع شأن النبيّ الخاتمﷺ ولم يصل إليها أحد لا من الأوّلين ولا من الآخرين.

ج) الإخبار بالغيب

عدّ القرآن الكريم تقرير الأخبار الغيبيّة لنبيّ الله عيسىعليه السلام، ضمن معاجز نفسه، وقال: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٢].

وقد ذكر القرآن الكريم أكثر من أربعين معجزة وأخبارًا للغيب لرسول اللهﷺ، وقد نقل الحرّ العاملي رحمه الله بعد ذكر هذه الآيات، سبعمائة وعشرين حديثًا من كلمات رسول اللهﷺ الغيبيّة، ثمّ قال:

«وروى محمّد بن علي بن شهر آشوب في كتاب المناقب أحاديث كثيرة جدًّا في المعجزات... وروى في أحاديث كثيرة في إجابة دعائهﷺ وفي الهواتف في المنام، وفي نطق الجمادات، وكلام الحيوانات، وتكثير الطعام والشراب، ومعجزات أقواله وإخباره بالمغيّبات، ومعجزات أفعاله، ومعجزاته في ذاته... ثمّ قال: وكان له من المعجزات ما لم يكن لغيره وذكر أنّ له أربعة آلاف وأربعمائة وأربعين معجزًا، ذكرت منها ثلاثة آلاف»[٣].

ثالثًا: بشارة الأنبياء السابقين

الدليل الثالث على نبوّة النبيّ محمّدﷺ بشائر الأنبياء السابقين:

---

١. النجم: ١٨.

٢. آل عمران: ٤٩.

٣. العاملي، *إثبات الهداة*؛ ج١، ص٢٠٨ الباب الثامن.

١. يقول القرآن المصون من أيّ تحريف: إنّ المسيح بعدما بيّن معاجزه، أضاف قائلاً بأنّه يخبرهم عمّا يدّخرون في بيوتهم وما يأكلون، وأخبر عن الحوادث التي ستقع، ثمّ قال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[١].

وليعلم أوّلاً: أنّه لو كان يظهر غير محمّدﷺ من نبيّ أو أنبياء آخرين، لما كان وجه للبشارة بخصوص النبيّ محمّدﷺ. وثانيًا: إنّ مقام محمّدﷺ أفضل من مقام سائر الأنبياء السابقين، ودينه أكمل الأديان السابقة؛ لأنّ كلمة البشارة مضافًا إلى اشتمالها على العلم بالغيب، فإنّه يفهم منها تفضيل المستقبل على الحال أيضًا؛ لأنّ أوضاع ما يحدث في المستقبل لو كانت مساوية أو أقلّ من الحال الموجود آنذاك، فالإعلان المحقّق منه لم يعدّ بشارة؛ إذ البشارة تطلق دومًا على أمر يوجب الفرح ويفقده الإنسان.

وبناء على هذا، فلا بدّ من وجود كمال في دين النبيّ الخاتمﷺ يفقده دين النبيّ السابق، كما توجد خصال في الإسلام تفقدها المسيحيّة، وإنّ القرآن والإسلام يمتازان على سائر الأديان بالشهادة والسلطة والهيمنة والمراقبة، كما أنّ نبيّ الإسلامﷺ أفضل من سائر الأنبياءعليهم السلام. وقد قال نبيّ الإسلامﷺ «**آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة**»[٢].

٢. يشير القرآن إلى ذكر علائم نبيّ الإسلامﷺ في التوراة والإنجيل وقد وجدوا ذلك أيضًا: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

٣. إنّ الله تعالى، الخبير بكلّ ما يخفى ويظهر يقول: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا

---

١. الصفّ: ٦.

٢. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٦، ص٤٠٢.

٣. الأعراف: ١٥٧.

﴿يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١].

ورد في الحديث عن الإمام الصادقؑ أنّه قال: «إنّ الله عزّ وجلّ، قد أنزل في التوراة والإنجيل والزبور صفة محمّدﷺ وصفة أصحابه ومهاجرته، وهو قول الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾[٢] وهذه صفة محمّد رسول اللهﷺ في التوراة وصفة أصحابه، فلمّا بعثه الله عزّ وجلّ، عرفه أهل الكتاب كما قال جلّ جلاله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾[٣].

٤. إنّ أكبر دليل على أحقيّة النبيّﷺ، ما ورد من خصائص النبيّ وأوصافه وأوصاف أصحابه في التوراة والإنجيل والزبور. وقد جادل أهل الكتاب رسول اللهﷺ وتكلّموا معه كثيراً، ولم يكذّب أحد منهم أبدًا هذا المدّعى من قبل النبيّ وأئمّة الدين، بأنّ هذا الكلام كذب، ولم يرد ذكر في الكتب السماويّة له ولأوصافه، بل إنّ كثيراً منهم عندما شاهد أوصافهﷺ، ورأى أنّها تتطابق مع ما ورد عندهم من الكتب السماويّة، آمنوا به مباشرة واحترموه ودافعوا عنه وتشرّفوا بخدمته من أماكن قريبة ونائية.

إنّ سلمان الفارسيّؓ كان من الذين سمع صيت النبيّﷺ من الكتب السماويّة، وبحث عنه في كلّ مكان إلى أن أدرك محضره في المدينة، فلو كان رسول اللهﷺ كاذبًا والعياذ بالله في دعواه، لتألّبت عليه جميع اليهود والنصارى وكذّبته وأثبتت ذلك في كتبها.

---

١. البقرة: ١٤٦.

٢. الفتح: ٢٩.

٣. البقرة: ٨٩؛ بحرانی، *تفسیر برهان*، ج١، ص١٦١.

بشائر التوراة

قد ورد في التوراة وفي موارد متعدّدة البشارة بالنبيّ محمّدﷺ، ونشير فيما يلي إلى بعضها:

١. ورد في التوراة سفر التثنية:

«(١٥) يقيم لكم الربّ إلهكم نبيًّا من بينكم من إخوتكم بني قومكم مثلي، فاسمعوا له (١٦) طلبتم من الربّ إلهكم في حوريب يوم اجتماعكم هناك أن لا يعود يُسمعكم صوته ويريكم تلك النار العظيمة ثانية لئلاّ تموتوا (١٧) فقال لي الربّ: أحسنوا فيما قالوا (١٨) سأقيم لهم نبيًّا من بين أخوتهم مثلك وأُلقي كلامي في فمه، فينقل إليهم جميع ما أكلّمه به[١]».

إنّ هذه البشارة لم تكن لمجيء النبيّ يوشعؑ كما تزعمه اليهود، كما إنّها لم تكن بشارة للمسيحؑ كما تزعمه البروتستانتيّة، بل إنّها بشارة بالنبيّ محمّدﷺ، وقد نقل فى التأريخ: كان مخريق عالمًا مشهورًا من علماء اليهود[٢]، وله أموال ونخيل كثيرة، وكان يعرف النبيّﷺ بتلك الأوصاف ومع هذا بقي على كفره إلى غزوة بدر فقال لقومه: أنتم تعلمون أنّ محمّدًا رسول الله، فلماذا لا تنصرونه؟ فلبس لامته ووصّى إن قتل تكون جميع أمواله للنبيّﷺ، فذهب إلى القتال واستشهد هناك[٣]. وقد ورد عن صفيّة بنت حيّ أنّ رسول اللهﷺ عندما ورد إلى المدينة ونزل قبا، جاء أبوها حيّ بن أخطب وعمّها إلى رسول اللهﷺ في الصباح الباكر ورجعا عند غروب الشمس متعبين مهمومين، وفي الليل سمعت عمّي يقول لأبي: هل هو الشخص الذي بشّرت به التوراة؟ فقال أبي: نعم والله، قال: هل تعرفه؟ قال أبي: لم يقرأ أحد التوراة إلاّ ويعرفه...[٤].

٢. وقد ورد في تورات، هكذا: «(٢١) هم اغارونى بما ليس الها اغاظونى باباطيلهم.

---

[١]. *الكتاب المقدّس*، سفر التثنية، الإصحاح ١٨.

[٢]. بيهقى، ابوبكر، *دلائل النبوه*، بيروت، دارالكتب العلمية، ط الأول، ١٤٠٥، ج٢، ص٣٣٤-٣٥٧.

[٣]. واقدى، مغازى، تحقيق مارسدن جونس، بيروت، مؤسسة اعلمى، ط الثالث، ١٩٨٩، ج١، ص٣٧٨.

[٤]. *السيرة النبوية*، ابن كثير، ج ٢، ص ٢٩٨.

فانا اغيرهم بما ليس شعبا. بامّة غبية اغيظهم»[١].

والمراد من «امّة غبية» هم عرب الجاهليّة، حيث كانوا محرومين من العلوم العقليّة والنقليّة قبل البعثة، وكانوا يعبدون الأصنام، ويغيرون بعضهم على بعض ويتحاربون ويقطعون الرحم. لذا كانوا عند بني إسرائيل من أحقر الناس سيّما وأنّهم من أولاد هاجر الجارية. فعبادة بني إسرائيل للأرباب الباطلة سبّبت أن يبعث الله تعالى، النبيّ الخاتمﷺ من بين هؤلاء الناس الجهلاء: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[٢].

فليس المراد من القوم الجهّال اليونانيّين كما ظنّ القدّيس بولص الفريسيّ[٣]؛ لأنّ اليونانيّين كانوا خبراء في جميع العلوم بأكثر من ثلاثمائة سنة من ميلاد المسيح، وكان أكثر الحكماء المشهورين منهم كبقراط وسقراط وفيثاغورث وأفلاطون وأرسطا طاليس وأرشميدس وأقليدس وجالينوس وغيرهم.

ورد في توراة: «(٢) جاء الرب من سيناء واشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم»[٤].. والمقصود من مجيء الربّ من سيناء، نزول التوراة على موسىعليه السلام، كما أنّ الإشراق من ساعير يعني إعطاء الإنجيل لعيسىعليه السلام، والبريق من الجبل فاران يعني نزول القرآن على رسول اللهﷺ؛ لأنّ فاران جبل من جبال مكّة. والشاهد على ذلك آيات ٢٠ـ٢١ من سفر التكوين الواردة في بيان أحوال إسماعيلعليه السلام: «(٢٠) وكان الله مع الغلام[**أي إسماعيل**] فكبر. وسكن فى البرية وكان ينمو رامى قوس. (٢١) وسكن فى برية فاران. وأخذت له امه زوجة من ارض مصر»[٥].

وممّا لا شكّ فيه كون سكن إسماعيلعليه السلام في مكّة، وقد استدلّ الإمام الرضاعليه السلام

---

[١]. *الكتاب المقدّس*، سفر التثنية، الإصحاح ٣٢.

[٢]. الجمعة: ٢.

[٣]. ٢قرن، ١١: ١٦و ١٧.

[٤]. *الكتاب المقدّس*، سفر التثنية، الإصحاح ٣٣.

[٥]. *الكتاب المقدّس*، سفر التكوين، الإصحاح ٢١.

أيضًا بهذه الآيات من التوراة عند مناظراته لرأس الجالوت في مجلس المأمون، حيث قال:

«هل تعلم يا يهوديّ أنّ موسىعليه السلام أوصى بني إسرائيل فقال لهم: أنّه سيأتيكم نبيّ هو من إخوانكم فيه فصدّقوا ومنه فاسمعوا، فهل تعلم أنّ لبني إسرائيل إخوة غير ولد إسماعيل؟ فقال رأس الجالوت: هذا قول موسى لا ندفعه، فقال له الرضاعليه السلام: هل جاءكم من إخوة بني إسرائيل نبيّ غير محمّدصلى الله عليه وآله؟ قال: لا، قال الرضاعليه السلام: أفليس قد صحّ هذا عندكم؟ قال: نعم، ولكنّي أحب أن تصحّحه لي من التوراة، فقال له الرضاعليه السلام: هل تنكر أنّ التوراة يقول: جاءكم النور من جبل طور سيناء، وأضاء لنا من جبل ساعير، واستعلن علينا من جبل فاران؟ قال رأس الجالوت: أعلم هذه الكلمات وما أعلم تفسيرها، قال الرضاعليه السلام: أنا أُخبرك به، أمّا قوله جاء النور من جبل طور سيناء فذلك وحي الله تبارك وتعالى، الذي أنزله على موسى على جبل طور سيناء، وأمّا قوله أضاء لنا من جبل ساعير، فهو الجبل الذي أوحى الله تعالى، إلى عيسى بن مريم وهو عليه، وأمّا قوله واستعلن علينا من جبل فاران، فذلك جبل من جبال مكّة بينه وبينها يوم...»[١].

٣. ورد في البشارة الرابعة اسم النبيّ محمّدصلى الله عليه وآله والبشارة بالأئمّة الإثني عشرعليهم السلام بعده بكلمات عبرانيّة هكذا: «وليشمعيل شمعتخ هنيّ بريختي أتود هفرتي أتود هربتي أو بماد ماد شينم اسار نسي إم واناتيو الكوي كادل تمر[٢]». أي يا إبراهيم لقد سمعت دعاءك بحقّ إسماعيل. فباركته وأكبرته «بمئاد مئاد[٣]» وفي نسله اثني عشر إمامًا وستجعل له أمّة عظيمة.

وفى التوراة الموجودة جاءت العبارة هكذا:

---

[١]. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٢، ص٨٠.

[٢]. וְלִישְׁמָעֵאל שְׁמַעְתִּיךָ הִנֵּה ו בֵּרַכְתִּי אֹתוֹ וְהִפְרֵיתִי אֹתוֹ וְהִרְבֵּיתִי אֹתוֹ בִּמְאֹד מְאֹד שְׁנֵים־עָשָׂר נְשִׂיאִם יוֹלִיד וּנְתַתִּיו לְגוֹי גָּדוֹל: (בראשׁ 17:20 Hebrew OT: Westminster Leningrad Codex).

[٣]. בִּמְאֹד (bim-ʾōḏ) מְאֹד (mə-ʾōḏ).

«(٢٠) وأمّا إسماعيل فسمعت لك، وها أنا أباركه وأنمّيه وأكثّره جدًّا، ويلد إثني عشر رئيسًا واجعل نسله أمّة عظيمة»[١].

والمقصود من (مئاد مئاد) في العبريّ، نبيّ الله محمّدﷺ، والمقصود من (شينم اسار نسي ام[٢]) الأئمّة الإثني عشر؛ لأنّ (شينم اسار[٣]) يعني اثني عشر، و(نسي ام[٤]) يعني الإمام.

وقد أورد القرآن دعاء إبراهيمعليه السلام هكذا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٥]. وقد قال رسول اللهﷺ: «**أنا دعوة أبي إبراهيم**عليه السلام»[٦].

وليعلم أنّه ورد في المزمور بشائر أخرى نقلاً عن التوراة نطوي عنها كشحًا رعاية للاختصار.

بشائر الإنجيل

١. . إنجيل يوحنّا

نقرأ في إنجيل يوحنّا:

«(٧) لكنى اقول لكم الحق انه خير لكم ان انطلق. لانه ان لم انطلق لا يأتيكم المعزى. ولكن ان ذهبت ارسله اليكم... (١٢) ان لى أمورا كثيرة ايضا لاقول لكم ولكن لا تستطيعون ان تحتملوا الآن. (١٣) واما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق لانه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بامور آتية. (١٤) ذاك يمجدنى لانه يأخذ مما لى ويخبركم. (١٥) كل

---

١. *الكتاب المقدّس*، سفر التكوين، الإصحاح ١٧.

٢. שְׁנֵים־עָשָׂר נְשִׂיאִם.

٣. שְׁנֵים־עָשָׂר.

٤. נְשִׂיאִם.

٥. البقرة: ١٢٩.

٦. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج ١، ص١٣٠.

ما للآب هو لى. لهذا قلت انه يأخذ مما لى ويخبركم.[١]»

وورد في ترجمة فان دايك، أهم ترجمة عربية من العهد الجديد التي ظهرت في القرن التاسع عشر، كلمة «المعزّي» في ترجمة كلمة «الفارقليطا»، والحال أنّ الأسماء لا بدّ وأن تبقى على حالها عند الترجمة.

ونقرأ في الترجمة العربية الجديدة:

«(١٥) إذا كنتم تحبّوني حفظتم وصاياي (١٦) وأنا سأسأل فيهب لكم مؤيّدًا آخر يكون معكم إلى الأبد... (٢٥) قلت لكم هذه الأشياء وأنا مقيم عندكم، ولكن المؤيّد الروح القدس الذي يرسله الأب باسمي هو يعلّمكم جميع الأشياء ويذكّركم جميع ما قلته لكم»[٢].

نقرأ في إنجيل يوحنّا العربيّ: «(٢٦) ومتى جاء المؤيّد الذي أرسله إليكم من لدن الأب روح الحقّ المنبثق من الأب فهو يشهد لي»[٣] والمقصود منه النبّيﷺ. و جاء في ترجمة فان دايك: «ومتى جاء المعزى الذى سأرسله انا اليكم من الآب روح الحق الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى.»

حادثة المباهلة

لقد ذكر جميع المؤرّخين والمفسّرين وأهل الحديث، حادثة مباهلة نصارى نجران مع نبيّ الإسلامﷺ، واتّفقوا أنّ قساوسة النصارى أقرّوا بنبوّة النبيّ محمّدﷺ واستسلموا أمامه وتعهّدوا بدفع الجزية، وقد رووا حادثة المباهلة هكذا:

لما بلغ صيت النبيّ محمّدﷺ إلى نجران، هيّأ قساوسة نصارى نجران عدّة أسئلة للتعرّف على صحّة دعواه وجاؤوا مع جمع إلى المدينة، فقدّم الأساقفة أسئلتهم وسمعوا

---

١. *العهد الجديد*، ترجمة فان دايك، إنجيل يوحنّا، الإصحاح ١٦.

٢. *العهد الجديد*، الترجمة العربية الجديدة، إنجيل يوحنّا، الإصحاح ١٦.

٣. *العهد الجديد*، إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٥.

الأجوبة لكنّهم امتنعوا من قبول الحقّ، فنزلت حينئذٍ آية المباهلة: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[١].

وبعدما اقتُرحت المباهلة رجع النصارى إلى مواقعهم واستشاروا فيما بينهم، فوصلوا إلى نتيجة أنّ النبيّ محمّدًاﷺ إذا خرج بجميع أصحابه مع جلال السلاطين كي يحضروا المباهلة فإنّه ليس بنبيّ فنباهله، أمّا لو خرج مع خاصّة أهله فهذه طريقة الأنبياء فلا نباهله.

فلمّا طلعت الشمس أمر النبيّﷺ بتهيئة مكان ما بين الشجرتين ووضع عباءته السوداء على الأرض وذهب إلى بيت أمير المؤمنين فأخذ الإمام الحسينعليه السلام في حجره وأخذ بيد الإمام الحسنعليه السلام وأمر بفاطمةعليها السلام أن تسير خلفه وأمير المؤمنين خلف فاطمة، فجاؤوا ووقفوا على العباءة الموضوعة بين الشجرتين، فأرسل النبيّﷺ بطلب الأساقفة (السيّد والعاقب) ليجيؤوا للمباهلة.

فجاء السيّد والعاقب، وقالوا: مع من تباهل معنا يا أبا القاسم، فذكر رسول اللهﷺ أنّه يباهل مع أفضل أهل الأرض وأكرمهم عند الله، وأشار إلى أهل بيته؛ أي عليّ وفاطمة والحسن والحسينعليهم السلام، وذكر أنّه أُمر من قبل الله أن يباهل بهم وذكر أنّه إذا دعا يؤمّنوا على دعائه. كما ذكر لهم أنّهم إذا باهلوا يمسخوا قردة وخنازير وتضرم عليهم الصحراء نارًا، وينزل العذاب على أهل النجران بما فيها من دوابّ وطيور.

فقال الأسقف الأعظم وكان أعلمهم بعدما رأى هذه الحالة: إنيّ أرى وجوهًا تحت العباءة لو دعوا الله أن ينقل هذا الجبل من مكانه لاستجاب دعاءهم. إيّاكم أن تباهلوا فتهلكوا. فأذعنوا بنبوّته وتعهّدوا بدفع الجزية، بمقدار ألفي كساء أحمرًا لكلّ سنة، زائدًا ألف دينار ذهبًا وثلاثين لامة، يعطون نصفها في رجب والنصف الآخر في محرّم[٢].

---

١. آل عمران: ٦١.

٢. الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن*، ج٣، ص٢٦٦؛ و خلخالي، *أنيس الأعلام*، ج٥، ص١٩٩.

٢. إنجيل برنابا

إنّ إنجيل برنابا يُعدّ أكثر وضوحًا من باقي الأناجيل الأربعة، وقد وصل إلينا وأشار إلى رسول اللهﷺ بشكل واضح، وذكر اسمه وخلقه وبرنامجه للهداية عدّة مرات.

نقرأ في هذا الإنجيل:

«(٢٢) ولكن سيأتي بعد بهاء كلّ الأنبياء الأطهار، فيشرق نورًا على ظلمات سائر ما قال الأنبياء (٢٣)؛ لأنّه رسول الله»[١].

وورد فيه أيضًا:

«(١٣) ثمّ أعطى الله نفسه للإنسان، وكانت الملائكة كلّها ترنّم: اللهم ربّنا تبارك اسمك (١٤) فلما انتصب آدم على قدميه رأى في الهواء كتابة تتألّق كالشمس نصّها: لا إله إلّا الله ومحمّد رسول الله (١٥) ففتح حينئذٍ آدم فاه وقال: أشكرك أيّها الربّ إلهي لأنّك تفضّلت فخلقتني (١٦) ولكن أضرع إليك أن تنبأني ما معنى هذه الكلمات: محمّد رسول الله (١٧) فأجاب الله: مرحبًا بك يا عبدي آدم (١٨) وإنيّ أقول لك أنّك أوّل إنسان خُلقت (١٩) وهذا الذي رأيته إنمّا هو ابنك الذي سيأتي إلى العالم بعد الآن بسنين (٢٠) وسيكون رسولي الذي لأجله خلقت كلّ شيء (٢١) الذي متى جاء سيعطي نورًا للعالم (٢٢) الذي كانت نفسه موضوعة في بهاء سماويّ ستين ألف سنة قبل أن أخلق شيئًا (٢٣) فضرع آدم إلى الله قائلاً: يا ربّ هبني هذه الكتابة على أظفار أصابع يدي (٢٤) فمنح الله الإنسان الأوّل تلك الكتابة على إبهاميه (٢٥) على ظفر إبهام اليد اليمنى ما نصّه: لا إله إلّا الله (٢٦) وعلى ظفر إبهام اليد اليسرى ما نصّه: محمّد رسول الله (٢٧) فقبّل الإنسان الأوّل بحنوٍّ أبويٍّ هذه الكلمات (٢٨) ومسح عينيه وقال: بورك ذلك اليوم الذي سيأتي فيه إلى العالم»[٢].

وورد فيه أيضا:

---

١. *إنجيل برنابا*، الإصحاح ١٧.

٢. *إنجيل برنابا*، الإصحاح ٣٩.

«(١٣) أجاب يسوع: ان الايات التي يفعلها الله على يدي تظهر اني أتكلم بما يريد الله (١٤) ولست احسب نفسي نظير الذي تقولون عنه (١٥) لاني لست أهلا أن أحل رباطات جرموق او سيور حذاء رسول الله الذي تسمونه مسيا (١٦) الذي خلق قبلي وسياتي بعدي (١٧) وسياتي بكلام الحق ولا يكون لدينه نهاية».[١]

فقد وصف السيد المسيح عليه السلام في هذا المقطع النبي صلى الله عليه واله بالخاتم ودينه بالدائم الى يوم القيامة. كما انه عليه السلام ذكر اوصاف النبي صلى الله عليه واله وخصائصه لتلامذته هكذا:

«لذلك أقول لكم: إنّ رسول الله بهاء يسُر كلّ ما صنعه الله قريبًا (٢٠) لأنّه مزدان بروح الفهم و المشورة (٢١) روح الحكمة والقوّة (٢٢) روح الخوف والمحبّة (٢٣) روح التبصّر والاعتدال (٢٤) مزدان بروح المحبّة والرحمة (٢٥) روح العدل والتقوى (٢٦) روح اللطف والصبر التي أخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه (٢٧) ما أسعد الزمن الذي سيأتي فيه إلى العالم (٢٨) صدّقوني إنيّ رأيته وقدّمت له الاحترام كما رآه كلّ نبيّ (٢٩) لأنّ الله يعطيهم روحه نبوّة (٣٠) ولما رأيته امتلأت عزاء قائلاً: يا محمّد ليكن معك الله، وليجعلني أهلاً أن أحلّ سير حذائك (٣١) لأنيّ إذا قلت هذا صرت نبيًّا عظيمًا وقدّوس الله»[٢].

ويذكر إنجيل برنابا المعاد وإحياء الأنبياء وأملهم بشفاعة محمّد صلى الله عليه وآله ويقول: «ثمّ يحيي الله بعد ذلك سائر أنبيائه الذين سيأتون جميعهم تابعين لآدم (٨) فيقبلون يد رسول الله واضعين أنفسهم في كنف حمايته (٩) ثمّ يحيي الله بعد ذلك سائر الأصفياء الذين يصرخون: أذكرنا يا محمّد (١٠) فتتحرّك الرحمة في رسول الله لصراخهم (١١) وينظر فيما يجب فعله لأجل خلاصهم[٣]».

---

١. المصدر السابق، الإصحاح ٤٢.
٢. المصدر السابق، الإصحاح ٤٤.
٣. *إنجيل برنابا*، الإصحاح ٥٤.

كما نقرأ إنّ السيّد المسيح عليه السلام قال وهو بين الحواريّين:

«... (٦) سأنصرف عن العالم (٧) فبكى حينئذٍ الرسل قائلين: يا معلم لماذا تتركنا؟ لأنّ الأحرى بنا أن نموت من أن تتركنا (٨) أجاب يسوع: لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا (٩) لأنيّ لست أنا الذي خلقكم بل الله الذي خلقكم يحميكم (١٠) أما من خصوصي فإنيّ قد أتيت لأُهيء الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص العالم (١١) ولكن احذروا أن تغشوا لأنّه سيأتي أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامي وينجسون إنجيلي (١٢) حينئذ قال اندراوس: يا معلم اذكر لنا علامة لنعرفه (١٣) أجاب يسوع: إنّه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم سنين حينما يبطل إنجيلي ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمنًا (١٤) في ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذي تستقرّ على رأسه غمامة بيضاء يعرفه أحد مختاري الله وهو سيظهره للعالم (١٥) وسيأتي بقوّة عظيمة على الفجّار ويبيد عبادة الأصنام من العالم... (٢٤) فمتى شوهد سقوط عبادة الأصنام إلى الأرض، واعترف بأنيّ بشر كسائر البشر، فالحقّ أقول لكم: أنّ نبيّ الله حينئذٍ يأتي»[١].

وقد أشار السيّد المسيح عليه السلام إلى عدّة نقاط:

- إنيّ لست الله ولست ابنًا لله، بل بشر كسائر أفراد البشر.
- إنيّ جئت لأهيّئ العالم لمجيئ النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله.
- سيتمّ تحريف الإنجيل.
- سيقلّ عدد المؤمنين أبان بعثة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله بشكل كبير.
- من علائم نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله أن تسير فوق رأسه غمامة بيضاء.
- انّه سيزيل الأصنام وعبادة الأصنام من الأرض.

ثمّ إنّ السيّد المسيح عليه السلام، يذكر لتلامذته مجيء النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله ويقول:

«هو الذي تتطلّع إليه الأمم الذي تتجلّى له أسرار الله تجليًّا، فطوبى للذين سيصيخون السمع إلى كلامه متى جاء إلى العالم (٥) لأنّ الله سيظلّلهم كما

١. المصدر السابق، الإصحاح ٧٢.

تظلّلنا هذه النخلة (٦) بلى إنّه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظّية هكذا تقي رحمة الله المؤمنين بذلك الإسم من الشيطان (٧) أجاب التلاميذ: يا معلّم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلّم عنه الذي سيأتي إلى العالم؟ (٨) أجاب يسوع بابتهاج قلب: إنّه محمّد رسول الله (٩) ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة الغزيرة التي يأتي بها (١٠) كما يجعل المطر الأرض تعطي ثمرًا بعد انقطاع المطر زمنًا طويلاً (١١) فهو غمامة بيضاء ملئ برحمة الله وهو رحمة ينثرها الله رذاذًا على المؤمنين كالغيث»[١].

والسيّد المسيح عليه السلام يضطرّ إلى كشف السرّ أمام أعدائه الكهنة، بأنّ الله سبحانه، سينتخب قريبًا نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله من ولد إسماعيل، وسيمتنّ على العالمين ببعثته، فقال:

«(٤) لعمر الله أنّ ابراهيم أحبّ الله بحيث إنّه لم يكتف بتحطيم الأصنام الباطلة تحطيمًا، ولا بهجر أبيه وأمّه، ولكنّه كان يريد أن يذبح ابنه طاعة لله (٥) أجاب رئيس الكهنة: إنّما أسألك هذا ولا أطلب قتلك، فقل لنا من كان ابن إبراهيم هذا؟ (٦) أجاب يسوع: إن غيرة شرفك يا الله تؤجّجني ولا أقدر أن أسكت (٧) الحقّ أقول: أنّ ابن إبراهيم هو إسماعيل الذي يجب أن يأتي من سلالته مسيًّا الموعود به إبراهيم أن به تتبارك كلّ قبائل الأرض (٨) فلمّا سمع هذا رئيس الكهنة حنق وصرخ: لنرجم الفاجر لأنه إسماعيليّ وقد جدّف على موسى وعلى شريعة الله»[٢].

وليعلم بوجود شواهد وقرائن وتصريحات وإشارات كثيرة في إنجيل برنابا حول رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وأوصافه وأخلاقه وسائر خصائص دينه المقدّس، من قبيل:

- إنّ المسيح ليس ربًّا ولا ابنه.
- إنّ إسماعيل هو الذي صار قربانًا في سبيل الله لا إسحاق.
- ورد ذكر اسم النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله المبارك بوضوح على لسان السيّد المسيح.

---

١. المصدر السابق، الإصحاح ١٦٣.
٢. *إنجيل برنابا*، الإصحاح ٢٠٨.

• إنّ عيسىعليه السلام لم يصلب، والذي صلب كان يهودا.

أوضاع الحجاز قبل ظهور الإسلام

إنّ الله تعالى، الحكيم قد انتخب محمّد بن عبد اللهﷺ، خاتم الأنبياء وانتهاء سلسلة أنبياء الله، في زمن انتشر فيه الجهل وعبادة الأوثان في أرجاء المعمورة سيّما جزيرة العرب. وفي هذه الفترة فإنّ الظلم والجهل والطبقيّة وظلم الطبقات المستضعفة، والضرائب الكثيرة على ضعفاء الناس والفقر الثقافيّ ووأد البنات في الحجاز، وانقضاء العمر في الحروب الجاهليّة وإراقة الدماء بين القبائل والبعد من القسط والعدل، قد ألقت بظلالها على جميع المناطق وأنتجت أُممًا ضالّة.

وقد بيّن القرآن المجيد في عدّة آيات الفضاء العامّ والوضع المأساويّ للمجتمع، كما بيّن أسباب الامتنان بخصوص بعثة النبيّﷺ وإنّها على أيّ أساس وبواعث كانت، فقد امتنّ الله على العالمين ببعثة النبيّﷺ حيث بعث إنسانًا من جنسهم ببرامج عمليّة وحكيمة ولطهارة الإنسان وتهذيبه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1].

كانت ثقافة عرب الجاهليّة عندما يبشّر الأب بولادة البنت يسوّد وجهه من شدّة الغضب والأذى، بحيث يتوارى عن قبيلته بسبب ذلك، وكان يفكّر هل يأد ابنته أو يدعها: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[2].

في تلك الفترة كانت الحروب وإراقة الدماء بغير حقّ هي التي شغلت أكثر أوقات الناس، بحيث امتلأت قلوبهم من الحقد لبني نوعهم: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾[3].

---

١. آل عمران: ١٦٤.

٢. النحل: ٥٨-٥٩.

٣. آل عمران: ١٠٣.

كانت النساء آنذاك قد تطوف عارية، وعند الطواف يصفّقون ويزعمون أنّ هذا العمل السيّء عبادة: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾[١].

وقد انحطّت حضارة العرب آنذاك بحيث كانوا يعدّونهم من أكثر الشعوب تخلّفًا، ولم يطمح الفاتحون بالسطو على هؤلاء الوحوش أو لم يروا في غزوهم أيّ فائدة بأن يتسلّطوا على أراضي قفرة.

وقد بيّن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو أقرب الناس وأعلمهم بثقافة تلك الأيّام السوداء، صورة ثقافة الإسلام الجميلة، وصفات النبيّ صلى الله عليه وآله النيّرة، ونماذج من الفضاء الموحش لعرب الجاهليّة هكذا:

١. إنّ الله بعث محمّدًا صلى الله عليه وآله نذيرًا للعالمين، وأمينًا على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شرّ دين وفي شرّ دار، منيخون بين حجارة خشن، وحيات صمّ، تشربون الكدر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، تقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة[٢].

٢. أرسله على حين فترة من الرُّسل، وطول هجعةٍ من الأُمم، واعتزامٍ من الفتن، وانتشار من الأُمور، وتلظّ من الحروب، والدّنيا كاسفة النّور، ظاهرة الغرور، على حين اصفرار من ورقها، وإياس من ثمرها، واغورار من مائها، قد درست منار الهدى، وظهرت أعلام الرّدى، فهي متجهّمة لأهلها، عابسة في وجه طالبها، ثمرها الفتنة، وطعامها الجيفة، وشعارها الخوف، ودثارها السيف[٣].

٣. حتّى أفضت كرامة اللّه سبحانه وتعالى، إلى محمّد صلى الله عليه وآله فأخرجه من أفضل المعادن منبتًا، وأعزّ الأرومات مغرسًا، من الشّجرة التي صدع منها أنبياءه، وانتجب منها أُمناءه، عترته خير العتر، وأُسرته خير الأُسر، وشجرته خير الشّجر، نبتت في حرم، وبسقت في كرم، لها فروع طوال، وثمر لا ينال، فهو إمام من اتّقى، وبصيرة من

---

١. الأنفال: ٣٥.

٢. *نهج البلاغة*، الخطبة ٢٦.

٣. المصدر السابق، الخطبة ٨٩.

اهتدى، سراج لمع ضوؤه، وشهاب سطع نوره، وزند برق لمعه، سيرته القصد، وسنّته الرّشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل، أرسله على حين فترةٍ من الرّسل، وهفوة عن العمل، وغباوة من الأُمم[١].

٤. بعثه والناس ضلّال في حيرة، وحاطبون في فتنة، قد استهوتهم الأهواء، واستزلّتهم الكبرياء، واستخفّتهم الجاهليّة الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر، وبلاء من الجهل[٢].

٥. دفن الله به الضغائن، وأطفأ به النوائر، وألّف به إخوانًا، وفرّق به أقرانًا، أعزّ به الذلّة، وأذلّ به العزّة، كلامه بيان، وصمته لسان[٣].

٦. طبيب دوّار بطبّه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه، يضع من ذلك حيث الحاجة إليه، من قلوب عمى، وآذان صمّ، وألسنة بكم، متتبّع بدوائه مواضع الغفلة، ومواطن الحيرة[٤].

هذه الأوصاف المذكورة تنطبق على الإمام المعصوم أيضًا كعليّ بن أبي طالب عليه السلام، كما قد يكون الدوران (في قوله: دوار بطبه) بلحاظ نفس الطبّ بأن يكون تارةً بالعمليّة الجراحيّة وتارة بوضع العلاج، وقد يكون بلحاظ الطبيب حيث يستقبل المريض تارة، ويحضر عنده تارة أُخرى، والذهاب هذا يتبع ضرورة الحضور من دون فرق بين القاصي والداني.

٧. فبعث الله محمّدًا صلى الله عليه وآله بالحقّ ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته ومن طاعة الشيطان إلى طاعته، بقرآن قد بيّنه وأحكمه، ليعلم العباد ربّهم إذ جهلوه، وليقرّوا به بعد إذ جحدوه، وليثبتوه بعد إذ أنكروه[٥].

٨. أرسله على حين فترة من الرسل، وطول هجعة من الأمم، وانتقاض من المبرم،

---

١. المصدر السابق، الخطبة ٩٤.
٢. المصدر السابق، الخطبة ٩٥.
٣. المصدر السابق، الخطبة ٩٦.
٤. المصدر السابق، الخطبة ١٠٨.
٥. المصدر السابق، الخطبة ١٤٧.

فجاءهم بتصديق الذي بين يديه، والنور المقتدى به، ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق، ولكن أُخبركم به، ألا إنّ فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ودواء دائكم، ونظم ما بينكم[١].

٩. إنّ الله سبحانه، بعث محمّدًاﷺ بالحقّ حين دنا من الدنيا الانقطاع، وأقبل من الآخرة الاطّلاع، وأظلمت بهجتها بعد إشراق[٢].

١٠. وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله الصفي، أمينه الرضيّﷺ، أرسله بوجوب الحجج، وظهور الفلج، وإيضاح المنهج، فبلّغ الرسالة صادعًا بها، وحمل على المحجّة دالًّا عليها، وأقام أعلام الاهتداء ومنار الضياء[٣].

والخلاصة:

١. إنّ رسالة النبيّﷺ عالميّة؛ أي لجميع الناس والأزمان.

٢. إنّ ضرورة ظهور الرسالة العالميّة لم يكن من خلال تبيينها لوضع عرب الجاهليّ، بل يتحقّق من خلال بيان وتحليل الجاهليّة العالميّة.

٣. قد تمّ بيان الجاهليّة العالميّة في كلام أمير المؤمنينع هكذا: «وأهل الأرض يومئذٍ ملل متفرّقة، وأهواء منتشرة، وطرائق متشتّتة، بين مشبّه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره»[٤].

فللرسول ابتكاران عميقان: الأوّل إزالة الجهل العلميّ، والثاني إزالة الجهل العمليّ، كما قال عليّع: «**فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة**»[٥].

فمع إزالة الجهل العلميّ امتلكوا الرؤية الكونيّة التوحيديّة الصائبة، ومع إزالة الجهل العمليّ ونشر القسط والعدل والوفاق الوطنيّ والحياة السليمة امتلكوا العمل الصالح،

---

١. المصدر السابق، الخطبة ١٥٨.
٢. المصدر السابق، الخطبة ١٩١.
٣. المصدر السابق، الخطبة ١٨٥.
٤. المصدر السابق، الخطبة ١.
٥. المصدر السابق، الخطبة ١.

كما قال عليّ عليه السلام: «**فبعث الله محمّدًا صلى الله عليه وآله بالحقّ ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته**»[١].

رابعًا: خصائص النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله

لقد بحث المؤرّخون والمفسّرون والمحدّثون وكتّاب السيرة وبجهود مستمرّة، في خصائص النبيّ، واتّفقوا على أنّ هكذا إنسان عظيم لا يمكن إلّا أن يكون نبيًّا، وفيما يلي نشير إلى بعض القرائن والشواهد على ذلك:

١. الخصائص الأسريّة

ورد في روايات كثيرة أنّ نور محمّد وعليّ وآلهما عليهم السلام خُلق قبل خلق السماء والأرض، وبآلاف السنين قبل خلق آدم على يمين العرش الإلهيّ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله بأنّ الله تعالى، عندما خلق آدم جعل ذلك النور في صلبه وأسكنه الجنّة، ثمّ جعله في صلب نوح، ثمّ في صلب إبراهيم «فلم يزل ينقلنا الله عزّ وجلّ، من أصلاب طاهرة إلى أرحام مطهرة» إلى أن استقرّ في صلب عبد المطلب وانقسم قسمين، جعل نصفًا منه في صلب عبد الله وولد منه رسول الله صلى الله عليه وآله، والنصف الآخر في صلب أبي طالب وولد منه عليّ عليه السلام. ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

> «وجعل فيّ النبوّة والبركة، وجعل في عليّ الفصاحة والفروسيّة، وشقّ لنا اسمين من أسمائه، فذو العرش محمود وأنا محمّد، والله الأعلى وهذا عليّ»[٢].

وعليه، فإنّ أجداد النبيّ صلى الله عليه وآله كانوا جميعًا من الصلحاء والأنبياء وأولاد الأنبياء ومن السادة ومن أمّهات طاهرات وصالحات، وورد التأكيد في روايات كثيرة على أنّهنّ لم يمسّهنّ أيّ سوء وفحشاء ودنس، ولم ينحرفن عن طريق الله المستقيم، فهو صلى الله عليه وآله من نسل طاهر وشامخ.

---

١. المصدر السابق، الخطبة ١٤٧.

٢. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٥، ص١١.

وقد ظهرت عند ولادة رسول اللهﷺ آثار وحوادث غريبة، وقد ورد عن أمير المؤمنينؑ أنّه قال:

«لمّا ولد رسول اللهﷺ أُلقيت الأصنام في الكعبة على وجوهها، فلمّا أمسى سمع صيحة من السماء: جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقًا»[1].

وغارت بحيرة ساوة، وفاض وادي سماوة، وخمدت نيران فارس، وارتجّ إيوان كسرى وهو جالس، ووقع منه أربع عشرة شرفة[2].

تقول آمنة بنت وهب أمّ النبيّﷺ إنّ النبيّ لما ولد سمعت هاتفًا ينادي: أعطوه صفوة آدمؑ، ورأفة نوحؑ، وحلم إبراهيمؑ، ولسان إسماعيلؑ، وجمال يوسفؑ وصبر أيّوبؑ وصوت داودؑ، وزهد يحيىؑ وكرم عيسىؑ، وشجاعة موسىؑ، وأعطوه من أخلاق الأنبياء[3].

٢. الخصائص الخُلقيّة والجسميّة

كان رسول اللهﷺ فخمًا مفخمًا، أطول من المربوع، وأقصر من المشذّب، عظيم الهامة، رجل الشعر، إن انفرقت عقيقته فرق، وإلّا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه، إذا هو وفرة، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب، سوابغ في غير قرن، بينهما له عرق يدرّه الغضب، أقنى العرنين، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمّله أشم، كثّ اللحية، سهل الخدّين، ضليع الفم، أشنب مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كأنّ عنقه جيد دمية في صفاء الفضّة، معتدل الخلق، بادنًا متماسكًا، سواء البطن والصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور المتجرّد، موصول ما بين اللبّة والسرّة بشعر يجري كالخطّ، عاري الثديين والبطن ممّا سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين، وأعالي الصدر، طويل الزندين، مسيح القدمين، ينبو عنهما الماء، إذا زال زال قلعًا، يخطو تكفؤًا، ويمشي هونًا، ذريع المشية، إذا مشى كأنّما ينحط في صبب، وإذا التفت التفت جميعًا، خافض الطرف، نظره

١. المصدر السابق، ج١٥، ص٢٧٤.
٢. المصدر السابق، ج١٥، ص٣٢٣.
٣. المصدر السابق، ج١٥، ص٣٢٧.

إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء...

متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليست له راحة، ولا يتكلّم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، يتكلّم بجوامع الكلم فصلاً، لا فضول فيه ولا تقصير، دمثًا ليس بالجافي ولا بالمهين، تعظم عنده النعمة وإن دقّت، لا يذمّ منها شيئًا غير أنّه كان لا يذمّ ذوّاقًا ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تعوطي الحقّ لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتّى ينتصر له، ... وإذا غضب أعرض وشاح، وإذا فرح غضّ طرفه، جلّ ضحكه التبسّم.

إذا آوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءًا لله، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثمّ جزّأ جزءه بينه وبين الناس، فيردّ ذلك بالخاصّة على العامّة ولا يدّخر عنهم منه شيئًا، وكان من سيرته في جزء الأمّة إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين ... فيتشاغل بهم ويشغلهم في ما أصلحهم والأمّة من مسألته عنهم، وأخبارهم بالذي ينبغي ... ويحسّن الحسن ويقوّيه، ويقبّح القبيح ويوهنه، ... أعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة وموازرة.

كانﷺ لا يجلس ولا يقوم إلّا على ذكر، ولا يوطن الأماكن وينهي عن إيطانها وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك، ويعطي كلّ جلسائه نصيبه، ولا يحسب أحد من جلسائه أنّ أحدًا أكرم عليه منه، من جالسه صابره حتّى يكون هو المنصرف عنه، من سأله حاجة لم يرجع إلّا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس منه خلقه وصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحقّ سواء. مجلسه مجلس حلم وحياء وصدق وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم، ولا تثني فلتاته. متعادلين متواصلين فيه بالتقوى، متواضعين يوقّرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويؤثرون ذا حاجة ويحفظون الغريب.

كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظّ ولا صخاب ولا فحّاش ولا عيّاب ولا مدّاح، يتغافل عمّا لا يشتهي[1]... وكما شهد له القرآن فإنّه كان على خلق

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٦، ص١٤٩.

عظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١] وهكذا أوصاف لا تتوفّر إلّا في نبيّ أو وصيّه، لذا ورد عنهﷺ أنّه قال: «**أنا أديب الله وعليّ أديبي**»[٢].

٣. الكرامات

كان العطر يفوح من عرق النبيّﷺ، وكان في بصاقه البركة، حيث فاضت منه عشرات الآبار الجافّة، كما أثبتته التواريخ، وكان يشفي بريقه المرضى، يتكلّم بأيّ لغة ويعرف الكتابة والقراءة وإن لم يكتب شيئًا، وعندما يركب دابة لم تهرم أبدًا، كان يسلّم عليه الشجر والحجر عندما يمرّ بهما، لم تجلس عليه الذباب ولم تطر فوق رأسه الطيور، وكان أثر قدمه ربمّا ينطبع على الحجر الصلد، وربمّا لا ينطبع على الأرض الرخوة.

٤. شجاعته وطريقة قتاله

لم نسمع قط أنّ النبيّﷺ انهزم من معركة خلال حروبه الكثيرة، وكان راسخًا كالجبل وإن واجه الأخطار الجسام، وحتّى لو انهزم جيشه كما حدث في غزوة أُحُد: ﴿**إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[٣].

وقد قال أمير المؤمنينؑ: «**كنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول اللهﷺ، فلم يكن أحد منّا أقرب إلى العدوّ منه**»[٤].

«وكان رسول اللهﷺ إذا احمرّ البأس، وأحجم الناس قدّم أهل بيته فوقى بهم أصحابه حرّ السيوف والأسنّة، فقتل عبيدة يوم بدر، وقتل حمزة يوم أحد، وقتل جعفر يوم موته...»[٥].

---

١. القلم: ٤.
٢. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٦، ص٢٣.
٣. آل عمران: ١٥٣.
٤. *نهج البلاغة*، غريب كلامه ٩.
٥. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٣٣، ص١١٥.

وعندما كان ينوي إرسال الجيش إلى القتال، كان يوصي قائد الجيش ويقول له:

«سيروا بسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله، لا تغلّوا ولا تمثلوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا صبيًّا ولا امرأة، ولا تقطعوا شجرًا إلّا أن تضطروا إليها، وأيّما رجل من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى أحد من المشركين فهو جار حتّى يسمع كلام الله، فإن تبعكم فأخوكم في الدين، وإن أبى فأبلغوه مأمنه واستعينوا بالله»[1].

فأيّ مكان في العالم نرى قائدًا يوصي جيشه هكذا؟ بل البعض يعتقد أنّ الهدف يبرّر الوسيلة.

٥. مضمون الدعوة

إنّ محتوى دعوة النبيّ ﷺ، كما أشرنا سابقًا، كانت نورًا وحكمة وعقلانيّة، وكان كلامه كلام الله تعالى، أو مشتقًّا منه، كلام يوجب سعادة الدنيا والآخرة، ويسدّ طريق الفتنة والفساد. فقد سنّ قوانين حول البيع والشراء والتجارة والمعاملات والمضاربات، وأصدر أوامر حول الإرث والميراث والقضاء والحكم، وكذلك الأوامر الأخلاقيّة والاجتماعيّة والصحّيّة والمندوبة، إنّه علّم النّاس بسنّته وسيرته العادلة والعقلانيّة والحكيمة، كيفيّة العيش والحياة المشحونة بالعقائد والإيمان، والدعوة إلى التوحيد الخالص، والبعد عن جميع أنواع الطاغوت والأوثان.

٦. الأحبّاء والأصحاب

لقد ربّى رسول الله ﷺ أصحابًا واصطحبهم معه، ووسمهم بوسام خاصّ أصبحوا نجومًا وضّاءة في التاريخ، ورسلاً تعكس سيرته، أشخاصًا كعليّ عليه السلام وسلمان وأبي ذر والمقداد وعمّار بن ياسر وغيرهم، فهؤلاء الأصحاب كانوا كالمرايا في أفعالهم وأعمالهم تعكس صفات شخص عظيم، على خلاف أصحاب سائر الحكماء العاديّين،

---

١. العاملي، *وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة*، ج ١٥، ص٥٨.

فضلاً عن أصحاب أمثال الحجّاج وجنكيز، فأين من يحمل همّ الأمّة عمّن يمصّ دماء الأمّة؟

لقد كان أصحاب رسول اللهﷺ أصحاب الصفة، مجموعة من المساكين الذين لا يملكون سكنًا ومأوى، يتهجّدون في الليل، ويحضرون للصلاة في الصف الأوّل خلف رسول اللهﷺ، وكانوا عند الحروب في مقدّمة الجيش، نعم هؤلاء ليوث البأس وعبّاد الليل.

وقد مرّ في مبحث اجتماع القرائن والشواهد، أنّ رسول اللهﷺ عندما كتب رسالة إلى قيصر الروم بيد دحية الكلبيّ، فسأل قيصر الروم أبا سفيان، وقد كان هنلك بقصد التجارة، عدّة أسئلة، فقال بعدما استمع إلى أجوبته: «**هذه صفة نبيّ، وقد كنت أعلم أنّه يخرج ولم أظنّ أنّه منكم**»[1].

فالقرائن والشواهد والخصائص المذكورة، توجب عجب كلّ عاقل منصف ولا توجب أدنى شكّ في نبوّة الرسول الأكرمﷺ، وهكذا إنسان لا يكون له هدف غير الهدف الربّانيّ السامي.

٧. عزيمة رسول اللهﷺ الراسخة

جاء كفّار قريش في بداية الإسلام إلى أبي طالب عمّ النبيّﷺ وقالوا له:

«إنّ لك سنًّا وشرفًا ومنزلة، وإنّا قد اشتكيناك أن تنهي ابن أخيك فلم ينته، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتّى تكفّه عنّا أو ننازله في ذلك حتّى يهلك أحد الفريقين. وعندما ذكر أبو طالب ذلك للنبيّﷺ أجابه قائلاً: يا عمّاه لو وضعت الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتّى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركت هذا القول حتّى أنفذه أو

---

١. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٢٠، ص٣٧٨.

أُقتل دونه، ثمّ استعبر فبكى ثمّ قام يوليّ، فقال أبو طالب: امض لأمرك فوالله لا أخذلك أبدًا»[١].

ومن المعلوم أنّ عزمًا راسخًا كهذا، يكون شاهدًا على نبوّة الشخص.

٨. التأثير على الجوامع البشريّة

الإسلام دين حيّ ومترقّي وبنّاء ويوجب السعادة وبناء الذات، وقد أذعن لهذا علماء العالم قديمًا وحديثًا سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين، كما قال البروفسور درايز زاروب بأنّ القرآن يشتمل على قوانين أخلاقيّة سامية ويتكوّن ممّا يُصادق عليه الجميع، وهذه القوانين المتكاملة والواضحة ضروريّة لبرمجة حياة الإنسان وهدايته.

وذهب البروفسور إدوارد مونته أستاذ جامعة جنيف إلى أنّ تعاليم القرآن تمنع القتل ووأد البنات وشرب الخمر ولعب القمار الرائجة عند العرب، وما حصل من تقدّمٍ جرّاء هذه التعاليم والإصلاحات كان من العظمة بحيث جعلت محمّدًاﷺ من أكبر المحسنين في البشريّة[٢].

ويقول رالف لنتون مولّف كتاب الحضارة: إنّ مؤسّسة القرآن المتعالية قد فتحت طريق الرقيّ والتقدّم لكلّ فرد من أيّ طبقة في الوصول إلى أيّ مقام ومرتبة، بحيث حتّى أنّ أولاد العبيد يمكنهم الوصول إلى تلك المراتب المتعالية. وقد بيّن المجتمع الإسلاميّ في جميع أدوار التاريخ بأنّ له منهجًا ونظامًا في غاية الانطباق مع المحيط.

ويقول الدكتور نبواست العالم الفرنسيّ: إنّ في القرآن آيات تتطابق بعد ثلاثة عشر قرنًا مع الكشوفات العلميّة اليوم، وهذا الأمر أقنعني وأوجب إيماني بالله الواحد، والإقرار بنبوّة محمّدﷺ وحقيقة الإسلام... أنا طبيب ومن عائلة كاثوليكيّة، واختيار هذه المهنة أدّت إلى أن تكون تربيتي ومنهجي الفكريّ علميًّا تمامًا... والإسلام لم يقصّر أبدًا

---

١. المصدر السابق، ج٣٥، ص٨٧.

٢. عبداللهى خوروش، *فرهنگ اسلام شناسان خارجى*، ص٤.

فيما يخصّ حياة البشر المادّيّة، وأعتقد بأنّه الدين الوحيد المتطابق مع طبيعة البشر[١].

وقد صدرت لحدّ الآن اعترافات كثيرة من كبار العلماء حول القرآن والإسلام، فإنّ الدكتور غوستاف لوبون الفرنسيّ، يقول في كتابه عن حضارة الإسلام والعرب، بعدما يشرح بالتفصيل تقدّم الإسلام في العلم والفلسفة والأدب والشعر والتاريخ وعلم الرجال والقصّة والحكاية والرياضيّات والهيئة والجغرافيا والفيزياء والكيمياء، يقول: إنّ المسلمين كانوا مطّلعين على استخراج المعادن كالذهب والحديد والنحاس والكبريت والزئبق وكذلك في الأصباغ، ويظهر من سيوف طليطلة أنّهم وصلوا إلى الكمال في إذابة الفولاذ، ولم نتمكّن من التفوّق عليهم في كثير من الفنون، وكان الباروت إحدى اكتشافات المسلمين المهمّة... والمسلمون استخدموا الورق بدل الرقّ قبل كلّ أحد، واخترعوا القطن بدل ورق الحرير، ويظهر من كتب المسلمين القديمة أنّهم بلغوا في هذا الفنّ غاية التقدّم والرقي ولم يصنع ورق أفضل وأجود من صناعتهم، وهم الذين استخدموا البوصلة في السفن، وقد اطّلع أهل أوروبا على البوصلة بواسطتهم. وعلى كلّ حال، فإنّ اكتشافات ودراسات المسلمين في الطبيعيّات لا تقلّ من اكتشافاتهم في الرياضيّات والهيئة[٢].

---

١. المصدر السابق، ص٤ فما بعد.

٢. لوبون، *تمدن اسلام وعرب*، الكتاب الخامس ٥٩٣-٦٠٢. بتصرّف

الفصل الثاني
الخاتميّة

محمّدﷺ خاتم الأنبياء

يدلّ القرآن والروايات القطعيّة على أنّ نبيّ الإسلامﷺ خاتم الأنبياء، وسوف لا يأتي بعده نبيّ ولا شريعة، وقد اتّفقت الأمّة الإسلاميّة أنّ شريعة الإسلام باقية إلى يوم القيامة.

يقول القرآن بهذا الخصوص: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

وكلمة (الخاتم) بالفتح أو الكسر، تدلّ على أنّ باب النبوّة قد اختتمت وهذا الختم لم ينكسر ولم يأت نبيّ آخر بشريعة جديدة، كما أنّ سائر مفردات الختم في القرآن كنختم ومختوم وختام، تأتي بنفس هذا المعنى أي تدلّ على الوصول إلى الخاتمة والختم والنهاية. والروايات الواردة عن النبيّﷺ تؤكّد هذا المعنى أيضًا.

فالغرض من كلمة الخاتم لم تكن بمعنى الخاتم الذي يُلبس للزينة كما ذهب إليه البعض وحاول إلقاء الشبهة فيه، والروايات التالية تميط الستار عن هذا الإبهام المحتمل:

١. يقول أنس: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «أنا خاتم الأنبياء، وأنت يا عليّ خاتم الأولياء» وقال أمير المؤمنينؑ: «ختم محمّد ألف نبيّ، وإنيّ ختمت ألف وصيّ...»[2].

٢. قال رسول اللهﷺ: «أنا أوّل الأنبياء خَلقًا وآخرهم بعثًا»[3] والغرض من أوّليّته؛ سبق

---

١. الأحزاب: ٤٠.

٢. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٤، ص٢٨٤.

٣. المصدر السابق.

خلق روحهﷺ لا خلق جسمه، ويمكن استظهار ذلك من كونه الصادر الأوّل أو الظاهر الأوّل.

٣. قال رسول اللهﷺ:

«إنّما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا فأكملها وحسّنها إلّا موضع لبنة، فكان من دخل فنظر إليها قال: ما أحسنها إلّا موضع هذه اللبنة، قالﷺ: فأنا موضع هذه اللبنة ختم بي الأنبياء»[١].

٤. قال الإمام الباقرعليه السلام:

«أرسل الله تبارك وتعالى، محمّدًا إلى الجنّ والإنس عامّة، وكان خاتم الأنبياء، وكان من بعده اثنا عشر الأوصياء»[٢].

٥. قال الله تعالى، لزكريّا: «يا زكريّا قد فعلت ذلك بمحمّد ولا نبوّة بعده وهو خاتم الأنبياء»[٣].

٦. إنّ موسى بن عمرانعليه السلام قد ذكر هذه الحقيقة أيضًا كسائر الأنبياء أي أنّ محمّدًاﷺ خاتم الأنبياء:

«وفيما عهد إلينا موسى بن عمرانعليه السلام أنّه إذا كان آخر الزمان يخرج نبيّ يقال له أحمد خاتم الأنبياء لا نبيّ بعده، يخرج من صلبه أئمّة أبرار عدد الأسباط»[٤].

٧. وعن رسول اللهﷺ بأنّ جبرئيل هبط عليه وقت الزوال وقال له:

«يا محمّد إنّ الله جعلك سيّد الأنبياء، وجعل عليًّا سيّد الأوصياء وخيرهم... محمّد سيّد النبيّين وخاتم المرسلين وجعل فيه النبوّة...»[٥].

٨. لقد صرّح أمير المؤمنينعليه السلام في عدّة موارد في نهج البلاغة بخاتميّة النبيّﷺ وبيّن بشكل واضح أنّه خاتمة جميع الأنبياء:

---

١. الحويزي، *تفسير نور الثقلين*، ج٤، ص٢٨٥.
٢. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١١: ٥٢.
٣. المصدر السابق، ج٢٤: ٣٧٣.
٤. المصدر السابق، ج٣٦: ٢٨٤.
٥. المصدر السابق، ج٣٥: ٢٧.

أ) «فقفّى به الرسل وختم به الوحي»[١].

ب) «الخاتم لما سبق والفاتح لما انغلق»[٢].

ج) «أمين وحيه وخاتم رسله»[٣].

٩. ورد عن السيّد المسيح عليه السلام على ما في إنجيل يوحنّا: «إنيّ سائل ربيّ أن يبعث إليكم فارقليط آخر يكون معكم إلى الأبد، وهو يعلّمكم بكلّ شيء»[٤].

١٠. ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ قال: «يعني لا نبيّ بعد محمّد»[٥].

أسئلة حول الخاتميّة

طرحت منذ القديم عدّة أسئلة حول الخاتميّة، وقد دُوّنت في يومنا الحاضر بأشكال جديدة وأضيفت إليها أسئلة حديثة أخرى، وسوف تُطرح هذه الأسئلة في المستقبل أيضًا بنفس هذه الصورة أو أكثر تطوّرًا، وفيما يلي نشير إلى بعض هذه الأسئلة:

١. مع لحاظ السير التكامليّ للإنسان، كيف يُحرم من وجود هادٍ سماويٍّ؟

٢. هل يمكن لقوانين عصر النبوّة الإجابة على أسئلة الحاضر.

٣. هل بعد انقطاع الوحي والنبوّة، لا بدّ أن يُحرم الإنسان من الارتباط بالغيب؟

٤. الحجّيّة والولاية الدينيّة للنبيّ صلى الله عليه وآله، ومع انقطاع النبوّة بالخاتميّة، فلا يكون لأيّ شخص حجّيّة في كلامه، بمعنى أنّ خطاب الأنبياء له صفة العلوّ والأمر ومن دون استغلال في الغالب، وقلّ ما نجد استدلالاً في القرآن وسائر الكتب السماويّة كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٦] لذا، فالنبيّ مبلّغ حصرًا: ﴿مَا عَلَى

---

١. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٣٣.

٢. المصدر السابق، الخطبة ٧٢.

٣. المصدر السابق، الخطبة ١٧٣.

٤. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٥، ص٢١١.

٥. المصدر السابق، ج٢٢، ص٢١٨.

٦. الأنبياء: ٢٢.

الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[١] وحتّى عندما يطالبون البرهان من المخالفين: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾[٢] فإنّهم لا ينتظرون مجيء البرهان من قبل المخالفين بل يحكمون ببطلانه مقدّمًا: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[٣] وهذا الأمر يقرّبنا من العنصر المقوّم لشخصيّة النبيّ الحقوقيّة، أي عنصر الولاية.

والولاية بمعنى أنّ شخصيّة المتكلّم، سند كلامه وأوامره، وهذا ما خُتم بالخاتميّة، وبناء على هذا، عندما يرد الدليل في كلام شخص، وتنقطع علاقة الكلام مع الشخص المتكلّم، يبقى حينئذٍ دليل الكلام فقط، فلو كان الدليل مقنعًا يُقبل المدّعى، وإلّا فيرد وإن كان المستدلّ عليه عليًّا عليه السلام أو اي شخص آخر، وبعد هذا يكون الدليل سند الكلام دون المتكلّم صاحب الكرامة.

الأجوبة

بعد بيان بعض النقاط الضروريّة، نذكر أجوبة الأسئلة المذكورة:

١. البرهان في القرآن

إنّ القرآن الكريم مضافًا إلى تعريفه لنفسه بسمة البرهان والنّور، استدلّ كثيراً في مختلف الأماكن، والسبب في أنّ القرآن يطلب من الآخرين البرهان ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ إنّه بنفسه برهان كما أنّه يقيم البراهين أيضًا، لذا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾[٤] فالقرآن برهان عند الحكماء، كما أنّه برهان أيضًا عند العرفاء، وكذلك عند أهل الحديث والنقل.

وكما ذكر العلّامة الطباطبائي رحمه الله بأنّنا لو فحصنا كتاب الله ودقّقنا النظر في آياته، ربمّا عثرنا على أكثر من ثلاثمائة آية تدعو الناس إلى التفكّر والتذكّر والتعقّل، أو تعلّم النبيّ صلى الله عليه وآله

---

١. المائدة: ٩٩.
٢. الأنبياء: ٢٤.
٣. الشورى: ١٦.
٤. النساء: ١٧٤.

دليلاً لإثبات حقٍّ أو إزهاق باطل، أو ينقل أدلّة عن أنبيائه وأوليائه كنوح وإبراهيم وموسى ولقمان ومؤمن آل فرعون. والله تعالى، لم يأمر عباده ولا في آية واحدة أن يؤمنوا به أو بالقرآن أو أيّ شيء آخر يجيء من قبله من دون فهم وتعقّل وقبوله هكذا، حتّى أنّ القوانين والأحكام التي وضعها للعباد، ولم يصل عقل الإنسان إلى ملاكاتها، أو الأمور التي تعدّ من ضروريّات الحياة، فإنّه استدلّ عليها وعلّلها[١].

فالنبيّ وأئمّة الدين عليهم السلام لهم كلام مشحون بالاستدلال، والنموذج الواضح لذلك كتاب الاحتجاج القيّم. وعليه، فإنّ القرآن وكلام الأنبياء، يعدّ أكثر استدلالاً وأوضح بيانًا لتمرير أهداف الدين والشريعة المتعالية، غاية ما هنالك فإنّ براهين القرآن لم تكن من نوع مصطلحات الفلاسفة والمتكلّمين، بل يتكلّم القرآن بلغة الفطرة ولغة الوحي، فتارة نصل من الواجب إلى المصنوعات كبرهان الصدّيقين، وتارة نصل من النظم ومنافع الخلقة إلى حكمة الله الحكيم، وتارة من الكثرة إلى الوحدة، وتارة أخرى من الوحدة إلى الكثرة.

وقد في ورد في الآيات الأولى من سورة الرعد، بعد ذكر الله ذكر نعمه الكثيرة: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢].

أمّا أنّ القرآن يخدش في أدلّة مخالفي الوحي ويبطلها، ويقول: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾[٣] فإنّه يكون بعد ذكر أدلّتهم وإبطالها؛ لأنّ الوثنيّين كانوا يبرّرون عبادة الأوثان بأنّ الله لو أراد لم نشرك نحن ولا آباؤنا ولم نحرّم شيئًا من تلقاء أنفسنا[٤]. فالقرآن يقول: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾؛

---

١. الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن*، ج٦، ص٢٦. بتصرّف

٢. الرعد: ٢-٤.

٣. الشورى: ١٦.

٤. الأنعام: ١٤٨.

لأنّ هكذا استدلال يكون من قبيل الخلط بين الإرادة التكوينيّة والتشريعيّة، فالله تعالى، قادر تكوينًا أن يمنعهم من الشرك، غير أنّهم أحرار في فعل أيّ شيء، وإن كان الله تعالى، نهى الجميع من الشرك تشريعًا.

كما أنّ استدلالهم لصلاحيّة الأصنام في القرب من الله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[١] وكذلك استدلالهم على صلاحيّة الأصنام للشفاعة عند الله: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[٢] قد أبطله الله تعالى.

والغرض: إنّ الوثنيّين إمّا كانوا مقلّدين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[٣] وقد أبطل القرآن التقليد من دون دليل وتحقيق كما أنّ التقليد في الأصول العقدية لا يصحّ، وإمّا كانوا يبرّرون عبادة الأصنام بالدليل والتحقيق وذلك من خلال جعل التقرّب حدًّا وسطًا، أو الشفاعة أو المشيئة الإلهيّة، وقد ذكر القرآن جميع أدلّتهم بشكل تفصيليّ، ثمّ قال: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾.

٢. الخاتميّة من وجهة نظر العقل

يمكننا إثبات أصل النبوّة بأدلّة خارج نطاق الدين والدليل العقليّ، وبأدلّة داخل نطاق الدين (الدليل النقليّ) ولكن بخصوص انقطاع الوحي، لا يوجد دليل عقليّ على ضرورة الخاتميّة، بمعنى أنّ مجيء نبيّ آخر ليس مستحيلاً عقلاً، بيد أنّ الأدلّة النقليّة تقنع العقل لقبول الخاتميّة، وإن كان بإمكان القلب الطاهر والعارف مشاهدة انقطاع النبوّة، وهذا الطريق، أي شهود الخاتميّة، لا يختصّ بالنبيّ، بل إنّه أعمّ من النبيّ والإمام المعصوم. ومثاله مشاهدة عليّ عليه السلام الوحي وتصديق النبيّ صلى الله عليه وآله لذلك: «إنّك تسمع ما أسمع»[٤].

وعليه، فإنّ عقل الإنسان لا ينال ضرورة انقطاع النبوّة واستحالة دوامها، بل إنّ الله لو لم يعلم نبيّه إدراك ختم النبوّة، لما اهتدى هو أيضًا إليها، كما قال تعالى، في

---

١. الزمر: ٣.
٢. يونس: ١٨.
٣. الزخرف: ٢٢.
٤. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج١٤، ص٤٧٦.

القرآن: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[١] فالنبيّ لو لم يدعّ الخاتميّة، لما تمكّن أيّ شخص من الوصول إليها.

ولم يكن انقطاع الوحي بمعنى أنّ ما جاء به الوحي إلى ذلك الحين صحيح ومستحكم، وبعد انقطاع الوحي سينسخ ويبطل ويزول أو يكون سرابًا وينقلب ضدّه؛ لأنّ دين الله لا يزول من تلقاء نفسه كما لا يزول من قبل أيّ عامل آخر، كما قال القرآن: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٢].

فجميع ما جاء به القرآن ثابت إلى يوم القيامة، وإن انقطعت النبوّة من الجانب الخبر التشريعيّ ولم تأت شريعة ومنهاج جديد، فلو انقطعت الشريعة لزم أن يحلّ محلّها العقل البشريّ ممّا يؤول إلى ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[٣] وهذا مستحيل عقلاً ونقلاً.

نعم، يمكن تبرير الخاتميّة من عدّة نقاط:

أ) عن طريق العلل الفاعليّة، يقول القرآن: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[٤] ومعنى هذا الكلام أنّ شخص النبيّ قد نال منتهى درجات الكمال في ظلّ تربية الله وربوبيّته، كما تفيد آية: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ فمن جهة قوس الصعود قد رقى إلى قمّة الكمال الوجوديّ، وفي قوس النزول يكون أول ظاهر صادر.

وعليه، فإنّ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٥] قد نزلت على قلب النبيّ ﷺ وكان المصداق الأبرز لهذه الآية. فلا توجد مرتبة أعلى من مرتبته ولا يوجد له ندّ وقد جاء بجميع ما يلزم وينفع في سعادة البشر. وعليه، فالله الحكيم والهادي، الذي يُنفذ ربوبيّته لهداية المجتمع البشريّ، قد تجلّى تمامًا وظهر. فلذا، لا حاجة إلى مجيء نبيّ بعده أو مجيء شريعة وكلام جديد آخر.

ب) عن طريق العلل القابليّة: إنّ أفضل ثمرة لعالم الطبيعة تمّ إظهارها تحت عنوان

---

١. النساء: ١١٣.
٢. فصّلت: ٤٢.
٣. النازعات: ٢٤.
٤. النجم: ٤٢.
٥. البقرة: ١٥٦.

النبيّ الخاتم، وقد افتخر السحاب والريح والشمس والأفلاك بأنّها احتوت على أفضل الخلق من الأوّلين والآخرين، وقد انتفع العالم البشريّ بهكذا نعمة.

ج) عن طريق العلل الغائية: لقد تمّ بمجيء نبيّ الإسلام توفير حوائج الناس؛ لأنّ إرادة الحقّ تعالى، قد اكتُشفت عن طريق الوحي والقرآن والسنّة (الخبر الواحد والمتواتر والإجماع والشهرة) والعقل، ولا حاجة إلى شريعة جديدة وإرسال الرسل وإنزال الكتب السماويّة.

وبناء على هذا، فالناس لم يتركوا لحالهم، بل إنّ ربوبيّة الله تعالى، ما زالت مستمرّة، وتمّ تهيئة أدوات الاستنباط واستخراج القوانين الجديدة؛ لأنّ العلّة الغائيّة هي العلّة الفاعليّة في الواقع، ومعنى ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ واضح في هكذا موارد؛ إذ تبيين العلّة الغائيّة مقرونة بالتبرير الفاعليّ.

ومن البديهيّ أنّ العقل من منابع الدين وليس في قباله، فتقسيم الدليل إلى دينيّ وعقليّ خطأ كبير. فالعقل من أدوات الدين، ومنشؤه إرادة الله، كما أنّ العقل بإمكانه إدراك ما يقوله النقل والوحي، وبه يتمّ تقييم آيات القرآن الكريم وتمزج معه الروايات ليتمّ الاستنباط من كليهما ممزوجًا.

العقل مصباح وضّاء يكون في خدمة الوحي، لذا فشريعة الإسلام دائمة وثابتة كثبات أصل الدين. ومنطلق هذا الصمود والثبات، إنّما هو دوام ربوبيّة الحقّ تعالى، بحيث يدبّر البشر في كلّ لحظة.

٣. الولاية سند النبوّة والإمامة

للنبوّة سند باسم الولاية وتعدّ مقامًا باطنيًّا ويمكن الوصول إلى هذا المقام السامي عن طريق العبوديّة وطيّ طريق قرب النوافل والفرائض، وهكذا جوهر ثمين يكون سندًا للنبوّة وبإمكان أيّ شخص أن يصبح وليًّا، أي يصل إليها من دون النبوّة، سواء كان رجلاً أو امرأة كالصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام.

ومع إتمام النبوّة لم تنقطع الولاية، بل تتجلّى في سائر أئمّة الدين والأولياء، فالأئمّة لما يملكون من مقام الإمامة والولاية، يهتمّون بعد انقطاع الوحي وتكميل الدين وتتميمه

ورسم خطوطه على يد النبيّ، بالمحافظة عليه وتفسيره وتظهير تعاليمه وحقائقه وأصوله العقديّة والأخلاقيّة والفقهيّة والاجتماعيّة والطبّيّة والعسكريّة وغيرها.

وعليه، فالتوهّم الحاصل بأنّ بعد رحيل النبيّ ﷺ، قد تحرّرت البشريّة من الولاية التشريعيّة، لم يكن كلامًا موزونًا، بل إنّ خلفاء الأنبياء سيّما خليفة نبيّ الإسلام ﷺ يؤدّون مهام الأنبياء وأعمالهم، إنّهم ليسوا أنبياء ليمتازوا بالوحي التشريعيّ ويأتوا بأحكام جديدة، ولكن يعملون أعمال الأنبياء بالولاية التي يمتلكونها؛ لأنّ الولاية المذكورة في النبوّة، توجد في الإمام المعصوم أيضًا.

وهذه الولاية، غير الولاية المعنويّة وقرب النوافل والفرائض، وهي الولاية التشريعيّة وحكومة الناس التي لا تنقطع، كما أنّ الله سبحانه، يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[١].

وقد أصرّ النبيّ ﷺ على هذا المعنى في غدير خم، وقال: «**ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى، قال: فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه**»[٢].

وعليه، فإنّ القضاء والحكم وتفسير الآيات وما يحتاجه المجتمع الحيّ والنامي يكون تحت إشراف عليّ عليه السلام وولايته. فقوله قول النبيّ ﷺ، ويستدلّ عند الحاجة إلى الاستدلال، وما أحلّه يكون حلالاً وما حرّمه يكون حرامًا، ولو اقتضت الشرائط امتلك الخلافة الظاهريّة أيضًا، وحافظ على كيان الدين والملك تمامًا، وتقلّد زمام إدارة المجتمع، كما قال: «**لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر**»[٣].

ويجب على الناس قبول حكمه وأمره، كوجوب أوامر الله ورسوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾[٤].

وعليه، فمن يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني» أو يقول بأنّه أعلم بطرق السماء من

---

١. المائدة: ٥٥.

٢. المجلسي، *بحار الأنوار*، ج٢١، ص٣٨٧.

٣. *نهج البلاغة*، الخطبة ٣.

٤. الأحزاب: ٣٦.

طرق الأرض، فإنّه بتلك الولاية وبانضمام قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[١] يمتلك تلك الولاية التشريعيّة النبويّة، وبعده يمتلك سائر الأئمّة هذه الولاية التشريعيّة والإشراف إلى الحجّة بن الحسن المهديّ عليه السلام حيث يحيي الدين وتجب طاعته.

ولكن، إذا لم تتوافر الظروف، وكان يد وليّ الدين غير مبسوطة ولم يطعه أحد، فان وظيفته في الحفاظ على الدين تهبط بتلك النسبة، خلافًا للنبيّ؛ حيث يجب عليه الإبلاغ حتّى لو لم يكن معه أيّ أحد: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[٢] وإن أرادوا إحراقه كالخليل، وعليه الجهاد وإن كان وحيدًا: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾[٣].

٤. الازدهار والتكامل

إنّ سلسلة حياة المجتمع البشريّ، بحاجة إلى الوحي والتعاليم الوحيانيّة إلى الأبد، والإنسان قد عقد مستقبله بعالم الطبيعة وزمان الماضي والحال والمستقبل، وله في كلّ يوم خطوة إلى الأمام ونظرة إلى المستقبل، كما يحاول أن يطّلع في كلّ يوم على كلام جديد وسرّ خفيّ، فهو بالنسبة إلى العقائد والأخلاقيّات والأحكام، واستثمار الطبيعة ونتائجها، بحاجة إلى علم لا متناهي.

إنّ الله تعالى، هيّأ الخطوط العامّة الخارجيّة بواسطة النبيّ صلى الله عليه وآله، وأودع في باطن الإنسان، قوّة خارقة وعجيبة. العقل شريعة باطنيّة، والوحي شريعة ظاهريّة. فالعقل والنقل جناحان للدراسات الدينيّة، يظهران للبشريّة زوايا الأحكام والأخلاق والعقائد وسائر حوائج البشر في أيّ مكان وزمان، وإلى حين ظهور بقيّة الله، أرواح من سواه فداه، يزدهر العقل المصون من المغالطة ببركة الوحي يومًا بعد يوم، تنجلي أسباب «**ويثيروا لهم دفائن العقول**»[٤] بشكل أوضح، وينال مبادئ تصوّريّة وتصديقيّة جديدة. لذا، فإنّ

---

١. الأحزاب: ٦.

٢. المائدة: ٩٩.

٣. النساء: ٨٤.

٤. *نهج البلاغة*، الخطبة: ١.

الفقه والأصول والكلام والعرفان والفلسفة، قد ازدهرت بتطوّر العلوم البشريّة وأصبحت أكثر كمالاً، وظهرت آراء جديدة في التاريخ والتراث والرؤية الكونيّة والرياضيّات.

كما إنّ المناهج تتطور أيضًا، وتزدهر الطرق وتصبح أكثر جمالاً وأتقن، بل ربمّا يضاف أصل جديد على الأصول، وقاعدة على القواعد الفقهيّة، ويتمّ استنباط أمور جديدة. فبالتأمّل في القرآن والروايات، وهما منبعان غير متناهيين، ربمّا يمكن استنباط أمور جديدة، ويكون التفسير والفقه والأصول والفلسفة والكلام في الألف سنة الماضية، والتي تعد اليوم بدائيَّة لنا، أكثر ازدهارًا في الالف سنة القادمة قطعًا، وتظهر آراء جديدة في مقام العلم والثقافة، وتخترع مناهج أكثر حيويّة. فهذه كلّها لا بدّ وأن تكون تحت منظار العقل والنقل المعتبر، لا تحت تسلّط القياس والاستحسان الناتجان من مقوله: «**حسبنا كتاب الله**».

ومن جهة أخرى، فإنّ البراهين النقليّة الناتجة من القرآن والسنّة، وكذلك فعل المعصوم وتقريره، توجب تكامل معارف الدين، والعقل أيضًا يقع إلى جنبها لا قبالها، فكثير من مسائل أصول الفقه مأخوذة من العقل المجرّد أو التلفيق بين العقل والنقل. وعلى سبيل المثال: كلّ ما كان واجبًا أو حرامًا تكون مقدّمته واجبة أو محرّمة بحكم العقل، سواء كان ذلك الواجب أو الحرام عقليًّا أو نقليًّا.

وللعقل دور محوريّ في مجال الإدراة والإجرائيّات، ففي مجال وضع القوانين وإدراة البلاد مثلاً، هل يعتمد الاقتصاد على الزراعة أو تربية المواشي أو الصناعة أو المعادن والبترول، وإذا تمّ الاعتماد على الزراعة، فيكون فحص التربة والماء والسدود ووضع القوانين اللازمة وفتح المجاري، كلّها بيد العقل، فهي إمّا واجبة أو مقدّمة للواجب.

إنّ طريقة العقل والقواعد العقليّة ومنهجها، تدعونا إلى المحتوى وإلى الشكل أيضًا، وتعرّفنا على الفقه وعلى قواعده وأصوله. وعليه، ففي جميع العلوم والمناهج يكون العقل إلى جنب النقل كالمصباح الوضّاء، ويجعل جميع العلوم الدينيّة وغير الدينيّة المختلفة في خدمة الدين. وللعقل صفة الحركة والنموّ، وإذا اختتمت النبوّة، يكون إلى جنب الولاية والرواية والوحي والقرآن، ويكون سببًا لتقدّم الفقه والأصول والفلسفة والعرفان، ويلقي

منهجًا جديدًا، ويقيّم من جديد الآراء الماضية ليتزوّد منها، ويستفيد من تجاربهم وينظّر من جديد، ويخترع ويبدع جديدًا، ويضيف على متون الحكمة والفقه والأصول والكلام والعرفان والرياضيّات، ويهذّبها من الزوائد ليقدّم طعامًا جديدًا للعقول.

وعليه، فطريقة الاجتهاد حاكمة في جميع العلوم، ووسيلته وسلّمه العقل، والعقل حجّة الله في باطن الإنسان، ويصاحب القرآن والعترة والولاية التي تقع في خارج الإنسان. وليس هذا بمعنى أنّ رسالة علميّة واحدة مع فروعها المحدودة المتناسبة مع عصر خاصّ وجيل خاصّ، تتمكّن من تلبية حوائج جميع البشر إلى يوم القيامة، بل يأتي علماء جدد بأعمال جديدة.

ولا بدّ من التنويه إلى أنّ الشهود والعرفان مع رعاية الموازين؛ أي بأن يكون الكشف والشهود موافقًا لشهود المعصوم، يكون حجّة للشاهد والعارف حصرا.

وهذه المجموعات تسعى جادّة للإجابة الصحيحة على حوائج المجتمع العلميّة والعمليّة، لتنجي الإنسان من الحيرة، وعليه فلا يتطرّق أيّ نقص وحاجة إلى المجتمع جرّاء ختم النبوّة، بحيث يتمكّن المتديّنون من استمرار حياتهم الدينيّة كما في عصر حضور النبيّ ﷺ.

ونتيجته: أنّ الأسئلة المذكورة، تلقى أجوبة معقولة، أي عند العمل بالأوامر الوحيانيّة من قائد سماويّ، يمكن تأمين سعادة البشر، كما يمكن استنباط قوانين جديدة واستخراجها، ويمكن أيضًا تأمين ارتباط الإنسان مع عالم الغيب في ظلّ الولاية والكشف والشهود التامّ، كما لم تنقطع الولاية التشريعيّة وإن اختتمت النبوّة التشريعيّة، ومع إغلاق سجلّ النبوّة، لا تنقطع الولاية أبدًا ولم تطوى. لذا، فإنّ خبراء الدين يقودون الناس إلى يوم القيامة.

والخلاصة

١. إنّ ما هو ضروريّ لحياة المجتمع البشريّ أو راجح، يجب تحصيله أو يستحبّ.
٢. إنّ ما كان تحصيله العينيّ لازمًا أو راجحًا، يكون تعلّم أصول الوصول إليه لازمًا أو راجحًا أيضًا.

٣. إنّ ما كان لازمًا أو راجحًا، يكون تركه موجبًا للعذاب يوم القيامة أو الحرمان من بعض بركات ذلك اليوم، وإنّ إتيانه بنيّة القربة يوجب دخول الجنّة أو التنعّم ببعض نعم يوم القيامة.

٤. إنّ ما يكون لفعله أو تركه أثر إيجابيّ أو سلبيّ على المعاد، يكون جزءًا من الدين، كما إنّ ما يتمسّك به الإنسان للوصول إليه يكون دليلاً دينيًّا.

٥. إنّ معنى إسلاميّة الشيء، لم يكن بمعنى أن تذكر الروايات صدره أو فروعه بالتفصيل، بل إذا بيّنت الدراية العقليّة حدود شيء مع لحظ الخطوط العامّة في الروايات (أعمّ من القرآن والسنّة)، وجعلت الأصول المنقولة معيارًا للتوسعة والتضييق فيه، فهكذا أمر يكون، بلحاظ ما مرّ، جزءًا من الدين، واشتراكه مع سائر المدارس لا يمنع من كونه دينيًّا؛ لأنّه لم يكن الحياد والانفراد من شرائط دينيّة الشيء، ولا الاشتراك مانع منه.

فهرس المصادر

القرآن الكريم.

إبن بابويه قمى، أبو جعفر محمّد بن علي بن حسين(شيخ صدوق)، *من لا يحضره الفقيه*، دار التعارف، بيروت.

إبن بابويه قمي، أبو جعفر محمد بن علي بن حسين(شيخ صدوق)، *التوحيد*، تصحيح سيد هاشم حسيني تهراني، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٣٨٩ق.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمّد، *مقدمة*، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

ابن سينا، *الهيات شفا*، تحقيق آية الله حسن زاده آملى، دفتر تبليغات اسلامى حوزه علميه قم، ط ١، ١٢١٨هـ.ق.

ابن هشام، *السيرة النبوية*، تحقيق مصطفى سقا، ابراهيم ابيارى، عبد الحفيظ شبلى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٣.

اخلاق پيامبر صلّى الله عليه وآله، خط طاهر، طهران، چاپخانه آفتاب، ١٢٧١هـ.ق. (١٣٢١هـ.ش).

آلوسي بغدادي، شهاب الدين سيد محمود، *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*، بيروت، دار الفكر، ١٤١٣هـ.ق.

ايجي، قاضى عبد الرحمان أحمد ايجى، *مواقف*، نشر عالم الكتب.

بايندە، أبو القاسم ، *نهج الفصاحة*، انتشارات اسلاميه، تهران ١٣٣٧.

بحراني، سيد هاشم، *البرهان فى تفسير القرآن*، قم، مؤسسه دارالتفسير اسماعيليان، ١٢١٧هـ.ق.

البخارايي، محمّدبن‌نصر، *المستخلص يا جواهر القرآن*، به اهتمام دكتر مهدى درخشان، دانشگاه طهران، ١٣٦٥.

پراودفوت، وين، *تجربه دينى*، ترجمة: عباس يزدانى، مؤسسه فرهنگى طه، ١٣٧٧ش.
جنابذي، محمد، *بيان السعادة في مقامات العبادة*، بيروت، مؤسسه اعلمى، ١٢٠٨هـ.ق.
حافظ شيرازي، خواجه شمس‌الدين محمد، *ديوان حافظ*، تصحيح: علامة قزوينى و دكتر غني، طهران، ١٣٢٠هـ.ش.
حقي بروسوي، شيخ اسماعيل، *روح البيان*، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٧، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).
الحلي، جمال الدين، أبي منصور الحسن بن يوسف بن علي المطهّر، *النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر*.
الحلي، جمال الدين، أبي منصور الحسن بن يوسف بن علي المطهّر، *كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد*.
الحلّي، جمال الدين، أبي منصور الحسن بن يوسف بن علي المطهّر، *منتهى المطلب*، قطع رحلي دوجلدي، جابخانه تبريز.
الحويزي، شيخ جمعة العروس، *نور الثقلين*، قم، مؤسسة اسماعيليان، ١٣١٥هـ.ق.
خلخالي، سيدعبدالرحيم، فخرالإسلام، محمدصادق، *انيس الاعلام فى نصرة الاسلام*، نشر مرتضوى، ١٣١٩هـ.ق.
الدينوري، أبومحمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، *عيون الأخبار*، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨ هـ.
راغب أصفهاني، *معجم مفردات ألفاظ القرآن*، تحقيق: نديم مرعشى، مكتبة مرتضويه لإحياء الآثار الجعفريّة.
رى‌شهري، محمّد محمدى، *ميزان الحكمة*، مكتب الاعلام الإسلامى، ١٤١٦هـ.ق.
سنايي غزنوي، أبو المجد مجدود بن آدم، *حديقة الحقيقة وشريعة الطريقة*، تصحيح و تحشي: مدرس رضوي، دانشگاه تهران، ١٣٥٩هـ.ق.
سيّد رضي، *نهج‌البلاغة*، تحقيق: صبحي صالح، دار الأسوة، ١٣١٥هـ.ق.
السيوري، فاضل مقداد، *نضد القواعد الفقهيّة*، تحقيق: سيد عبد اللطيف كوكمرى، جاب مكتبة المرعشي النجفي ١٤٠٣هـ.ق، قم، مطبعة الخيام.

سيوطي، عبدالرحمن جلال‌الدين، *الدر المنثور في التفسير المأثور*، بيروت، دارالفكر، ١٤٠٣هـ.ق.
الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم أبي‌بكر أحمد، *ملل ونحل*، تحقيق: أمير علي مهنا، علي‌حسن فاعور، بيروت، دار المعرفة، ط٢، ١٤٢١.
شهرستاني، سيّدهبدالدين، *المعجزة الخالدة*، كاظمين، نشر عبد الأمير السبيتى، ١٣٦٩.
الشيخ المفيد، *تصحيح الاعتقاد* (شرح اعتقادات صدوق)، الشيخ المفيد، كنگره جهانى هزاره شيخ مفيد، قم.
الشيخ مفيد، *أوائل المقالات*، شيخ مفيد، كنگره مفيد، ١٢١٣هـ.ق.
طباطبائي، سيد محمد حسين، *الميزان في تفسير القرآن*، طبع آخوندى، تهران.
الطباطبايي، محمد حسين، *وحى يا شعور مرموز*، قم، دار الفكر.
الطبرسي، أبي منصور احمد بن علي، *الاحتجاج*، تحقيق: ابراهيم بهادرى و محمد هادى به، انتشارات اسوه، ١٣١٣هـ.ق.
طبرسي، أبي‌علي فضل بن حسن، *مجمع البيان في تفسير القرآن*، بيروت، دارالمعرفة ١٣٠٨هـ.ق.
طبري، محمد بن جرير، *دلائل الإمامة*، قم، منشورات رضى، ط٣، ١٣٤٣ش.
طريحي، شيخ فخر الدين، *مجمع البحرين*، قم، بنياد بعثت، ١٤١٤ق.
الطوسي، أبي‌جعفر محمّد بن الحسن، *الاستبصار فيما اختلاف من الأخبار*، طهران، دارالكتب الاسلاميه، ١٣٩٠هـ.ق.
الطوسي، محمدبن حسن، *تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للشيخ المفيد*، بيروت، دار صعب ودار التعارف، ط٢، ١٤٠١ق.
العاملي، شيخ محمد بن حسن حر عاملى، *إثبات الهداة*، قم، مطبعة علميه.
العاملي، شيخ محمّد بن حسن حرّ، *وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة*، مؤسسة آل البيت، دار إحياء التراث، ٤١٤هـ.ق.
العاملي، محمد بن محمد بن حامد بن مكى جزينى، *ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة*.
عبداللهي خوروش، حسين، *فرهنگ اسلام شناسان خارجى، فراگير شناخت و شرح حال: بيش*

از دوهزار نفر از دانشمندان و محققان و خاورشناسان و ...، اصفهان: مطهر، ١٣٦٢.
غزالي، امام محمد، *إحياء علوم الدين*، بيروت، دار المعرفة.
غزالي، امام محمد، *المنقذ من الضلال*، دار ومكتبة الهلال.
فخر الدين رازي، محمد بن عمر، *تفسير الكبير*، طهران، دار الكتب العلمية.
فلّينو، كرلو الفونسو، *تاريخ نجوم اسلامي*، ترجمه احمد آرام، طهران، كانون نشر و پژوهش‌های اسلامی.
القمي، ابو الحسن على بن ابراهيم، *تفسير قمى*، مطبعة النجف ١٣٨٧هـ.ق.
القمي، شيخ عباس، *سفينة البحار*، طهران، دار الاسوة، ط٢، ١٤١٥هـ.ق.
القمي، شيخ عباس، *مفاتيح الجنان*، (١٢٩٤ـ١٣٥٩هـ.ق).
القوشچي، ملاعلى، *شرح تجريد الكلام*، رحلى قديم، ايران، ١٣٠١ق.
الكليني، محمدبن‌يعقوب ، *أصول كافى*، طهران، دارالكتب الإسلامية، ١٣٤٣هـ.ش.
لوبون، گوستاو، *تمدن اسلام وعرب*، ترجمة: سيد هاشم حسينى، طهران، كتابفروشى اسلاميه، ١٣٤٧.
المجلسي، محمدباقر، *بحار الأنوار* الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام، طهران، طبع آخوندي، ١٠٣٧ـ ١١١٠.
المطهري، مرتضى، *وحى ونبوّت*، انتشارات صدرا، ١٣٥٧ش.
المظفر، محمّد رضا، *المنطق*، مؤسسة اسماعيليان، ١٣٧١هـ.ش.
المعتزلي، قاضي عبد الجبار، *المغني*، دار مصرية للتأليف والترجمة.
مولانا، جلال الدين محمد بلخي، *ديوان شمس تبريزى*، تصحيح محمد عباسى، انتشارات طلوع.
النجفي الجوهري، الشيخ محمدحسن، *جواهر الكلام*، دارالكتب الإسلامية، ١٣٩٢هـ.ق.

لم تنفك البشرية منذ بزوغها الى الوجود على الكرة الأرضية من نبي مرسل يأخذ بأيديها وينير لها الدرب ويعلّمها مصالحها ومفاسدها الحقيقية، لتنال الخير والرضى والفوز والسعادة في كلا الدارين. وإذا أردنا أن نحيط علمًا تامًا وكاملاً بمسألة النبوة، لابد وأن نفهمها ضمن المنظومة الكونية العامة التي تعتمد على الرؤية الإلهية، حيث تجعل الله هو المبدأ والمنتهي، فحينئذٍ تأخذ النبوة موقعها كحلقة من حلقات سلسلة الوجود الكبيرة، لتكون الواسطة بين الله تعالى الخالق والمدبر وبين المخلوق الناقص والمحدود بحدود المادة في دنيا تُعدّ أدنى وأنزل مراتب الوجود.

لقد تطرّق المؤلف في هذا الكتاب إلى إثبات أصل النبوة وما يتفرّع عليها من مسائل، معتمدًا على المنظومة الكونية الإلهية ومستعينًا بنصوص القرآن والروايات الشريفة وما يدلّ عليه العقل الصريح.

تطبيق المركز

http://www.iicss.iq
islamic.css@gmail.com